موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي



ندوات تلفزيونية

مكارم الاخلاق

www.nabulsi.com info@nabulsi.com

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (01-30) : كيف تكون حقيقة الإنسان؟ رحلة البويضة في رحم الأم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:

دكتور، كما تعلمون أن الإنسان في هذه الحياة وفي الكون له حقيقة، الحقيقة هي في أنه هو المخلوق الأول، وهو المخلوق المكرم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

[سورة الإسراء الآية: 70]

تُرى ما حقيقة هذا المخلوق؟ ما حقيقة الإنسان بشكلٍ عام؟.

الإنسان هو المخلوق الأول والمكرم والمكلف بعبادة الله عز وجل :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

الحقيقة أن الإنسان كما تفضلتم هو المخلوق الأول، لقوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

هذا الإنسان لأنه قبل حمل الأمانة، كان عند الله المخلوق الأول، لذلك:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

[سورة الجاثية الآية: 13]

تسخير تعريفٍ وتسخير تكريم، تسخير التعريف يقتضي أن يؤمن، وتسخير التكريم يقتضي أن يشكر، فإذا آمن وشكر حقق الهدف من وجوده، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية: 147]

والإنسان كما تفضلتم هو المخلوق المكرم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: 70]

والإنسان أيضاً هو المخلوق المكلف، كُلف أن يعبد الله عز وجل، والعبادة في أدق تعاريفها، طاعةٌ طوعية وليست قسرية، ممزوجة بمحبةٍ قلبية، فمن عبد الله ولم يحبه ما حقق الهدف من العبادة، من أطاع الله ولم يحبه ما عبده، ومن أطاعه ولم يحبه ما عبده، ومن أحبه ولم يطعه ما عبده، إذاً الإنسان هو المخلوق الأول، والمخلوق المكرم، والمخلوق المكلف بعبادة الله عز وجل.

الأستاذ عدنان:

لماذا في النهاية أنه ظلومٌ وجهول؟.

من قبل حمل الأمانة فهو عند الله من المقربين :

الدكتور راتب:

الحقيقة أنه قبل حمل الأمانة، فإذا أدى هذه الأمانة كما أراد الله ليس ظلوماً، وليس جهولاً، وهناك من يحمل الكلمتين الأخيرتين في الآية على أنهما استفهام إنكاري، هذا الذي قبل حمل الأمانة، وطمع أن يكون عند الله من المقربين، وطمع في:

(وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ)

[سورة آل عمران الآية: 133]

هل يكون ظلوماً جهولاً؟ لا، لكن إذا قبل حمل الأمانة، ثم خان الأمانة، ولم يتعرف إلى الله، ولم يحمل نفسه على طاعة الله:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب الآية: 72]

فحينما تؤدى الأمانة، ليس ظلوماً ولا جهولاً، أما إذا لم يؤدِ الأمانة هو في الحقيقة ظلومٌ وجهول.

الأستاذ عدنان:

الإنسان بحدِّ ذاته، هل يشعر كل إنسانٍ في هذا الكون أنه حُمّل هذه الأمانة؟.

كل إنسان فُطر فطرة تتناسب مع منهج الله عز و جل :

الدكتور راتب:

طبعاً، يشعر بهذه الأمانة حينما فُطر في أصل بنيته الخلقية على منهج الله، فلمجرد أن يخالف الإنسان منهج ربه، يشعر بانقباض وضيق، وهذا سنأتي عليه في حلقة أخرى إن شاء الله، الإنسان فُطر فطرةً تتناسب مع منهج الله عز و جل، قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

نعود إلى تعريف العبادة: هي طاعة طوعية ممزوجة بمحبةٍ قلبية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية.

لكن الحقيقة أن الإنسان خلق للجنة، لذلك قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، ومذاهبهم، لا يزيدون عند الله عن نموذجين، النموذج الأول: الإنسان أيقن أنه مخلوقٌ للجنة، لذلك اتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على دفع ثمن الجنة، وهو العمل الصالح، فصفة المؤمن في أي مكان، وفي أي زمان هو هذه الصفة، هي اليقين أن الجنة هي محط الآمال، ومنتهى الرحال، وأن الجنة دفع ثمنها في الأرض، يأتي إلى الأرض ليدفع ثمنها، لذلك في الأرض يتقي أن يعصي الله، وفي الأرض يبني حياته على العطاء.

أخصّ خصائص المؤمن يقينه بالآخرة وضبطه لشهواته :

لو سألتني عن أخصّ خصائص المؤمن، يقينه بالآخرة وضبطه لشهواته، ونحن نتحدث عن مكارم الأخلاق، وأبرز صفة في مكارم الأخلاق ضبط الشهوات ثم العمل الصالح، إذاً العمل الصالح هو ثمن الجنة، والاستقامة أي ضبط الشهوات وفق منهج الله هذا الطريق يكون سالكاً إلى الله، ثم اليقين أن الإنسان خُلق للجنة،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

تصديقه بالحسنى ـ والحسنى هي الآخرة ـ دفعه إلى أن يتقي أن يعصي الله، أي استقام على أمر الله، أي جعل الطريق سالكاً إلى الله، أما الحركة على هذا الطريق فهي العمل الصالح، أعطى من ماله، من

علمه، من وقته، من خبرته، من كل ما رزقه الله عز و جل، ثم استقام على أمره لأنه أيقن أنه مخلوقٌ للجنة، وأن هذه الدنيا سماها الله حياةً دنيا، لأن بعدها حياةً عليا، حياة عليا أي فيها:

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

الأستاذ عدنان:

حتى يكون الإنسان ضمن هذا التوجيه ألا يحتاج إلى فكرٍ وعقلٍ يفكر به؟ وإلى هذه العاطفة الدينية والإيمان وما إلى ذلك؟.

الله عز وجل ميّز الإنسان بأنه أودع فيه قوة إدراكية :

الدكتور راتب:

الحقيقة أستاذ عدنان، أن الجماد كائن يشغل حيزاً، وله وزن، وله أبعادٌ ثلاثة، هذا الجماد، بينما النبات كائنٌ له وزن ويشغل حيزاً، وله أبعادٌ ثلاثة، لكنه ينمو، يختلف عن الجماد أنه ينمو، بينما الحيوان كائن يشغل حيزاً في الفراغ، وله أبعادٌ ثلاثة، وله وزن وينمو كالنبات، ويمتاز عن النبات أنه يتحرك، النبات لا يتحرك، ينمو ولا يتحرك، الحيوان ينمو ويتحرك، أما الإنسان فكائنٌ يشغل حيزاً في الفراغ، وله أبعادٌ ثلاثة، وله وزن، وينمو، ويتحرك، ويفكر، ميّز الله الإنسان بأنه أودع فيه قوةٌ إدراكية، فما لم تُلبَ هذه الحاجة العليا هبط عن مستوى إنسانيته، قال تعالى:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان]

ما لم تلبَ الحاجة العلوية في الإنسان، معرفة الله، معرفة الحقيقة، معرفة منهج الله، ما لم تلبَ هذه الحاجة العليا هبط عن مستوى إنسانيته، في الإنسان حاجات سفلى كالطعام، والشراب، والزواج، وما إلى ذلك، لكن حاجته العليا أن يعرف الحقيقة، لذلك هو قد أودع فيه قوةٌ إدراكية.

الأستاذ عدنان:

حتى إن هذه الأشياء الدنيا يمكن أن تسخر لخدمة الحاجات العليا أيضاً؟.

كل شيءٍ في الدنيا حيادي لأن الإنسان في الأصل مخير :

الدكتور راتب:

طبعاً، النقطة الدقيقة في هذا السؤال جزاك الله خيراً، أن كل شيءٍ في الدنيا حيادي، لأن الإنسان في الأصل مخير، فيمكن أن يستخدم الطعام والشراب ليتقوى بهما على طاعة الله، ويمكن أن يتزوج ليتقوى

بالزواج على طاعة الله، ويمكن أن يعمل ليكسب رزقاً حلالاً يكفيه مؤونة السؤال، إذاً كل شيءٍ خلقه الله في الدنيا حيادي، لأن الإنسان في الأصل مخير، بل إن حظوظ الإنسان حيادية، بل إن شهوات الإنسان حيادية، بل إن خصائص الإنسان حيادية، ما دام الإنسان مخيراً، فكل خصائصه، وكل حظوظه، وكل شهواته، حيادية، لذلك يرقى بأنه استخدم المال في العمل الصالح لا في إيقاع الأذى بين البشر.

إذاً قضية الإنسان أنه فيه جانبٌ إدراكي، و جانب شهواني، ومعه منهج، أستاذ عدنان، تماماً كالمركبة فيها محرك، ماذا يفعل المحرك؟ يعطي المركبة قوة الدفع، لكن لا بد من مقود، وإلا كان حادثٌ أليم، المقود هو العقل، ولابدّ من طريقٍ تمشي عليه المركبة إنه الشرع و المنهج، فالمحرك يتحرك، والعقل يضبط هذه الحركة، والطريق هو الشرع، فأي إنسان إن دفع بشهواته من دون عقل كان مصيرهُ الدمارُ و الهلاك.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص]

الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى :

الحقيقة، الإسلام العظيم أعطى الإنسان تفسيراً عميقاً، دقيقاً، متناسقاً، للكون والحياة و الإنسان، نعمةُ المؤمن الذي عرف الله، وقرأ كتابه، أنه يملك تفسيراً صحيحاً، وعميقاً، ودقيقاً، ومتناسقاً للكون والحياة والإنسان، الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، الكون كل ما فيه ينطق بوجود الله، وكماله، ووحدانيته، الكون طريق معرفة الله، لأنه قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي صلى الله عليه وسلم قرآنٌ يمشي، فالكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فمن خلاله نتعرف إلى الله، وهو أكبر شيءٍ ثابتٍ في الإيمان، دعك من اختلاف الديانات، دعك من اختلاف اللغات، دعك من اختلاف العروق والأجناس، هذا الكون ثابت فيه علم، وفيه حكمة، وفيه رحمة، وفيه قوة، وفيه عدل، فهذه المظاهر التي تبدو من خلال هذا الكون هي تعريفٌ بالله عز و جل، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

هذا هو الكون.

الأستاذ عدنان:

حسناً دكتور، أنا أعود للمثل الذي بينتهُ و طرقته قبل قليل، سيارة فيها مقود، الإنسان يديرُ المقود، والعقل هو المحرك أو القوة الدافعة، بعد ذلك الطريق هو المنهج، ألا يمكن أن يكون الطريق سلساً، جيداً، وبالمقابل يمكن أن يكون عسيراً؟ وكذلك المحرك يمكن أن يكون مضبوطاً، قوياً، ويمكن أن يكون ضعيفاً، والسائق قد يسهو أحياناً، وقد ينتبه أحياناً أخرى، ترى هل هذه الأمور تنطبق فعلاً على الإنسان، من حيث إن عقله يمكن أحياناً أن يضبط سلوكه، وأحياناً يمكن للشهوة أن تتغلب على عقله، ويمكن أن يكون أحياناً طريق العبادة، طريق التعرف إلى الله تعالى، فيه شيء صعب على الإنسان، من خلال اعتقاده، من خلال إيمانه، ويسهل الطريق ويصعب من خلال ما يمكن أن يجده الإنسان في ذاته.

طريق الله طريق مستقيم واضح المعالم :

الدكتور راتب:

الحوادث المروعة في الطرقات، سببها السُّكر أحياناً، حينما يتعطل العقل يكون الحادث المروع، وحينما ينطلق المحرك من دون ضابط يكون الحادث المروع، وحينما نختار طريقاً متعرجاً، هذا طريق الشهوات، وطريق الانحلال والانحراف، هذا الطريق متعرج ومنحرف، وطريق وعر، وفيه أكمات، وفيه حفر، أما حينما تختار طريق الله فاستقم إليه، طريق الله طريق مستقيم، واضح المعالم، فيه إشارات، فيه علامات:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

[سورة النحل]

والمحرك قوي، والمقود محكم، عندئذٍ السلامة محققة، أستاذ عدنان البشر على اختلاف أجناسهم فطروا على حبّ وجودهم، وعلى حبّ سلامة وجودهم، وعلى حبّ كمال وجودهم، هذا شيء من جبلة الإنسان ولا يأتي الشقاء إلا من الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف و تسخير تكريم :

إذاً: الكون مسخر لهذا الإنسان، تسخير تعريف وتكريم، تماماً كما لو قدم لك صديقٌ متفوق في اختراع الآلات هاتفاً فيه ميزات رائعة جداً، قدمه لك هدية، فأنت يحتمل في نفسك شعوران، الأول شعور الإكبار لهذا الإنجاز، و الثاني شعور الامتنان لأنه قدم لك هدية.

فالكون مسخر لهذا الإنسان ـ ولله المثل الأعلى ـ تسخير تعريف وتكريم، ردّ فعل التعريف أن نؤمن، وردّ فعل التكريم أن نشكر، فلمجرد أن تعرف الله، وأن تشكره، حققت الهدف من وجودك:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية:147]

أما هذه الحياة الدنيا هي دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، لأن الرخاء مؤقت والشقاء مؤقت، قد جعلها دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي، إن أسعد الناس في الدنيا من عرف حقيقتها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها، ذلك أن الإنسان حينما يسهو عن مغادرة الدنيا، ويضع كل آماله في الدنيا، ويضع كل البيض في سلةٍ واحدة، هو يغامر ويقامر لأنه قد يفقد حياته في ثانية، فإذا كلّ الذي حصّله وراء ظهره.

الدنيا جسرٌ للآخرة :

لكن المؤمن حينما عرف أن بعد هذه الحياة الدنيا آخرة، وأن السعادة سعادة الآخرة، وكما قال الإمام عليٌ رضي الله عنه: "الغنى والفقر بعد العرض على الله " حينما نقل المؤمن اهتماماته إلى الدار الآخرة، عندئذٍ أصاب وأفلح ونجح وتفوق.

لذلك الدنيا جسرٌ للآخرة، الدنيا ليست مقراً بل هي ممر، الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له، الإنسان يفقد حياته بثانية، أي كل مكانته، وعظمته، وهيمنته، وحجمه المالي، وحجمه الكبير في المجتمع، مبني على قطر الشريان التاجي، فإذا ضاقت هذه اللمعة دخل في متاعب لا تنتهي، الإنسان قيمته في سيولة دمه، فإذا تجمدت قطرةٌ من الدم في أحد فروع شرايين الدماغ أصبح معه خثرة، فقد حركته، فقد نطقه، فقد ذاكرته، والإنسان كل مكانته متعلقة بنمو الخلايا، فإذا نمت نمواً عشوائياً فقد حياته، فالذي لا يعرف الله يغامر، ويقامر، ويشعر بخسارةٍ لا توصف.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر الآية: 15]

والخسارة مؤلمة جداً.

من اتبع هواه وفق منهج الله لا شيء عليه :

لذلك التكيف هو أعلى درجة في الذكاء، أن تتكيف مع المصير المحتوم لا أن تقعد عن العمل، لك أن ترقى إلى أعلى مستوى، ولك أن تؤسس عملاً، ولك أن تؤسس مشروعاً، ولك أن تنال دكتوراه، لكن

وفق منهج الله، أنت مطمئن لأن الله عز و جل يقول:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية: 50]

فالذي يتبع هواه وفق منهج الله لا شيء عليه، هذا هو الكون، والحياة دار عمل وليست دار أمل، دار تكليف وليست دار تشريف، دار سعي وليست دار استرخاء، لذلك من عرف حقيقة الدنيا جعلها مع أوراقه الرابحة، ومن لم يفهم حقيقة الدنيا كانت مع أوراقه الخاسرة، أما الإنسان هو المخلوق الأول ـ كما تفضلتم في بداية الحلقة ـ والمخلوق المكرم، والمخلوق المكلف، مكلف بعبادة الله عز وجل، لكن العبادة بمفهومٍ شائع مفهومٍ سطحي، أن تصلي، وتصوم، وأن تحج، وأن تزكي، لكن العبادة لها مفهوم أعمق بكثير، العبادة انصياع لمنهج الله.

من عَبَد الله سعد بقربه في الدنيا و الآخرة :

أي ملخص وملخص الملخص: أنك إذا عبدت الله سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، تعرفه فتطيعه فتسعد بقربه، وطاعته منهج تفصيلي، ليست عبادات شعائرية افعل ولا تفعل في كل شيء، ما من حركةٍ ولا من سكنةٍ إلا ولها حكمٌ شرعي، فأنت آلة معقدة جداً، ولك صانعٌ عظيم، ولهذا الصانع العظيم تعليمات التشغيل والصيانة، فانطلاقاً من حبك لذاتك، وانطلاقاً من حرصك على سلامتك، يجب أن تطيع الله.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب]

الأستاذ عدنان:

دكتور هذا الكلام جميل، وكل من يستمع إلى هذا الكلام يقول: الحقيقة يجب أن يكون الإنسان مؤمناً، مع هذا نجد في الدنيا المؤمنين ونجد غيرهم، كيف يكون هذا؟.

العقل أداة معرفة الله :

الدكتور راتب:

الإنسان حينما يعطل عقله، العقل أداة معرفة الله، حينما يجعل عقله تبريرياً أي كلما انحرف في سلوكه استنجد بعقله ليعطيه غطاءً لانحرافه، حينما يكون العقل تبريرياً يكون السلوك منحرفاً، فلذلك العقل من دون وحي كالعين من دون ضوء تماماً، فالعقل وحده من دون وحي يهتدي به كالعين التي لا قيمة لها إطلاقاً من دون وسيطٍ بينها وبين الأشياء.

الأستاذ عدنان:

هذا توضيح جميل، أستطيع إذاً أن أقول: إن الإنسان إذا لم يكن على طريق أن يُعمِلَ عقله، وأن يضبط حركته، وأن يسير على الطريق المستقيم، فإنه في هذه الحالة يكون فعلاً المخلوق الغير مؤهل لدخول الجنة، ودخول الجنة لها ثمنٌ في هذه الحياة الدنيا كما تفضلتم يجب أن يقدمه الإنسان، ضمن هذا المشوار ـ إن صحّ القول ـ الطويل لحياة الإنسان لا من خلال عمره ولكن من خلال الترتيبات التي يجب أن يسلكها في حياته، أستطيع أن أقول: من عظمة الله تعالى ومن قدرته أشياء كثيرة، إن أشياء كثيرة من عظمته وقدرته يجب أن يتعرف إليها الإنسان، ومتى تعرف إليها فإنه يصل إلى السلامة بإذن الله، هذا يحتاج إلى آياتٍ بيناتٍ لهذا الأمر، كيف ندركها؟ كيف نتعرف إليها؟ كيف تنتقل بنا في الحقيقة إلى أشياء في حياتنا تدلنا على الخالق، ونسير من خلالها السير السليم الصحيح في حياتنا الدنيا؟ وهناك أمثلةٌ عديدة يمكن أن نتابعها معكم.

الموضوع العلمي :

معجزة خالق الأكوان في خلق الإنسان :

الدكتور راتب:

أستاذ عدنان، يقول الله جلّ جلاله:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

[سورة فصلت الآية: 53]

والموضوع اليوم معجزة خالق الأكوان في خلق الإنسان، فهناك رحلةٌ زمنيةٌ قصيرة مرّ بها الإنسان، ولنرجع مدةً إلى الماضي وندقق معاً في هذه الحكاية الرائعة المليئة بالمعجزات، ولنشاهد عظمة الله في خلق الإنسان، كان الإنسان خليةً واحدة في بطن الأم ومحتاجٌ إلى حمايةٍ، وهو أصغر من حبيبة ملح واحدة.

والآن أنتم أيها الأخوة المشاهدون تتحركون في الحياة الدنيا بحركةٍ رائعةٍ، كنا جميعاً خلية واحدة أصغر من حبيبة الملح، مثلما كان كل الناس على وجه الأرض، وقد انقسمت هذه الخلية وأصبحت اثنتين، ثم انقسمت مرةً أخرى وأصبحت أربع خلايا، ثم ثماني ثم ست عشرة، واستمرت الخلايا بالتكاثر، ثم ظهرت أول قطعة لحمٍ، ثم أخذت قطعة اللحم هذه شكلاً وأصبح لها يدان، ورجلان، وعينان، الخلية الأولى كُبّرت مئة مليار ضعف، وأخذت وزناً بستة مليارات ضعف، فالتي كانت قطرة

ماءٍ فقط بالسابق، أجرى الله فيها معجزاتٍ عدة، فخلق منها الإنسان الذي يتابع هذا المشهد، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

[سورة القيامة]

الحقيقة أن خلق الإنسان أحد أكبر الآيات الدالة على عظمة الله، وكل إنسانٍ خُلق هكذا، ويتابع خلق ابنه من خلال أقرب الناس إليه، فالابن يشهد على عظمة الله عز وجل، الناس المنغمسون في نزعة الحياة الدنيا يسيرون لا مبالين بالمعجزة المهمة المتحققة أمام أعينهم، هذه المعجزة هي خلق الإنسان.

رحلة البويضة في رحم الأم من آيات الله الدالة على عظمته :

الحقيقة: تبدأ أول مرحلةٍ في معجزة الخلق بنضج الخلية ـ خلية البويضةـ في عضوٍ في جسم المرأة يسمى المبيض، هناك رحلةٌ طويلةٌ أمام البويضة الناضجة، سوف تدخل أولاً قناة فالوب، وهنا ستقطع مسافةً طويلة حتى تصل إلى الرحم، تبدأ قناة فالوب بالحركة للإمساك بالبويضة، الحقيقة هناك أشياء مدهشة في خلق الإنسان، وهذه المشاهد مأخوذة بمناظير دقيقة جداً في جسم المرأة، فتبدأ قناة فالوب بتمهيد طريقٍ لهذه البويضة، فتمسك البويضة الناضجة قبل خروجها من المبيض بمدةٍ قصيرة، وتحاول إيجاد خلية عن طريق لمساتٍ خفيفة على المبيض، ونتيجةً لهذا البحث تجد قناة فالوب البويضة الناضجة وتسحبها لداخلها، وحينئذٍ تبدأ رحلة خلية البويضة، يتوجب على البويضة قطع طريقٍ طويلٍ عبر قناة فالوب، لكن ليس لها أي عضوٍ يُؤَمن لها قطع هذا الطريق، كالزعانف، أو الأرجل، ولهذا خلق لرحلتها نظامٌ خاص، نظامٌ رائعٌ جداً، فقد وظفت ملايين الخلايا التي توجد في السطح الداخلي لقناة فالوب لإيصال البويضة إلى الرحم، تحرك الخلايا هذه الشعيرات الموجودة على السطح الداخلي لقناة فالوب لإيصال البويضة إلى الرحم، وهذه الشعيرات تحرك البويضة على سطحها ونحو الرحم باستمرار، وهكذا تُحمل خلية البويضة من يدٍ إلى يد إلى الجهة التي يجب ذهابها نحوها كحملٍ ثمينٍ جداً، عندما ندقق في هذه الشعيرات نجدها قد نسقت في المكان والشكل الذي يجب أن تكون عليه ضمن خطةٍ ذكيةٍ جداً، وتقوم معاً بحركة نقلٍ إلى الجهة نفسها، وكأنها آلةٌ مبرمجةٌ لذلك، فلو لم يقم قسمٌ من هذه الخلايا بمهمته، أو قام بنقلها إلى جهاتٍ مختلفة، لن تصل البويضة إلى هدفها، ولا تتحقق الولادة أبداً، ولكن خلق الله تامٌ، فكل خليةٍ تنفذ مهمتها التي أوكلت إليها دون أي خطأ.

وهكذا تتقدم إلى المكان المجهز خصوصاً لأجل البويضة أي إلى رحم الأم، لكن خلية البويضة المنقولة بدقة بهذا الشكل عمرها لا يتجاوز أربعاً وعشرين ساعة، وتموت ما لم تلقح في هذه المدة، وتحتاج إلى المواد الحياتية للتلقيح، النطفة تأتي من جسم الرجل، الحقيقة هذه المشاهد التي ترونها هي مشاهد أُخذت

بآلات دقيقة جداً مجهرية، فلابد أن نعظم خالقنا وربنا الذي خلقنا.

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

[سورة المرسلات الآية: 20]

ومن نطفةٍ لا ترى بالعين، وإن شاء الله هناك أبحاثٌ أخرى حول خلق الإنسان، تقدر في الإنسان عظمة الله عز و جل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (02-30) : تعريف العبادة، خصائص النطفة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:

كلمة العبادة كلمة مطروقة ونسمعها جميعاً، ترى هل العبادة أن يصلي الإنسان في محراب صلاته دائماً؟ هل هي الصوم؟ هل هي الزكاة؟ هل هي الحج فقط؟ أم العبادة أشياء أخرى بالإضافة إلى ذلك؟ نبدأ بتعريف العبادة إن سمحتم.

من عرف سرّ وجوده وغاية وجوده سلم و سعد في الدنيا و الآخرة :

الدكتور راتب:

بادئ ذي بدء أستاذ عدنان، العبادة علة وجودنا.

لو أن إنساناً سافر إلى بلد، نزل في أحد فنادقه، واستيقظ في صبيحة اليوم الأول، وسأل إلى أين أذهب؟ نسأله نحن لماذا أتيت إلى هنا؟ إن جئت طالب علمٍ اذهب إلى المعاهد والجامعات، وإن جئت تاجراً اذهب إلى المعامل والمؤسسات، وإن جئت سائحاً اذهب إلى المقاصف والمتنزهات، فلا تصح حركة الإنسان في الحياة إلا إذا عرفَ سرّ وغاية وجوده.

لو كبرنا هذا المثل لماذا أنا في الدنيا؟ أنا حينما أعرف لماذا أنا في الدنيا تصحُ حركتي، و إن صحت حركتي سلمتُ و سعدتُ، وانتقلت حياتي من حياةٍ طارئةٍ إلى حياةٍ أبدية، أي اتصلت نِعم الدنيا بنِعم الآخرة، لذلك الأصل في العبادة أن يعرف الإنسان لماذا هو في الأرض؟ المثل كانَ مبسطاً لو كبرناه خالق الأكوان يقولُ لي:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

هناك نقطة ثانية دقيقة: لو أن طالباً على مشارف امتحانٍ مصيري، امتحان التخرج، ويبنى على تخرجه تعيينه في وظيفةٍ مرموقة ولها دخلٌ كبير، ويبنى على تعيينه ِ زواجهُ وشراء البيت، لو أن أصدقاءه الذين يحبهم حباً جماً أخذوه قبل الامتحان بيومين إلى مكان جميل، أطعموه أطيب الطعام، تمتع

بأجمل المناظر، لماذا يشعر هذا الطالب الذي أخذ إلى هذا المكان الجميل الرائع بانقباضٍ لا يحتمل؟ لأن هذه الحركة قبل الامتحان بيومين لا تتناسب مع هدفه، لو أن هذا الطالب جلس في غرفةٍ قميئةٍ، وقرأ الكتاب المقرر واستوعبه، لشعر براحةٍ لا توصف.

إذاً متى يسعد الإنسان؟ إذا جاءت حركته في الحياة مطابقةً لهدفه، إذاً يسلمُ ويسعد إذا عرف سرّ وجوده وغاية وجوده، فإذا أخبرنا خالق الأكوان، ربُ العالمين، من بيده ملكوتُ كل شيء فقال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

العبادةُ سرّ وجودنا وطاعةٌ لكل أوامر الله عز وجل :

إذاً العبادةُ سرّ وجودنا، لكن المسلمين في عصور التخلف الديني فهموا العبادة عبادةً شعائرية، أن تصليَ الأوقات الخمس، وأن تصوم رمضان، وأن تحجَ البيت، وأن تؤدي الزكاة، وانتهى كلُ شيء، أنا أقول: لم ينتهِ شيء، العبادة واسعة جداً، لأنها طاعة، طاعةٌ لكل منهج، منهجُ الله يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، منهج الله يغطي كل حركة الإنسان، في بيتهِ، مع زوجته، مع أولاده، مع والديه، مع جيرانهِ، مع أصدقائهِ، مع زملائه، في عمله، في مكتبهِ، في متجره، في معمله، في حقله، في وظيفته، في سفره، في حَضرهِ، في إقامتهَ، في حلهِ، في ترحاله، في أحزانهِ، في أتراحهِ، في كل شيء، منهج تفصيلي، أكاد أقول: منهج الله يقترب من خمسمئة ألف بند، فإذا فهم المسلمون دينهم على أنهُ عبادات شعائرية؛ يصلي، ويصوم، ويحج، ويزكي، وحياتهُ في وادٍ آخر، وكسبُ مالهِ في وادٍ آخر، وإنفاقُ مالهِ في وادٍ آخر، ما فهم من الدين شيئاً.

لذلك العبادةُ طاعةٌ لكل أوامر الله عز وجل دقيقها وجليلها، الإسلامُ بمفهومه الواسع خضوعٌ لأمر الله، خضوعٌ لمنهج الله، طاعةٌ لكنها طوعية، لو أنها قسرية لا يمكن أن تكون عبادة، لأن الله ما أرادنا أن نطيعهُ قسراً، أرادنا أن نطيعه باختيارٍ منا، بمبادرةٍ منا، بطاعةٍ أساسها الحب، لذلك هي طاعةٌ طوعية.

الأستاذ عدنان:

أحياناً دكتور يمكن أن يشعر الإنسان ـ وهنا أود توضيح ذلك الإنسان ـ يمكن أن يشعر بأن عليهِ أن يقوم لتأديةِ عبادة، لكنهُ يشعر بتثاقلٍ من أجل تأديتها، فإن أدّاها انتهى أو شردَ خلال تأديتها، تُرى هل تكونُ هنا طوعية؟ وكيف نوضح ذلك؟.

تعريف الطاعة :

الدكتور راتب:

الطاعة طوعية بمعنى أنهُ أراد أن يصلي، أما أن يكون له في الصلاة اتصال بالله عميق يحمله على أن يبكي أحياناً، أو ألا يكون هذا الاتصال عميقاً، هذا ليسَ بيدهِ، النبي الكريم علمنا فقال:

((اللهم هذا قسْمي فيما أملك. فلا تَلُمني فيما تَملك ولا أملك - يعني القلب))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين]

أنا أملك أن أتوضأ، وأن أصلي، وأن أقف في خشوع، وأن أتلو القرآن، وأن أتدبر ما قرأت، أما أن تأتيني نفحة من الله، هذه من عند الله، لحكمةٍ بالغةٍ بالغة يصبها على قلب إنسان ويبعدها عن قلبٍ آخر، لعلهُ تعطيشاً له، أو دفعاً له إلى مزيد من العمل الصالح.

على كلٍّ: الطاعة ينبغي أن تكون طوعية، لأن علاقة المحبوبية أساس العلاقة بين العبد وربه، أساس خلق الإنسان، وفي آية كريمة قال تعالى:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية:54]

أي أيةُ طاعةٍ قسريةٍ لا قيمة لها إطلاقاً، الطاعة ينبغي أن تكون طوعية، ولا يكفي أن تكون الطاعة طوعية، ينبغي أن تكون ممزوجة بمحبةٍ قلبية، الحب أصلٌ في الدين، والذي لا يشعر بحاجةٍ إلى أن يحِب، ولا إلى أن يُحَب ليسَ من بني البشر، كأن الإسلام جسد روحهُ الحب، فإذا ألغينا الحب كنا أمام جثةٍ هامدة، فالحبُ أصلٌ في الدين، هناك حبٌ في الله، وهناك حبٌ مع الله.

على كلٍّ: طاعةٌ طوعية، ممزوجة بمحبةٍ قلبية، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية، هذا التعريف دقيقٌ جداً فيهِ كُلية سلوكية هي الأصل، أي العبادة التزام، العبادة طاعة، العبادة وقوف عند الأمر والنهي، العبادة تطبيق، العبادة أن تحملَ نفسك على منهج الله، العبادة هي الأصل.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: الآية: 72]

ما تحركوا، ما سلكوا.

(مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: الآية 72]

الجانب السلوكي أصلٌ في العبادة سببه المعرفة :

إذاً الأصل في العبادة الالتزام، التطبيق، الوقوف عند الأمر والنهي، ليس الوليُ الذي يمشي على وجه الماء، وليسَ الوليُ الذي يطير في الهواء، الوليُ كلّ الولي الذي تجده عند الحلال والحرام، أي يجدك حيثُ أمرك، ويفتقدك حيثُ نهاك، هذا تعريف العبادة؛ طاعة طوعية وليست قسرية، أي قوي يمكن أن يعطي أمراً فينفذ، هذا ليس عبادةً، طاعة طوعية، مبادرة من الذات، لذلك:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

اللهُ عز وجل ما أرادنا أن نطيعهُ قسراً، لكن أرادنا أن نأتيهُ طائعين، أن نأتيهُ محبين، طاعة طوعية، ممزوجة بمحبةٍ قلبية، أي ما عبد اللهَ من أطاعهُ ولم يحبه، وما عبد الله من أحبهُ ولم يطعهُ.

تعصي الإله وأنتَ تظهر حبهُ ذاك لعمري في المقال شنيعُ

لـو كان حبكَ صادقاً لأطعتهُ إن الـمحب لمن يحبُ يطيع

* * *

هذا الجانب السلوكي هو أصلٌ في العبادة، سببه المعرفة، طاعة طوعية ممزوجة بمحبةٍ قلبية، أساسها معرفة يقينية.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)

[سورة التكاثر]

لا يوجد بالإسلام علم ظني، العلم في الإسلام معرفة يقينية سببت طاعة طوعية انتهت بحالةٍ جمالية، تفضي إلى سعادةٍ أبدية.

السلامة والسعادة لا تتأتى إلا من طاعة الله عز و جل :

كل إنسان منا يتمنى شيئين أساسيين؛ السلامة والسعادة، والسلامة والسعادة لا تتأتى إلا من طاعة الله عز و جل، من اتباع تعليمات الصانع.

فلذلك العبادة واسعة جداً، لها كُلية معرفية هي السبب، ولها كُلية سلوكية هي الأصل، ولها كُلية جمالية هي الثمرة، أي المؤمن سعيد، نحنُ عندنا بعض أذكارنا نقول: وعلى أسعدنا محمد، وإذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، والسعادة هدف كل إنسان، ويكونُ الشقاء من الجهل، بل إن أزمة أهل النار في النار الجهل:

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك]

العبادة نوعان؛ عبادةٌ تعاملية وعبادةٌ شعائرية :

لكن أستاذ عدنان، شيء دقيق جداً، العبادة نوعان: عبادةٌ تعاملية وعبادةٌ شعائرية.
العبادة التعاملية وصفها سيدنا جعفر بن أبي طالب حينما التقى النجاشي وسألهُ عن هذا الدين الجديد، قال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة أم المؤمنين]

تعريف الإسلام عندَ الإمام الكبير جعفر بن أبي طالب تعريفٌ أخلاقي، الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زادَ عليكَ في الإيمان، هذا هو تعريف العبادة التعاملية، هي صدق، وأمانة، وعفة، والتزام، ورحمة، وعدل، وتواضع، فلذلك العبادة التعاملية هي مكارم الأخلاق، عنوان هذه الحلقة العبادة التعاملية.

العبادة الشعائرية لا تصحُ ولا تقبل إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

أؤكد أنا أن العبادةَ الشعائرية لا تصحُ ولا تقبل إلا إذا صحت العبادة التعاملية الدليل: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوماً:

((أتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه أخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

ذهبت الصلاة، الصيام:

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعمَلَ بهِ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشرَابَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

الحج.

((وإذا خرج بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز فنادى: لبيك، ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام ونفقتك حرام وحجك غير مبرور))

[أخرجه الحاكم في مستدركه عن زيد بن ثابت]

الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: 53]

هذه أخطر حقيقة، أن العبادات الشعائرية لا تقبل ولا تصح إلا إذا صحت العباداتُ التعاملية، لذلك:

((ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجة بعد حجةِ الإسلام))

[ورد في الأثر]

((ولأن أمشيَ مع أخ في حاجتهِ خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافي في مسجدي هذا))

[الجامع الصغيرعن ابن عمر]

رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً أو شاباً يصلي و يعبد الله في أوقات العمل فسأله: من يطعمُكَ؟ قالَ: أخي، قالَ: أخوكَ أعبدُ منك.

فالعبادة عمل، والعبادة كسب مال حلال، وأنا أقول دائماً: الدين ليسَ في المسجد فقط، في المسجد تتلقى الأوامر وتقبض الثمن فقط، أما الدين في المعمل، في الحقل، في الصيدلية، الدين في المكتب التجاري، الدين في الوظيفة، فالدين منهج كامل، والمسلمون وقعوا في خطأٍ كبير قاتل حينما توهموا أن الإسلام عبادة شعائرية، أما في حقيقة الإسلام أنَ المسلم صادق، إن حدثكَ فهو صادق، وإن عاملتهُ فهو أمين، وأن استثيرت شهوتهُ فهو عفيف.

الأستاذ عدنان:

لذلك:

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

[سورة هود الآية: 61]

أي جعلنا خلائف في الأرض من أجلِ إعمار الأرض، ومن أجلِ أن تكون العبادة الشعائرية ملتصقة ومتممة أيضاً من خلال العبادة التعاملية، وأشياء كثيرة في موضوع العبادة التعاملية والشعائرية موجودةٌ نصوصها في الكتاب، وفي أحاديث الرسول محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم، إذاً هناكَ أنواع للعبادة يمكن أن يتحدث عنها الإنسان؟

أنواع العبادة :

1 ـ عبادة الهوية :

الدكتور راتب:

الحقيقة: هناك عبادة الهوية، أنتَ من؟ أنتَ غني؟ عبادتك الأولى إنفاق المال، أنت من؟ أنت قوي، عبادتك الأولى إنصاف المظلوم، إحقاق الحق، إبطال الباطل، القوي بجرة قلم يحق حقاً ويبطل باطلاً، يقر معروفاً ويزيل منكراً، يقرب ناصحاً مخلصاً، يبعد فاجراً منافقاً، أنت من؟ أنت عالم؟ العبادة الأولى تعليم العلم.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية:39]

فعبادة الهوية أنتَ من؟ أنتِ من؟ أنتِ امرأة؟ العبادة الأولى رعاية الزوجة والأولاد.

والسيدة خديجة كانت قدوة للنساء في رعاية زوجها وأولادها، فلما فتحَ النبيُ الكريم مكة المكرمة، دعاهُ كبار زعمائها ليبيتوا عنده، فقال: انصبوا لي خيمةً عندَ قبر خديجة، وركّزَ لواء النصر أمام قبرها، ليُعلم العالم كلهُ أنَ هذه المرأة التي في القبر شريكتهُ في النصر.

فالمرأة عبادتها الأولى أن تنجب أولاداً صالحين للمجتمع، أن تربيهم، أن تعتني بهم، شهادتها العليا أولادها، فكلما اهتمت المرأةُ بتربية أولادها، ورعايةِ زوجها، انضبط المجتمع، أول عبادة عبادة الهُوية.

2 ـ عبادة الظرف :

الآن عندنا عبادة الظرف، أي عندك ضيف، العبادة الأولى إكرام الضيف، عندك إنسان مريض ـ لا سمَح الله ـ العبادة الأولى معالجة المريض والعناية بهِ، عندك ابن في الشهادة الثانوية، العبادة الأولى تهيئة الجو لهُ، هذه عبادة الظرف.

3 ـ عبادة العصر :

أيضاً عندنا عبادة العصر، أي هذا الطرف الآخر القوي المتغطرس إذا أرادَ إفقارنا العبادة الأولى استصلاح الأراضي، وإنشاء السدود، واستخراج الثروات، وتفجيرُ الطاقات، وتطوير الصناعات حتى نكتفيَ ذاتياً، إن أرادَ إضلالنا ترسيخ معالم الدين، الرد على الشبهات التي يفتريها أعداء الدين، توضيح

المعالم، تبسيط الأمور، تعميقُ فهمنا للدين، تحبيب الدين إلى نفوس شبابنا وشاباتنا هي أول عبادة، وإذا أراد إفسادنا العبادة الأولى تحصينُ شبابنا وشاباتنا، أن تشغلهم بما هوَ خير، أن تهيئ لهم مناشط إسلامية، أن تستخدم طاقاتهم الكبرى في الخير، وفي البناء، وإن أرادوا إذلالنا، يجبُ أن نضحي بالغالي والرخيص والنفس والنفيس، من أجلِ ألا نكونَ لقمةً سائغة لأعدائنا، من أجل أن نخطط لا أن يُخطط لنا، من أجلِ ألا نكون رقماً لا معنى لهُ في خطَطِ أعدائنا.

فلذلك:

((القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلّ خير))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هذا جبر خاطر، أما القوي معهُ خيارات للعمل الصالح لا تعد ولا تحصى.

الأستاذ عدنان:

دكتور القوي في هذه الحالة هل هي القوة التي يفهمها كثيرٌ من الناس على أنها القوة المادية فقط، أم أنها يمكن أن تكونَ المادية، ويمكن أن تكون المعنوية، ويمكنُ أن تكونَ القوةُ في إنشاء الأمور الجيدة.

القوةُ قوةُ المال وقوة العلم وقوة المنصب :

الدكتور راتب:

الحقيقة القوةُ قوةُ المال، وقوة العلم، وقوة المنصب، الذي يحتل منصباً حساساً ودقيقاً بجرةِ قلم يحقُ حقاً، فإذا كنتَ في منصب، فهذه قوة، وإذا كنتَ غنياً فبإمكانك أن تصل بمالك إلى أعلى مراتب الجنة، وإذا كنتَ عالماً أيضاً تنشرُ علمك فيكون سببَ رُقي الأمة، فقوةُ العلم، وقوةُ المال، وقوة المنصب، هذه ثلاثة أشياء تعدُ مرتكزات القوة، فيجب أن تكون قوياً في مالك، أو في علمك أو في منصبك، إذا كانَ طريق القوةِ سالكاً وفق منهج الله، أما إذا كانَ طريق القوة على حسابِ مبادئك، وعلى حساب دينك، فالضعفُ وسام شرفٍ لك، ينبغي أن تكونَ غنياً إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله، ضمنَ الضوابط الشرعية، فإذا كانَ الغنى عن طريق تجارة المخدرات مثلاً ـ لا سمح الله ولا قدر ـ أي إذا كان الطريق إلى الغنى طريقاً شائكاً، وطريقاً على أساس التضحيةِ بالمبادئ والقيم والدين والعرض، لا مرحباً بالضعفِ، ومرحباً بالفقر، لأنهُ عندئذٍ وسامُ شرفٍ لنا، أي هو القوة مطلوبة، لكن بوسائل مشروعة، في الإسلام ليسَ هناك هدفاً يمكن أن نصل إليهِ بوسيلة غير مشروعة.

الأستاذ عدنان:

دكتور قد يقولُ قائل: أنا فقير، أنا لستُ قوياً، أنا لا أملك الأسباب التي تحدثت عنها، أين تكونُ عبادتي؟ يبقى الجواب من خلال ما وضحتموه الهُوية، أنتَ مَنْ أيها الإنسان؟

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

إذاً يستطيع أن يحقِق معنى العبادة كل إنسان مهما كان في وضعهِ، من قوةٍ أو ضعف، من فقرٍ أو غنى، وهذا يشمل الناس أجمعين، الآن إذا أردنا أن نتابعَ شيئاً من هذا في مجال عظمة الله وخلقهِ الذي نرى فيهِ عظمتهُ، فماذا يمكن أن نرى دكتور؟.

الإعجاز العلمي :

خلق الإنسان في بطن أمهِ :

الدكتور راتب:

الحقيقة أستاذ عدنان، أنَ عظمة الله تتبدى في كل شيء، لكن أقرب شيءٍ إلينا أنفسنا، قالَ تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[سورة الذاريات]

فالحديث عن خلق الإنسان في بطن أمهِ حديثٌ رائعٌ جداً، وحديثٌ يمكن أن يكون أحد الأسباب الدالة على عظمة الله، فالنطفة مثلاً، النطفةُ خلية موظفة لإيصال معلومة الذكر الوراثية إلى خلية البويضة في الأنثى، إذا دققنا عن كثبٍ نرى جهازاً مصمماً بشكلٍ خاص لحمل هذه النطفة، القسم الأمامي للنطفة مغطى بدرع واقٍ، وتحتهُ درعٌ ثانٍ، وتحتَ هذا الدرع الثاني يوجد ما يشبه الشاحنة التي تحملُ النطفة، ويوجد داخل هذه الشاحنة ثلاثةٌ وعشرونَ صبغياً عائداً للرجل، المعلومات العائدة لجسم الإنسان، وأدقُ تفاصيله جميعها مخفيةٌ في هذه الصبغيات، ولظهور إنسانٍ جديد يجب أن تتحد الصبغيات الثلاثة والعشرون الموجودة في نطفة الرجل مع الصبغيات الثلاثةِ والعشرين الموجودة في بويضة المرأة.

وهكذا سيظهرُ أول تكونٍ لجسم الإنسان من ستةٍ وأربعينَ صبغياً، تصميم الدرع الموجود في الجهة الأمامية للنطفة سيحمي هذا الحِمل الثمين طوالَ هذهِ المسافةِ الطويلة من جميع أنواع الأخطار، وتصميم النطفة غيرُ محصورٍ بهذا وحسب، فهناك في القسم الأوسط للنطفة محركٌ قويٌ جداً، ويرتبط بطرف هذا المحرك ذيلُ النطفة، القوة التي ينتجها المحرك تدور بشكلٍ رائع، وتحرك الذيل كالمروحة، وتؤمن للنطفة قطع الطريق بسرعةٍ، ولوجود هذا المحرك لا بدّ له من وقودٍ سائل، هذا الوقود هو سكر الفركتوز، هذا الوقود يمد المحرك بالقوة، والمحرك يحرك الذيل، والذيل كالمروحة، إذاً تمشي النطفة إلى الأمام، بفضلِ هذا التصميم الكامل تقطع النطفةُ طريقاً نحو البويضة بسرعةٍ، عندَ ملاحظة حجم النطفةِ بالنسبةِ إلى المسافة التي قطعتها، تظهرُ حركتها السريعة التي تشبه قارب السباق، هذا الجهاز

المدهش يتمتع بمهارةٍ كبيرة، حيثُ يوجد داخل كل خصيةٍ مركزٌ لإنتاج النطف، أقنيةٌ مجهريةٌ يصلُ طولها إلى خمسمئة متر، الإنتاجُ في هذه الأقنية يشبهُ تماماً نظامَ السكة الحديدية المستخدمة في المعامل الحديثة، فأقسام النطفة من درعٍ، ومحركٍ، وذيلٍ، تركب مع بعضها على الترتيب، وفي النهاية تظهر روعة الهندسةِ الكاملة.

اللهُ عز وجل خلقَ كل شيء فأحسن خلقه :

علينا التفكير ولو قليلاً في هذه الحقيقة، كيفَ عرفت الخلايا التي لا وعيَ لها طريقة تجهيز النطفة بشكلٍ يتناسبُ مع جسم الأم على الرغم من جهلها بها تماماً؟ كيف تعلمت النطف صنع الدرع والمحرك والذيل بحسب حاجة جسم الأم؟ بأي عقلٍ تتركب هذه القطع بالترتيب الصحيح؟ من أين تعلم النطف أنها ستحتاج إلى سكر الفركتوز؟ كيف تعلمت صنع محركٍ يعملُ بهذا السكر؟ هناكَ جوابٌ واحدٌ فقط لكل هذه الأسئلة، النطف والسائل المركب داخلها خلقهُ الله عز و جل بشكلٍ خاص لاستمرار نسل الإنسان.

النطفةُ منتجةٌ بجسم الأبِ، أما مهماتها فلا تتحققُ إلا في جسم الأم، ولا تملك أي نطفةٍ في تاريخ البشرية العودةَ إلى جسمِ الأب مرةً أخرى بعدَ انتهاء مهمتها في جسم الأم، فمن علّم هذه النطفة؟ إنهُ اللهُ عز وجل الذي خلقَ كل شيء فأحسن خلقه، والله عز و جل يقول حينما سأل فرعون سيدنا موسى:

(قالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه]

الحقيقة قالَ تعالى:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ *أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

[سورة الواقعة]

والله أستاذ عدنان، هناك آيات في جسم الإنسان لو أمضينا حياتنا كلها لا نكتفي بأن نتعرف إلى الله من خلالها، لكنهُ كما يقال: شدةُ القرب حجاب.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (03-30) : التفكر بخلق الله هو أقصر طريق يدل على الله، مراحل الحمل عند المرأة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:

دكتور، التفكر بمخلوقات الله، بآيات الله، بما حولنا، هذا التفكر يقودنا إلى معرفةِ حقيقتنا، وإلى معرفةِ وجودنا، من خلال أننا عبادٌ لله تعالى، هذه المعرفة تؤكد فينا الأخلاق، وتؤكد فينا مكارمها، وتؤكد سيرنا على الصراط الحق، والنهج القويم، والتفكر هذا يمكن أن يكون كما في منطوق الآية الكريمة:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

[سورة فصلت الآية:53]

الأفاق أولاً، ثم ننتقل بعد ذلك إلى ما في النفوس، يمكن أن نتابع؟.

التفكر هو السبيلُ إلى معرفة الله عز وجل :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان، الله عز و جل يقول:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ)

[سورة آل عمران]

جاءت يتفكرون بصيغة المضارع، أي أنهم يتفكرون طوال حياتهم.

(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

إذاً: كأن التفكر هو السبيلُ إلى معرفة الله.

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية]

فالله عز و جل له آيات كونية، وله آيات تكوينية أفعالهُ، آياته الكونية خلقه، آياته التكوينية أفعاله، ولهُ آياتٌ قرآنية كلامه، فالتفكر بآيات الله الكونية والتكوينية والقرآنية طريقٌ لمعرفة الله، وأصل الدين معرفة الله.

آيات الله زمرتان؛ آياته في الآفاق و آياته في خلق الإنسان :

كما تفضلتم حينما قالَ اللهُ عز و جل

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

فيمكن أن تقسم آيات الله إلى زمرتين كبيرتين؛ آياتُ اللهِ في الأفاق، في الكون، في الشمس، في القمر، في المجرات، في النجوم، في الليل، في النهار، وآيات الله في خلق الإنسان وفيما حولهُ.

لذلك لو أردنا أن نبدأ ببعض آيات اللهِ في الأفاق الدالة على عظمته، أستاذ عدنان بيننا وبين أقرب نجم ملتهب إلى الأرض أربع سنواتٍ ضوئية، ولكي يعلم أخوتنا المشاهدون ما معنى سنة ضوئية؟ الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، فكم يقطع في الدقيقة؟ ثلاثمئة ألف ضرب ستين، كم يقطع في الساعة؟ ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين، كم يقطع في اليوم؟ ضرب أربع وعشرين، كم يقطع في العام؟ ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، كم يقطع في أربع سنوات؟ ضرب أربع، و أي طالب من طلابنا على آلة حاسبة ثلاثمئة ألف ضرب ستين، ضرب ستين، ضرب أربع وعشرين، ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، ضرب أربع، معه رقم كبير جداً، هذا الرقم هو المسافة بيننا وبين أقرب نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض، عدا المجموعة الشمسية، بيننا وبينهُ أربع سنوات ضوئية، لأن الشمس أيضاً ملتهبة، لكن بيننا وبينها ثماني دقائق ضوئية فقط، أما أقرب نجم عدا المجموعة الشمسية بعده عنا أربع سنوات ضوئية، هذا الرقم الكبير لو قسمناه على مئة، ما معنى مئة؟ أي أننا ركبنا مركبة أرضية، وسرنا افتراضاً باتجاه هذا النجم، لو قسمنا هذا الرقم على مئة الناتج كم ساعة نحتاج إلى أن نصل؟ لو قسمناه على أربع وعشرون، كم يوم؟ على ثلاثمئة وخمسة وستين، كم سنة؟ نحتاج إلى خمسين مليون عام بمركبةٍ أرضية كي نصل إلى أقرب نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض، الآن السؤال: متى نصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية؟ الأربع سنوات خمسين مليون عام، متى نصل إلى مجرة المرأة المسلسلة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية؟ بل متى نصل إلى نجمٍ اكتشف حديثاً يبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية؟ الآن نفتح القرآن الكريم لنقرأ قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة]

التفكر أحد الأسباب الفعالة في معرفة الله عز و جل :

لذلك:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر الآية: 28]

وكلمة إنما تعني: أن العلماء وحدهم ولا أحدَ سواهم يخشى الله، من تفكر في خلق السماوات والأرض عرفَ عظمة الله، وبقدر معرفتك لله تطيعه، وبقدر جهلِ الإنسان بالله يعصيه، لذلك لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر على من اجترأت:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

ولكن أستاذ عدنان، هناك نقطة دقيقة جداً، أن في هذه الآية كلمة لو قرأها عالم فلكٍ لخرَ ساجداً لله، كلمة مواقع، لأن هذا النجم كانَ في هذا المكان، وصدر منه هذا الضوء، وبقي هذا الضوء يمشي في الفضاء الخارجي عشرين مليار سنة، حتى وصل إلينا، أما هذا النجم الذي أصدر هذا الضوء سرعته تقترب من سرعة الضوء، أي ما يقدر بمئتين وأربعين ألف كيلومتر بالثانية، أي من عشرين مليار سنة يسير هذا النجم بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية، أين هو الآن؟ إذاً هذا المكان ليسَ نجماً هذا موقع النجم، كلمة موقع تعني أن صاحب الموقع ليس في الموقع، هنا الإعجاز، لو تصورنا أن الآية فلا أقسم بالمسافات بين النجوم، هذا ليس قرآناً، أما:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

النجم متحرك أصدر هذا الضوء وتابع حركته، إذاً هذا المكان الذي صدر منه الضوء هو في الحقيقة موقعٌ للنجم وليس نجماً، هذه آية، هذا من إعجاز القرآن الكريم العلمي،

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

التفكر أحد الأسباب الفعالة في معرفة الله عز و جل.

الأستاذ عدنان:

دكتور، شيءٌ آخر: عندما يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ)

لو قال قائل: صحيحٌ أن ما تكلمت به شيءٌ كبير وعظيم وملفت، بل ويكاد أن يستحوذ على فكر الإنسان، لكن مع هذا كله ليس هذا كل شيء.

نعم الله عز وجل لا نهائية :

الدكتور راتب:

نعم الله عز وجل لا نهائية، لا تنتهي عظمته عند حدٍّ، هو الكون عندنا لا نهائي فكيف بخالقه؟ هناك نقطة ثانية أن الله سبحانه وتعالى ذكر آياتٍ كثيرة في القرآن الكريم قال مثلاً:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[سورة البروج الآية: 1]

أستاذ عدنان، الأرض في دورتها حول الشمس تمر باثني عشر برجاً، طبعاً قضية البروج وعلم الغيب هذه خرافة غير مقبولة إطلاقاً.

((من أتى كاهناً فصدقة بما يقول فقد برئ مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل له صلاة أربعين ليلة))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس بن مالك]

أما البروج بالمفهوم العلمي هناك مجموعة نجوم، عددها اثنا عشر برجاً، تمر بها الأرض في دورتها حول الشمس، من هذه الأبراج برج العقرب.

الآن نقف قليلاً لنمهد لهذه الآية، الحقيقة أن بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر بين الأرض والشمس، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، أي أن جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، إذاً الحجم يفوق حجم الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، والمسافة بين الأرض والشمس تصل إلى مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر.

أما في برج العقرب الذي ذكرته قبل قليل، وهو أحد أبراج السماء، وقد أشير إليه في قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

هذا البرج فيه نجم صغير أحمر متألق اسمه قلب العقرب، هذا النجم يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، قلب العقرب يتسع للأرض والشمس التي تكبرها بمليون وثلاثمئة ألف مرة مع المسافة بينهما، أهذا الإله العظيم يُعصى؟ أهذا الإله العظيم ألا يخطب وده؟ ألا ترجى جنته؟ ألا تخشى ناره؟

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

الأستاذ عدنان:

دكتور حبذا لو توقفنا قليلاً عند هذه الآية الكريمة، إننا نجد بعض العلماء متخصصين، ومع هذا أكاد أقول لا تشملهم هذه الآية الكريمة، فهل هم فعلاً علماء أم الإطلاق في هذه الناحية؟

الإيمان قرارٌ داخلي :

الدكتور راتب:

الحقيقة هناك آلة تصوير ثمنها مليون ليرة مثلاً، لكن لا يوجد بها فيلم، فكل هذه المناظر الرائعة لا شيء، فالذي طلب الحقيقة يوجد بعقله فيلم، هذه الحقائق تنطبع على هذا الفيلم فيتأثر بمعرفة الله، أما الذي أراد الشهرة، أراد المال، أراد الدنيا فقط، هو لم يرد أن يعرف الله، بينما أنشتاين أحد أكبر علماء الفيزياء يقول: كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوةً هي أقوى ما تكون، عليمةً هي أعلم ما تكون، رحيمة هي أرحم ما تكون، هو إنسانٌ حي ولكنه ميت.

أي الإنسان له هدف، إذا كان هدفه الشهرة والمال لم يرد معرفة الله أبداً، قد يعرف الإنسان ربه من آثار أقدام، الأقدام تدل على المسير، قد يعرف ربه من أشياء قريبة جداً من حياته، بينما لا يعرف من هو في محطة فضائية ربه لأنه لم يرد معرفته، أحياناً إنسان يعمل على مجهر إلكتروني، يرى الخلية بدقائقها، لكنه لا يعرف الله لأنه لم يرد معرفته، فالإيمان قرارٌ داخلي نتخذه أولاً، فإذا اتخذناه كل شيءٍ يدلنا على الله، وإن لم نتخذه لو كنا من أعلم علماء الأرض وأردنا الدنيا، قد نصل إليها.

(وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

[سورة البقرة الآية: 200]

آية ثالثة تدل على عظمة الله عز وجل :

هناك آيةٌ ثالثة تدل على عظمة الله، الأرض في دورتها حول الشمس، سرعتها ثلاثون كيلو متراً في الثانية، نحن في هذا اللقاء قطعنا عشرات ألوف الكيلو مترات، في كل ثانية ثلاثون كيلو متراً تقطع الأرض في رحلتها حول الشمس، لكن مسارها حول الشمس مسار بيضوي وليس دائرياً، والشكل البيضوي له قطران، قطر أصغر، وقطر أطول، فالأرض إذا انتقلت من قطرها الأطول إلى قطرها الأصغر تقل المسافة بينها وبين الشمس وقانون الجاذبية معروف، الجاذبية متعلقة بالمسافة والكتلة، فالكتلة ثابتة، والمسافة متبدلة، إذاً يمكن أن تنجذب الأرض إلى الشمس فتنتهي معها الحياة، قال بعض العلماء: إذا دخلت الأرض في الشمس تبخرت في ثانيةٍ واحدة، لأن حرارة جوف الشمس عشرون مليون درجة، لذلك لئلا تنجذب الأرض إلى الشمس وقد وصلت المسافة القريبة، ماذا تفعل؟ ترفع الأرض من سرعتها، لينشأ من رفع السرعة قوةٌ نابذة تكافئ القوة الجاذبة الجديدة، فتبقى في مسارها.

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر الآية: 41]

أي أنها تنحرف عن مسارها، الآن إذا اقتربت الأرض من القطر الأصغر، ماذا يحصل؟ قد تكون القوة النابذة التي معها من رفع سرعتها كافية لتفلتها من مسارها حول الشمس، فإذا سرحت الأرض في الفضاء الخارجي انتهت الحياة بالتجمد، فالفضاء الخارجي حرارته الثابتة تقدر بمئتين وسبعين تحت الصفر، فتنتهي الحياة، لذلك في المنطقة الثانية تقلل الأرض من سرعتها، لينشأ من تخفيض السرعة قوةٌ نابذةٌ أقل تكافئ القوة الجاذبة الأقل بسبب البعد عن الشمس، فلذلك:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

[سورة لقمان الآية: 11]

قال بعضهم: لو أن الأرض تفلتت وانعتقت من جاذبية الشمس، وأردنا أن نرجعها، لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، قطر الحبل خمسة أمتار، وكل حبل فولاذي قطره خمسة أمتار يتحمل قوة شد تقدر بمليوني طن، فكأن الأرض مربوطة بجاذبيةٍ إلى الشمس بقوة مليوني ضرب مليون مليون، نحتاج إلى مليون مليون حبل، وقوة كل حبل تقدر بمليوني طن، من أجل أن تحرف الأرض عن مسارها حول الشمس ثلاثة ميلي كل ثانية ليكون المسار بيضوياً مغلقاً حول الشمس، لذلك الله عز و جل قال:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد الآية : 2]

أي بعمدٍ لا ترونها، فلو أننا زرعنا هذه الحبال على سطح الأرض كي نعيدها إلى الشمس، لكان بين كل حبلين مسافة حبلٍ واحد، إذاً لا يوجد ملاحة، ولا طرق، ولا بناء، ولا زراعة،

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

الأستاذ عدنان:

لا تتوفر هذه العمد التي تشير إليها، فإن تُوفرت لا يمكن من خلالها الحياة، وهذا شيءٌ مستحيل، لذلك:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون الآية: 14]

إذا انتقلنا إلى موضوع النفس،

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

النفس.

الغشاء العاقل من آيات الله الدالة على عظمته :

الدكتور راتب: الحقيقة النفس كائن معجز، ففي رحم الأم مشيمة، المشيمة يسميها العوام الخلاص، هي قرص من اللحم، فيه تجتمع دورة دم الأم ودورة دم الجنين معاً، ولا يختلطان، ولو أننا أعطينا إنساناً

دماً غير زمرته لمات فوراً بانحلال الدم، فزمرة دم الجنين غير زمرة دم الأم، يجتمع الصنفان من الدم ولا يختلطان بفضل غشاءٍ رقيقٍ سماه العلماء الغشاء العاقل، هذا الغشاء العاقل يقوم بمهمات يعجز عنها علماء الأرض، ماذا يفعل؟ يأخذ الأوكسجين من دم الأم ويضعه في دم الجنين، ثم يأخذ السكر من دم الأم ويضعه في دم الجنين، ثم يأخذ الأنسولين من دم الأم ويضعه في دم الجنين، صار هناك أوكسجين وسكر وأنسولين وسيط، يحترق السكر فيولد طاقة، نواتج هذا الاحتراق ثاني أكسيد الكربون، يأخذه الغشاء العاقل من دم الجنين ويطرحه في دم الأم حتى يخرج مع نَفَسها، فجزء من نفس الأم الحامل هو ثاني أكسيد الكربون لجنينها.

الآن الغشاء العاقل يأخذ عوامل المناعة في الأم يضعها في دم الجنين، عندئذٍ لا يصاب الجنين بكل الأمراض التي حُصنت منها أمه، هذا من مهام الغشاء العاقل، ثم الغشاء العاقل يأخذ المواد الغذائية التي يحتاجها الجنين، البروتين، السكر، الحموض الأمينية، المواد الدسمة، الفيتامينات، المعادن، أشباه المعادن، عشرات ألوف الأصناف، يأخذها ويعرف تقديرها الدقيق وينقلها من دم الأم إلى دم الجنين، هناك يحصل ما يسمى بالاستقلاب، الاستقلاب من نتائجه حمض البول، يأخذ الغشاء العاقل حمض البول من دم الجنين يضعه في دم الأم، فجزءٌ من طرح بول الأم بول جنينها.

الآن قد يحتاج الجنين إلى مادة معينة، كيف يخبر أمه؟ هل يخاطبها؟ هل يطرق على باب الرحم؟ ماذا يفعل؟ تشتهي الأم المادة التي يحتاجها الجنين، شهوة الأم الحامل ترجمةٍ لحاجة الجنين أحياناً.

التفكر أوسع بابٍ ندخل منه على الله وأقرب طريقٍ إلى الله :

لذلك هناك آيات دالة على عظمة الله عز و جل، هذا الغشاء العاقل يقوم بأعمال يعجز عنها أطباء الأرض، وقال بعضهم: لو أوكلت مهمات الغشاء العاقل إلى مئة طبيبٍ متخصصٍ بعلم الأجنَّة لمات الجنين في ساعةٍ واحدة، إذاً:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

[سورة القيامة]

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت الآية: 53]

أستاذ عدنان، التفكر أوسع بابٍ ندخل منه على الله، وأقرب طريقٍ إلى الله، وأنت إذا عرفت الله عرفت كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

الأستاذ عدنان:

دكتور: إذا تحدثنا عن موضوع الإعجازات الموجودة في هذا الكون لنستكمل الحديث، ومن خلال قناعاتٍ ذاتية تحصل للإنسان من خلال خلق الله، والإعجازات التي نراها في كل شيء، في الآيات، في الآفاق، وفي أنفسنا، ماذا نتابع معكم لنصل إلى شيء؟

الإعجاز العلمي :

مراحل الحمل عند المرأة :

الدكتور راتب:

الحقيقة كما أقول دائماً: إن أقرب آيةٍ تدلنا على الله خلقنا، والآن العلم تقدم تقدُماً جديداً، فصار بالإمكان أن نرى أشياء لم يكن لنا أن نراها من قبل، فالرجل حينما يلتقي بزوجته يخرج منه إلى رحم المرأة ما يقارب المئتين والخمسين مليون نطفة، يخرج من الرجل في اللقاء الزوجي ما يصل إلى مئتين وخمسين مليون نطفة، هذا العدد كبير جداً، مع أن البويضة تحتاج إلى نطفة واحدة، هناك حكمةٌ بالغةٌ بالغة أن العبرة في النوعية لا في الكمية، هذه النطف لماذا هي بهذه الكثرة؟ لأنها تواجه أخطاراً مميتة بمجرد دخولها إلى الرحم، في الرحم خليط حمضي كثيف في العضو التناسلي للمرأة يمنع وصول البكتريا، هذا الخليط قاتل بالنسبة للنطف، أي هناك مادة حمضية شديدة جداً من أجل أن تمنع الالتهابات، وهي في الوقت نفسه تقتل معظم النطف، نحن بحاجة إلى نطفة واحدة، الرجل يخرج منه ثلاثمئة مليون نطفة، بعد قليل يغطى جدار الرحم بملايين النطف الميتة، وبعد عدة ساعات يكون قسمٌ كبير من المئتين والخمسين مليون نطفة ميتاً، الخليط الحمضي هذا مهمٌ جداً لصحة الأم، وقويٌ جداً بحيث يستطيع قتل كل النطف الداخلة إلى الرحم بسهولة، في هذه الحالة لن يتحقق التلقيح أبداً وينتهي نسل الإنسان، ولكن النطف الداخلة إلى الرحم يصل قسم كبير منها إلى البويضة، ما الذي يحصل؟ في جسم الرجل مكان لإنتاج النطف، هذه النطف تضاف إلى السائل المحتوي على النطف، وعلى المادة المغذية، والمادة المعقمة، والمادة السكرية، فإنتاج النطف في جسم الرجل آية من آيات الله الدالة على عظمته، وبفضل هذا الخليط تستطيع آلاف النطف الوصول إلى مدخل قناة فالوب، مروراً برحم الأم، نلاحظ دائماً أن

البويضة التي هي بحجم حبيبة الملح تجد مكاناً لها في هذا الجهاز المعقد، والحقيقة تستطيع بعد هذه الرحلة الطويلة أن تصل مئات النطف إلى البويضة، غير أنه لم ينتهِ السباق حتى الآن لا تقبل البويضة إلا نطفة واحدة فقط، ولهذا يبدأ السباق الجديد، هناك عائقان مهمان جداً أمام النطف، الطبقة الحامية التي تقتل جميع أنواع الجراثيم التي تحاول الاقتراب من البويضة، وقشرة البويضة التي يصعب ثقبها إلى حدٍّ كبير، خُلق في النطفة أنظمةٌ خاصةٌ لاجتياز هذين العائقين، فهناك الأسلحة المخفية التي خبأتها النطف تحت طرف الدرع الصلب إلى هذه اللحظة، إنها أكياس الأنزيم المذيبة، هذه الأكياس ستثقب العائق الأول الذي على أطراف البويضة، أي الطبقة الحامية لإذابتها، فعندما تجتاز النطفة هذه الطبقة، وتتقدم فيها، يتآكل درعها شيئاً فشيئاً، ثم يتفتت ويتبعثر، أما تفتت الدرع هذا هو جزءٌ من الخطة الكاملة الواجبة التنفيذ، لأنه بفضل هذا التفتت ستبدأ أكياس الأنزيم الثانية الموجودة داخل النطفة للظهور، وهذا يؤمن اجتياز آخر عائقٍ يواجه النطفة، ألا وهو ثقب قشرة البويضة.

الآن نشاهد هذه الأحداث تدريجياً، وتجتاز النطفة من خلال الصور الملتقطة هذا الحاجز، الحقيقة لحظة وصول النطفة إلى قشرة البويضة تتحقق معجزةٌ أخرى، فجأة تدخل النطفة بنفسها تاركةً وراءها ذيلها الذي أوصلها إلى هذا، وهذا مهمٌ جداً، لأنها إن لم تقم النطفة بهذا العمل، فسيتدخل الذيل المتحرك إلى الخلية ويخربها، لذلك تخلي النطفة عن هذا الذيل يشبه عمليات مكوك الفضاء والصاروخ الدافع له، حيث يتخلى المكوك عن المحركات وخزانات الطاقة.

ولكن كيف تقوم نطفةٌ صغيرةٌ بهذا الحساب الدقيق كله؟ بقيام النطفة بهذا الحساب عليها أن تعرف أنها وصلت إلى آخر الطريق، وأنها لم تعد بحاجةٍ إلى الذيل بعد الآن، غير أن النطفة جهازٌ بيولوجي لا تشعر بما حولها، ولا تملك أي عقلٍ أو علم، الخالق سبحانه وتعالى نسق فيها أيضاً نظاماً دقيقاً يحقق انعزال الذيل عنها في الوقت الصحيح والمناسب، تقوم النطفة التي تركت ذيلها خارجاً بثقب البويضة، وتضع فيها الصبغيات من خلال ذلك الثقب، هكذا يتم انتقال المعلومات الوراثية، ونتيجة عمل مئات الأنظمة المختلفة المستقلة بعضها عن بعض بنظامٍ متناسقٍ تمّ إيصال المعلومة الوراثية العائدة لجسم الرجل إلى البويضة في جسم المرأة، وكما نرى فلا مكان لأية مصادفةٍ في اتحاد النطفة مع البويضة، بل تحقق ذلك بفضل تصميمٍ وخطةٍ كافيةٍ، هذه الحوادث التي تحققت دون أن يدركها الإنسان، وهذا التخطيط الدقيق لكل مرحلةٍ من هذه المراحل، إنما هي دلائل واضحة على خلق الإنسان من قِبل الله تعالى.أستاذ عدنان، التفكر ـ كما قلت في مرات كثيرة، في مناسبات كثيرة ـ أقصر طريقٍ لمعرفة الله، وأوسع بابٍ ندخل منه على الله، ومعرفة الله أصل الدين، هذا قول الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ:" معرفة الله أصل هذا الدين"، فكلما تفكرنا في خلق الله ازددنا معرفةً به.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (04-30) : العقل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:
حياكم الله، العقل كلمة تدرج على الألسنة فيقال: هذا عاقل، وهذا قليل عقل، وهذا يستطيع بعلقه أن يصل إلى ما يشاء، كلام كثير عن العقل، ترى ما هو العقل؟ ما تعريف العقل؟.

تعريف العقل :

الدكتور راتب:
بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.
أستاذ عدنان، العقل جهاز أودعه الله في الإنسان ليكشف به بعض الحقائق، هناك معرفة حسية أساسها الحواس الخمس، هذه المعرفة بسيطة، أنت ترى، وتسمع، وتشم، وتلمس، وتشعر، هذه المعرفة الحسية نحن وبقية المخلوقات فيها سواء، لكن هناك معرفة أرقى، أنه أودع الله في الإنسان جهازاً إن رأى الأثر عرف منه المؤثر، وإن رأى التسيير عرف منه المسير، وإن رأى الحكمة عرف منه الحكيم.
فالعقل معرفته أرقى من المعرفة الحسية، فالمعرفة الحسية شيء ظهرت ذاته وآثاره، أداة اليقين بهذا الشيء الحواس الخمس، لكن هناك أشياء عظيمة جداً غابت عنا ذاتها، بقيت آثارها، يأتي دور العقل ليكتشف ذاتاً غابت عينها، وبقيت آثارها.
لذلك الماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير، ولا دخان بلا نار، فالعقل معرفته أرقى، أنت بإمكانك من آثار الشيء أن تعرف الشيء.
الآن الذات الكاملة خالق السماوات والأرض، من بيده ملكوت كل شيء، لن نستطيع أن نراه بحواسنا، لن نستطيع أن نراه قطعاً.

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

[سورة الأنعام الآية : 103]

لن نستطيع أن نراه قطعاً،

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

ولكن العقول تصل إليه ولا تحيط به، تماماً لو ركبت مركبتك إلى البحر، تصل بالمركبة إلى شاطئ البحر، لكنك بالتأكيد لن تستطيع أن تخوض بها البحر.

العقل قد يكون صريحاً وقد يكون تبريرياً :

لذلك العقل جهاز راق جداً، بل هو أعقد ما في الكون من دون استثناء، بل هو عاجز عن فهم ذاته، بل إن كل هذه المنجزات التي تراها العين في الأرض من إنتاج العقل، ولو أن الإنسان استخدم عقله واحد بالمليار من الجهود التي بذلها من أجل أن ينقل الصورة عبر الفضائيات، وأن يصل إلى القمر، وإلى المريخ، وإلى المشتري، وأن يغوص في أعماق البحار، وأن ينقل الصوت من مكان إلى آخر، وأن ينقل الرسالة، كل هذه المنجزات العلمية الرائعة من اختراع العقل، لذلك هو أكبر جهاز في الكون.

لكن هذا العقل قد يكون صريحاً، وقد يكون تبريرياً، يسقط العقل حينما يكون تبريرياً، ويصبح أداة رخيصة كما لو اشتريت آلة غالية الثمن، آلة تصوير ملونة غالية جداً، يمكن أن تربح منها ملايين مملينة من تصميم الخرائط، وأغلفة الكتب، والبطاقات، فاستخدمها الإنسان لتزوير العملة، فأودع في السجن.

فالعقل يمكن أن يكون صريحاً وهو طريق معرفة الله، ويمكن أن يكون تبريرياً فكل الجرائم التي ترتكب في الأرض تغطى بكلمات معسولة كالحرية والديمقراطية مثلاً، هذا العقل التبريري ساقط ولا قيمة له.

الحق دائرة تتقاطع بها أربعة خطوط :

بل إن الحقيقة التي أعتقد بها أن الحق دائرة تتقاطع بها أربعة خطوط، خط العقل الصريح الحر، الذي يقود ولا ينقاد، لأن الإنسان حينما ينحرف، وحينما يسقط، يستخدم العقل للتبرير، وهذه أقذر مهمة للعقل، أن تستخدم العقل لتبرير الجريمة.

فلذلك هذه الدائرة التي هي الحق تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط العقل الصريح الحر القائد، وخط النقل الصحيح، ذكرت كلمة صحيح لأنه هناك نقلاً غير صحيح، هناك نص قد يكون موضوعاً، وقد يكون ضعيفاً، وقد يكون النص صحيحاً لكن تأويله مغلوط، إذاً الخط الثاني النقل الصحيح، الخط الأول العقل الصريح، الخط الثالث الفطرة السليمة، الإنسان حينما يستمرئ الانحراف تنطمس فطرته، وتصبح فطرته غير سليمة، والواقع الموضوعي والواقع قد يزور، قد تقول كلاماً غير صحيح عن واقع ما.

إذاً الحق دائرة تخطها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، والعقل الصريح، والفطرة السليمة، والواقع الموضوعي، ولأن الواقع خلقه، ولأن النقل وحيه، ولأن العقل جهاز راقٍ جداً أودعه الله فينا، ولأن الفطرة مقياس عاطفي، تكشف به الخطأ، كلها من صنع الله وحده، إذاً هي متساوية فيما بينها.

هذا ما دعا بعض كبار العلماء إلى أن يقول: حتمية توافق العقل مع النقل، ولا يتناقض العقل مع النقل إلا قطعية أحدهما، قد يكون العقل غير صحيح، تراقب نصاً شرعياً وقد يكون النص غير صحيح يناقض حقيقة علمية، أما يتناقض العقل مع النقل لعدم حدية أحدهما، قطعية أحدهما.

كل إنسان يحاسب على عقله و عاطفته :

إذاً العقل جهاز دقيق جداً، مثلاً إنسان أراد أن يبيع بيتاً غالياً جداً، باعه بعملة صعبة، في جيبه الأيمن جهاز لكشف العملة المزورة، وفي جيبه الأيسر نشرة بأرقام الأوراق النقدية ذات الأرقام المزورة، لم يستخدم جهاز كشف العملة المزورة، ولم يستخدم الورقة التي في جيبه الأيسر، فهو أحمق، إنسان معه عقل، ومعه شرع، لم يستخدم عقله لكشف الحقيقة، ولم يستخدم هذا الوحي العظيم لكشف الخطأ، حينما أهمل عقله ولم يطلع على دقائق الشرع وقع في الشقاء، لذلك قال تعالى :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

[سورة الرحمن الآية :7]

أعطاك ميزاناً، العقل ميزان، والفطرة ميزان، وبعضهم قال :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

[سورة الإسراء]

وبعضهم قال : الرسول هو العقل، أي الإنسان يحاسب على عقله لأنه كافٍ لمعرفته، ويحاسب على فطرته لأنها كافية لمعرفة خطئه، إلا أن تفاصيل الشريعة لمن يبلغه الوحي ليس مطالباً بها، لكن مطالب أن عقله يكفي لمعرفة خالقه، وأن فطرته تكفي لمعرفة خطئه، إذاً أداة معرفة الله.

الأستاذ عدنان:

دكتور، الله تعالى دعا العقل فأقبل، وبعده فابتعد، فأعطاه لأحب مخلوقاته إليه وهو الإنسان، الآن طالما أن العقل يستطيع أن يفكر، ويعطي، ويحلل، وكأنه كمبيوتر معقد جداً جداً، بل أعلى من ذلك بكثير، نحن نجد وفي صريح القول :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)

[سورة الإسراء الآية : 44]

كما علمنا الإسلام، العقل طالما أنه يعطي الإنسان هذه القدرة على التمييز والتفكير ومعرفة الحقيقة، هل تراني أستطيع أن أقول من خلال شرحكم أن العقل التبريري هو الذي جعله يبتعد عن الله تعالى؟.

العقل يساء استخدامه حينما يغدو عقلاً تبريرياً :

الدكتور راتب:
طبعاً، سيدي، لأن الإنسان مخير، كل شهواته، وكل حظوظه، وكل خصائصه حيادية، فالعقل قد يكون أكبر سبب لمعرفة الله، والميل إلى الآخرة، وقد يكون أكبر سبب لشقاء في الدنيا والآخرة، كما فلت قبل قليل: آلة طابعة قد تربح منها ملايين مملينة، لكن الإنسان استخدمها لتزوير العملة أي أساء استخدامها، فالعقل يساء استخدامه حينما يغدو عقلاً تبريرياً.

مبادئ العقل :

1 ـ نظام السببية :

على كلٍّ أستاذ عدنان، العقل فيه مبادئ، وهو أداة معرفة الواقع، الواقع مبني على نظام السببية، والعقل لا يفهم شيئاً من دون سبب، تطابق بنية العقل مع الواقع شيء رائع جداً، لولا هذا التوافق بين مبادئ العقل وبين خصائص الكون ليس للعقل أي فائدة، لكن أنت لا تفهم شيئاً بلا سبب، والكون بني على نظام السببية، وكأن الله أراد من خلال هذا النظام السببي أن يأخذك بلطف إليه، أي البيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، من خلق أول دجاجة؟ لو أن الكون ليس فيه نظام السببية لما آمنت بالله، تقول: هكذا خلق الكون، ما دام ليس هناك نظام سببية، لكن أي شيء تناله له سبب، وهو سبب موجب، وله سبب مقوي، فأنت حينما تفكر بالأسباب تصل إلى مسبب الأسباب، إلى خالق الأرض والسماوات.
فأنت لا تقبل أنك إذا غبت عن بيتك، وأقفلت الأبواب بإحكام، وقطعت التيار الكهربائي، لا تقبل إذا عدت إلى البيت بعد أسبوع، وليس مع أي إنسان مفتاح لهذا البيت أن ترى ضوءاً متألقاً ينخلع القلب، لماذا هذا الخوف؟ لأنك موقن أن أحداً دخل إلى البيت، لأن تألق الضوء يحتاج إلى يد صنعته. إذاً نحن كل حياتنا قائمة على نظام السببية.

2 ـ نظام الغائية :

الآن وأنت لا تفعل شيئاً بلا غاية، من صفات العاقل أن كل عمل له غاية، لماذا البقرة تعطي أربعين كيلو حليب مع أن وليدها يحتاج إلى كيليين فقط؟ كأن الغاية الإنسان.

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

[سورة النحل الآية : 5]

لماذا الأرض تدور حول الشمس؟ من أجل اختلاف الليل والنهار، لماذا محورها مائل؟ من أجل الفصول الأربعة، لماذا هناك تربة؟ من أجل الزراعة، لماذا هناك أمطار؟ من أجل الآبار، فأنت حينما تفهم الشيء بسببه، وتفهم الشيء بغايته، تستقيم المعرفة، العقل شيء ثمين جداً، لكن أنا أحذر من أن العقل وحده لا يكفي.

الأستاذ عدنان:

هل يمكن أن يحدث التناقض مثلاً بين الأسباب التي تحدثنا عنها وبين الغايات التي يؤمل أن تكون قد وصل إليها بنو آدم؟.

الغاية والسبب متكاملان وليسا متناقضين :

الدكتور راتب:

الحقيقة أن الغاية والسبب متكاملان، وليسا متناقضين، أنت مثلاً ترى شاحنة وراءها سلسلة، أنت لا علاقة لك بالشاحنات إطلاقاً، لك عمل علمي، لكن هناك تساؤلاً لماذا هذه السلسلة تجر وراء الشاحنة؟ لا ترتاح إلا إذا عرفت الغاية منها، كسبب واضحة، سلسلة حديدية تنتهي بقطعة حديد مبسطة، تجر وراء الشاحنة، لكنك حينما تعلم أن هناك صواعق، فإذا اتصلت المركبة بالأرض مباشرة أفرغت هذه السلسلة الشحنة الكهربائية ولم تحترق المركبة فهمت حكمتها.

تقتني أحياناً آلة ظاهرة، فيها نتوء، لماذا هذا النتوء؟ لا تفهمه إلا بغاية، لذلك الإنسان العاقل لا يفهم شيئاً بلا سبب، ولا يفهم شيئاً بلا غاية.

الأستاذ عدنان:

إذاً بالتالي لا يقبل التناقض.

3 ـ نظام عدم التنـاقض :

الدكتور راتب:

أبداً، المبدأ الثالث : عدم التناقض، لأنه أنت كقاض لو اتهم إنسان بقتل إنسان وأثبت لك هذا المتهم أنه كان في مدينة بعيدة جداً وقت حدوث الجريمة، تقتنع ببراءته، لأنه لا يقبل ولا يعقل أن يكون الإنسان في مكانين في آن واحد، إما في دمشق، أو في حلب.

لذلك العقل لا يقبل التناقض، ولو أعمل الإنسان عقله في الكون لكان العقل أحد أكبر الأسباب الموصلة إلى الله، أنت لا تقبل مطبعة فيها حبر، وفيها حروف، فيها ورق، أحدثنا فيها انفجاراً ضخماً، فالمحصلة قاموس لا روس، أنت لا تقبل أن تهب عاصفة على مجمع حديدي فإذا هي طائرة بوينغ 777، هذا شيء مستحيل، أي العقل أداة معرفة الله، ومناط التكليف، ولكن لا بد من تحفظات كثيرة.

الأستاذ عدنان:

هنا دكتور قال أحدهم من خلال دعابة، ومن خلال فكرة عقلية: أنت لا تقبل كما ذكرت بأن يحدث بركان مثلاً، ويقذف ما في باطن الأرض، فإذا بهذه المقذوفات من باطن البركان يبنى جدار ثم جدار آخر، ثم غرفة، ثم بورسلان ثم، ثم، حتى يتم قصراً رائعاً، هذا لا يقبل، ولا يحدث على الإطلاق.

العقل منـاط التكليف :

الدكتور راتب:

هو نفي مبدأ الصدفة، لو وضعنا في كيس عشر ورقات مرقمة بالتسلسل من الواحد إلى العشرة، احتمال أن تسحب هذه الأوراق تباعاً وتكون الأرقام مسلسلة واحد على عشرة آلاف مليون، أي عملية بسيطة جداً، عشر أورق صغيرة، على كل ورقة رقم من الواحد للعشرة، وضعت في كيس، أن تسحب هذه الأوراق بالتتابع بشكل متسلسل هذه من واحد من عشرة آلاف مليون حالة.

أما ذرة حمض أميني، وذرات الكون لا تكفي لتصنيع حبة ذرة حمض أميني صدفة.

لذلك العقل حينما يفقد مبدأ الصدفة، قال تعالى :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

[سورة الطور]

فالعقل مناط التكليف، والآيات التي تتحدث عن العقل، وعن العلم تقترب من ألف آية.

(أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

[سورة يس]

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ)

[سورة الغاشية الآية : 17]

أفلا يتفكرون.

(لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة الصافات]

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)

[سورة التكوير]

لذلك الإنسان كائن عاقل.

العقل من دون وحي يهتدي به كالعين من دون ضوء :

ولكن أستاذ عدنان، التحفظ الكبير الأول لو أن إنساناً فحص عينيه عند طبيب متفوق في العيون، فكانت عيناه من أعلى مستوى، في لوحة الفحص هناك حروف لتكن حروف C أو E، يقول له: أول حرف إلى أين جهته؟ يمين، يسار، فوق، تحت، السطر القبل الأخير إذا عرفت اتجاه الحروف تكون الرؤية عشرة على عشرة، هناك سطر بعده لو وصلت للصحة أي الرؤية 12 على عشرة، فهذه العين دقيقة جداً، لو ألغيت الضوء لا قيمة لها، يستوي في الظلام الدامس الأعمى والبصير، في هذه الحالة يستوي الأعمى والبصير، مع أنهما لا يستويان، أما في الظلام الدامس يستوي الأعمى والبصير، معنى ذلك أن العين لا قيمة لها من دون ضوء يكون وسيطاً بينها وبين المرئيات.

أنا مؤمن بكل خلية في جسمي، وبكل قطرة في دمي، أن العقل من دون وحي يهتدي به شأنه كشأن العين من دون ضوء.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[سورة المدثر]

كل شيء في الكون يدل على الله :

من هنا أقول : أنت بالعقل يمكن أن تعرف الله من خلال خلقه، من خلال الكون، لأن كل شيء في الكون يدل على الله، وأنت بالعقل يمكن أن تعرف الله، وأنت بالعقل يمكن أن تعرف رسوله من خلال قرآنه، وينتهي دور العقل، ليأتي بعده دور النقل، كل شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، الماضي السحيق، المستقبل البعيد، المخلوقات التي لا تراها كالجن والملائكة كل شيء عجز عقلك عن

إدراكه أخبر الله به.

أنت عندك ميزان حساس جداً، غالٍ جداً، فيه عشرات الذواكر، هذا الميزان تستخدمه في البقالية، لكن في أصل التصميم حدود استعماله من خمسة غرامات إلى خمسة كيلو، يقدم لك نتائج رائعة ضمن الحدود، لو أردت أن تزين به مركبتك وضعته على الأرض وسرت فوقه كسرته، هل نتهم الشركة الصانعة، تقول لك : لا، أنت استخدمته لغير ما صنع له.

فأنت حينما تتفكر بذات الله تهلك:

((تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[ورد في الأثر]

لذلك العقل البشري له مهمة محدودة، يعرف ذاتاً غابت عينه، وبقي لها آثار، أما إذا غابت الذات وآثارها لا سبيل إلا للخبر الصادق.

الأستاذ عدنان:

وما هو الوحي والعقل دكتور؟.

الوحي والعقل :

الدكتور راتب:

الوحي والعقل، الوحي للعقل كالنور للعين، والعقل والنقل، مهمة العقل قبل النقل التأكد من صحة النقل، وبعد النقل فهم النقل، أما أن يكون العقل حكماً على النقل فهذا مستحيل، وهذا مرفوض، لأن النقل وحي الله، لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، أما العقل فمتعلق بالوقت، لو أيقظنا إنساناً من قبره، وأطلعناه على قرص فيه سبعة آلاف كتاب لا يصدق، لأن عقله مربوط بواقع ليس فيه هذه البرمجيات.

لذلك العقل مع الوحي مهمته قبل النقل التأكد من صحة النقل، مهمته بعد النقل فهم النقل، ولم يكن العقل حكماً.

الأستاذ عدنان:

إذاً العقل يفيد الإنسان في معرفة أشياء كثيرة، يبصره بالحقائق، لكنه لا يمكن أن يلغي دور النقل والوحي اللذين أرادهما الله تعالى من خلال الشريعة الإسلامية، نستطيع أن نتابع معكم دكتور، التفكر والتفكير أشياء هامة في حياة الإنسان نستطيع أيضاً أن نتابع معكم أشياء هامة علمية، في هذا الإطار، فماذا تختار؟.

الموضوع العلمي :

العلق :

الدكتور راتب:

وصلنا إلى العلق، قال تعالى :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

[سورة العلق]

نرى على الشاشة نطفة الرجل التي اتحدت قبل قليل مع البويضة، المعلومة الوراثية للنطفة والبويضة بعضها إلى جانب بعض، هنا الآن سوف تتحقق واحدة من أكبر المعجزات على وجه الأرض، حيث يتم اجتماع وانسجام معلومتين وراثيتين لتكوين إنسان جديد، وتحقق اللقاء، ربما يكون تصديق الأمر صعباً، إلا أنه يوجد داخل هذه الخلية جميع المعلومات العائدة للإنسان الذي لم يولد بعد، عين الطفل الذي سيولد، بشرته، لون شعره، لون وجهه، خصائصه الفيزيائية جميعها مشفرة هنا، إلا أن الأمر ليس مقصوراً على مظهره الخارجي بل حدد هيكله، وأعضاءه الداخلية، وعروقه، حتى أشكال الخلايا؛ خلايا الدم التي تدور في عروقه، تقوم الخلية بعد التلقيح بمدة قصيرة بتصرف آخر محير جداً، تنقسم وتتكون خليتان حديثتان، ثم تنقسم هاتان الخلايا مرة أخرى لتصبح أربع.

فقد بدأ الآن تكون إنسان جديد، ولكن لماذا تتخذ الخلية قرار الانقسام هذا؟ ولماذا تكلف نفسها عناء تكوين الإنسان، هذه الأسئلة ترشدنا إلى عظمة الله تعالى للعلم الكامل والقدرة اللامتناهية، خالق الخلية، والإنسان الموجود داخلها، والعالم الذي يوجد فيه الإنسان، والكون كله، خالقهم من العدم الله جلّ جلاله.

في هذه اللحظة نشاهد رحلة الخلايا التي تنقسم باستمرار داخل قناة فالوب، كتلة الخلايا هذه يطلق عليها منذ الآن البيضة الملقحة، في أثناء انقسام الخلايا، وتكاثرها داخل البيضة الملقحة تتحقق حادثة أخرى محيرة أيضاً، تبدأ بعض الخلايا بالتمايز عن الأخرى، أثناء تجمع الخلايا القديمة في المركز فإن الخلايا المتمايزة تحيط بها، وبعد مدة قصيرة ستكون بعض الخلايا مجموعة الخلايا المركزية الجديدة، أي المرحلة الأولى لخلق الإنسان وستكون المجموعة التي حولها المشيمة التي ستغذي الجنين.

بدأت الخلايا فجأة بالتمايز، واتخذت قراراً بتكوين الجنين، مع المشيمة، ويعد هذا معجزة كبيرة في الأوساط العلمية.

انغراز البويضة الملقحة في غشاء الرحم آية دالة على عظمة الله عز وجل :

هناك أمر مخفي يعمل في هذه الخلايا، تصل البويضة الملقحة بعد أربعة أيام من تلقيحها من المكان الذي جهز وخصص لأجلها، أي إلى رحم الأم، ويلزم تمسكها بالرحم كي لا تسقط خارج الجسم، إلا أن البيضة الملقحة ليست إلا كتلة دائرية مكونة من الخلايا الشبيهة ببعضها، ولكن ليس لها أي نتوء يؤمن لها التعلق بمكان، إذاً كيف تستطيع التمسك بجدار الرحم؟ هذا أيضاً قد حسب حسابه عند وصول البيضة الملقحة إلى رحم الأم.

شيء دقيق جداً سبحان الله! يتدخل نظام آخر ـ يظهر هذا المشهد الملتقط من المجهر الالكتروني ـ يخبر البيضة الملقحة التي وصلت منذ اللحظة إلى رحم الأم، تفرز الخلايا الموجودة في السطح الخارجي للبيضة الملقحة أنزيمات خاصة، تذيب جدار الرحم، وبذلك تتمسك البيضة الملحقة بالرحم بشدة، وتنجو من سقوطها خارج الرحم، وجود الخلايا على سطح البيضة الملحقة من المكان اللازم، وإخراجها من الأنزيم اللازم، يوضح مرة أخرى كمال خلقها، بفضل هذه الخلقة الكاملة تنغرز هذه البيضة الملقحة في جدار الرحم، هذا المخلوق الجديد الذي يكبر أثناء تمسكه بالرحم، يسمى منذ الآن بالجنين، وهذه الحقيقة التي اكتشفها العلم الحديث ذكرت في القرآن الكريم، فعندما يذكر الله عز وجل أول مرحلة للطفل في رحم الأم يستخدم كلمة العلق،

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

[سورة العلق]

الحقيقة قضية انغراز البويضة الملقحة في غشاء الرحم آية دالة على عظمة الله عز وجل، وقد ذكرت في القرآن الكريم.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان :

تقديم وترحيب :

الأستاذ عدنان :

دكتور ، نسمع كثيراً كما قلت عن العقل ، ونسمع أيضاً عن الفطرة .

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم الآية : 30)

العقل فيما بين الناس يمكن أن يكون متفاوتاً ، يا ترى هل هو في هذا المقياس ما يتصل بالفطرة ؟ هل الفطرة واحدة عند الناس جميعاً ؟ أم تراها متفاوتة ؟ وهل الفطرة قد جبل عليها الناس جميعاً ، وهي متجهة إلى الله تعالى ؟ فإن أردنا معرفة شيء عن الفطرة فهل تراها في نطاق الخطأ والصواب ؟ إذا أرنا أن نتحدث عن الفطرة فالحديث طويل فأترك الكلام لكم للحديث عنها .

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين . :

الفطرة :

أستاذ عدنان ، الفطرة شيء مهم جداً في حياة الإنسان ، ذلك أن الإنسان عقل يدرك ، وجسم يتحرك ، ونفس تحب أو تكره ، فالجانب النفسي هو أهم جوانب الإنسان ، هذا الجانب النفسي يسعد أو يشقى ، يخاف أو يطمئن ، يتفاءل أو يتشاءم ، كل المشاعر النفسية محلها القلب ، فإذا كان في الإنسان عقل يدرك ، فيه قلب يحب ، وفيه جسم يتحرك ، وإذا كان الطعام والشراب غذاء الجسم ، فالعلم غذاء العقل، والحب غذاء القلب .

إلا أن رحمة الله بنا أن هذا الجسم فيه قوانين بالغة التعقيد تحكم آليته ، هناك علم التشريح ، وعلم الفيزيولوجيا ، هناك قوانين دقيقة جداً لا تقل عن قوانين الجسم تحكم نفسه ، إنها مبادئ الفطرة .

الإنسان لماذا إذا فعل شيئاً شريراً يتألم من الداخل ؟ قد لا يحاسب ، أذكر أن إنساناً دهس طفلاً ، ولم

يتابع من الجهات المسؤولة ، كان الدهس بعد منتصف الليل ، وسجل الحادث ضد مجهول ، لكن هذا الإنسان مع أنه لم يعاقب ، ولم يتابع ، لم يستطع أن ينام الليل أربعين ليلة ، واتصل بطبيب نفسي ، أقنعه أن يدفع الدية الشرعية لهذا الطفل حتى يستطيع أن ينام ، ما الذي عاتبه ؟ فطرته .

لولا أننا مصممون بالتعبير المعاصر مبرمجون ، مفطورون ، مجبولون على الكمال لما عذبنا النقص، ولولا أن الإنسان له فطرة سليمة لما شعر أحد بخطئه .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، أود أن أتوقف هنا ، قلت : لولا فطرة سليمة ، على حين أن الله تعالى قد فطر الناس جميعاً :

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

كيف تكون سليمة وغير سليمة ؟

الدكتور راتب :

كيف تكون الفطرة سليمة وغير سليمة ؟

الحقيقة أن أصل الفطرة سليم ، فإذا انحرف الإنسان ، وتاب عن انحرافه ، وأصر على انحرافه يصل إلى حالة اسمها انطماس الفطرة ، لذلك الإنسان في أصل فطرته وضعه سليم جداً ، لولا أن الله فطرنا على الكمال لما عذبنا النقص ، هذا من نعم الله علينا ، الدليل :

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات الآية : 7)

دليل آخر :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

والعياذ بالله ، ليس المعنى كما يتوهم بعض المنحرفين أن الله خلق فينا الفجور ، مستحيل ، وألف ألف مستحيل ، معنى الآية : أن الإنسان إذا فجر يعرف أنه فجر تلقائياً ، من دون لفت نظر ، من دون توجيه ، فطرته متوافقة تماماً مع منهج الله ، والدليل أن الله عز وجل حينما قال :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم الآية : 30)

طابق الفطرة مع منهج الله تطابق تام ورائع ، بمعنى أن الإنسان إذا خالق منهج ربه ، أو خالف مبادئ فطرته المؤدى واحد .

لو أن إنسانًا لم يصله تبليغ رسالة سماوية ، وجاء بطعام وأكله وحده ، وأمه جائعة يشعر أنه وقع في خطأ كبير .

لذلك في الإنسان ثوابت ، مبادئ فطرته من الثوابت ، والإنسان هو الإنسان في كل مكان وزمان ، فحينما يقترف خطأ يتناقض مع فطرته ، أو يقترف خطأ يتناقض مع منهج ربه يشعر بالضيق ، والمرض الآن المستشري في العالم كله مرض الكآبة ، لأن الإنسان تحرك حركة عشوائية من دون منهج يسير عليه ، فهذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

حينما يتبع الإنسان الشهوة وفق منهج الله يكون قد حقق مبادئ فطرته ، فالفطرة شيء أساسي جداً في الثواب والخطأ ، إنسان ينتحر أحياناً ، قد يكون غنيا جداً ، فلماذا ينتحر ؟ لولا أن هناك عذاب جال في نفسه حمله على إنهاء حياة لم يكن يحتملها .

إذاً الفطرة من أخطر مفردات الخصائص الإنسانية التي ينبغي أن يتعامل معها تعاملاً صحيحاً .

الأستاذ عدنان :

(بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

كيف يكون ذلك ؟

الدكتور راتب :

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ

(بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

معنى ذلك أن الإنسان يستطيع أن يتحرك بدوافع من شهواته 180 درجة ، والشرع العظيم جعل للشهوة حيزاً صحيحاً مقبولاً ، إذا خرج عن هذا الحيز تعذبه فطرته ، والله عز وجل حبب للإنسان أشياء كثيرة ، وجعل لها قنوات نظيفة تسري خلالها ، فإذا استمتع الإنسان بما لا يحل له ، اعتدى على أعراض الآخرين ، اعتدى على أموالهم تعذبه نفسه ، إذاً :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

الحقيقة نحن بحاجة إلى ما يسمى بعلم النفس الإسلامي .

الأستاذ عدنان :

بمعنىً آخر هل يتبع الإنسان هواه بهدى من الله ؟

الدكتور راتب :

هل يتبع الإنسان هَوَاهُ بِهُدًى مِنَ اللَّهِ ؟

نعم ، الإنسان اشتهى المرأة فتزوج ، لا شيء عليه ، اشتهى المال فعمل بتجارة مشروعة ، اشتهى العلو في الأرض فتفوق في خدمة البشر ، أنجز إنجازا عظيما فأكبره الناس ، وعظموا عمله .

فالإنسان عنده ثلاث حاجات كبرى : يحتاج إلى الطعام والشراب حفاظاً على وجوده ، ويحتاج إلى الجنس حفاظاً على بقاء النوع ، ويحتاج إلى البطولات حفاظاً على الذكر ، هذه الحاجات الأساسية حيادية ، إما أن تلبى وفق منهج الله فيكون الاستقرار ، والطمأنينة والراحة ، والسعادة ، وإما أن تلبى بخلاف منهج الله .

الذي يتعلم العلم ، وينشر العلم يعلو عند الناس ، فدافعه إلى تأكيد الذات تحقق ، والذي يتمنى أن يكون معه مال يكفي به نفسه وأهله ، فعمل عملا مشروعا ، وكسب كسباً مشروعاً ، الآن استمتع ببيت ، وزوجة ، وطعام ، وشراب ، ومركبة ، كل هذا من دخل مشروع ، إذاً لا شيء عليه .

أوضح مثل : قد يكسب إنسان المال الحلال فينفقه في ما سمح الله به ، إذاً : ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

فالفطرة من أروع ما في هذا اللقاء الطيب أنها متوافقة توافقاً تاماً مع منهج الله ، وكل إنسان يعصي الله يشعر بآلام داخلية ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

هذه المعيشة الضنك بسبب البعد عن الله ، بل إن معظم أمراض الإنسان هي في الحقيقة أعراض لمرض واحد ، وهو البعد عن الله ، ولما يتصل الإنسان بالله يشعر بسعادة كبيرة جداً ، لأن نفسه هكذا قد فُطرت ، لولا أن الله فطرنا هذه الفطرة لما كانت هناك سعادة ولا شقاء .

بين الفطرة والصبغة :

فلذلك مبادئ الفطرة أن تحب الكمال ، ليس معنى الفطرة أن تكون كاملاً ، أن تحب الكمال ، أن تحب الكمال شيء ، وأن تكون كاملاً شيء آخر ، كل إنسان يحب العدل ، أما أن يعدل فهذا من نتائج

الصبغة، الفطرة شيء ، والصبغة شيء آخر .

حينما يتصل الإنسان بالله ، يحكم اتصاله به ، يقبل عليه ، يطبق منهجه ، و حينما تتصل بالرحيم تشتق الرحمة منه ، أنت تحب الرحمة بفطرتك ، لكنك بعد اتصالك بالله تصبح رحيماً ، فأن تحب الكمال شيء ، وأن تكون كاملاً شيء آخر ، أي إنسان على وجه الأرض يحب الكمال ، لكن الذي يكون كاملاً أحد ثمار اتصاله بالله ، فالمؤمن رحيم ، المؤمن عدل ، المؤمن لطيف ، المؤمن صادق ، المؤمن أمين ، كل هذه الكمالات اشتقها الإنسان حينما اتصاله بالله .

إذاً : الفطرة السليمة شيء ، والصبغة الإلهية شيء آخر ، الاتصال بالله ينشأ عندنا صبغة ، وفي أصل خلقنا عندنا فطرة ، فالفطرة أن تحب الشيء ، وأن تكره الشيء الذي لا تحبه ، ولولا هذه الفطرة لما كان هناك مسارعة إلى التوبة ، وما كان هناك عذاب نفسي .

أستاذ عدنان ، السيارة في أصل صنعها صنعت من أجل أن تسير ، وفيها مكابح بالنظر السطحي ، والمكابح تناقض مع أصل صنعها ، لكنها ضرورية جداً لسلامتنا .

فالله عز وجل فطرنا فطرة عالية ، وبشكل أو بآخر الإنسان عقب عمل بطولي ، عقب موقف في عدل، عقب موقف في إنصاف ، عقب موقف فيه عطاء وبذل ، عقب موقف فيهه تواضع يشعر بسعادة لا توصف ، لأنها أولاً هذا العمل توافق مع فطرته ، وعندنا مصطلح اسمع اصطلاح الإنسان مع ذاته ، حينما يصطلح المرء مع ذاته يطيع ربه ، فيشعر بالسعادة ، وكل سعادات الإنسان في الدنيا أساسها الاتصال بالله عز وجل .

من خصائص النفس البشرية : الجزع والمنع والضعف :

لذلك من خصائص هذه النفس البشرية خصائص كثيرة ، وردت إشارات لها في كتاب الله .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

هو في الأصل جزوع ، ومنوع ، خلق الإنسان عجولا ، خلق الإنسان ضعيفا ، حبذا لو تتبعنا في القرآن الكريم صفات النفس البشرية قبل أن تعرف الله ، وبعد أن عرفته :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

المصلي حينما يتصل بالله عز وجل يذهب عنه الخوف ، ويذهب عنه الجزع ويذهب عنه الحرص ، فلابد من وجود فارق أساسي كبير جداً بين من عرف الله واتصل به ، وبين من غفل عنه وتفلت من منهجه .

فالفطرة دقيقة جداً في أنها تعبر للإنسان عن صوابه أو عن خطأه ، سمها إن شئت الراحة النفسية ، سمها إن شئت السعادة ، سمها إن شئت السكينة ، كلها أسماء لمسمى واحد ، فحينما يلتزم الإنسان منهج الله يصطلح أصلاً مع فطرته ، فيسعد بهذا الصلح بينه وبين نفسه .

في قلب المؤمن الذي توافقت حركته في الحياة مع منهج ربه ، ومع مبادئ فطرته ، في قلبه أمنٌ لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، بينما الطرف الآخر في نفسه قلق ولو كان قوياً ، ولو كان غنياً ، ولو كان مقتدراً ، في قلبه من القلق ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم .

الأستاذ عدنان :

كيف ننمي الفطرة التي فطرة الناس عليها ؟ وكيف تنحدر الفطرة أيضاً ؟

الدكتور راتب :

كيف نمنع تدهورَ الفطرة ؟

الحقيقية الفطرة ثابتة ، الفطرة بمعنى أن كل إنسان له فطرة سليمة ، لكن قد تسأل سؤالاً آخر : كيف نمنع تدهور الفطرة ؟

بطاعة الله نحافظ على فطرتنا ، لكن باتصالنا بالله نقلبها إلى صبغة ، الصبغة شيء رائع جداً ، النبي الكريم أشار إلى هذا فقال :

((نعم العبد صهيب ، لو لم يخاف الله لم يعصيه))

[كنز العمال ، وذكر ابن حجر أنه بغير إسناد]

الإنسان في مستوى ، والشرع في مستوى ، لكن إذا ارتقى إلى الله ، واقترب مستواه من مستوى الشريعة ، هو لا يحتاج إلى بذل جهد كبير ، الإنسان يحب أن يكون صادقاً ، يحب أن يكون رحيماً ، يحب أن يكون منصفاً ، لكن شهواته أحياناً تغلبه ، أما إذا اتصل بالله عز وجل تصبح الأعمال الصالحة جزءاً من كيانه ومن حياته .

إذاً : الفطرة مركبة في أصل الإنسان ، والفطرة تسعده إذا طبق منهج الله ، وتشقيه إذا خرج عن منهج الله ، وهي أكبر باعث لدفع الإنسان إلى طاعة الله ، لأن المؤمن حينما يستقيم أمره مع الله يتلقى من السعادة لا توصف .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سور فصلت)

الله عز وجل حينما قال :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

من يتبع هدى الله عز وجل لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت ، ماذا بقي من سعادة الدنيا ؟ الصلح مع الله هو صلح مع الفطرة .

الأستاذ عدنان :

إذاً : الحديث عن الفطرة يعود بنا إلى أشياء جميلة في حياة الإنسان جعلها الله تعالى في ذاته ، حيث يكون منسجماً مع نفسه ، ويكون أيضاً فرحاً بما أودع الله تعالى عنده من فطرة ، فإن نماها بالخيارات ، وبالعمل الصالح انقلبت إلى صبغة ، وما أجمل الصبغة عند المؤمنين ، هذه أمور تبحث في عمق ذات الإنسان ، في نفسيته ، وفي وجوده ، وفي كل شيء ، والأشياء الإعجازية الموجودة في خلق الله تعالى لبني البشر في تكوينهم ، وتركيبهم وفي أنفسهم ، نريد أن نتابعها معكم لندرك عظيم صنع الله تعالى .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : ظاهرة التمايز في خلايا الإنسان :

1 – نظام الخلايا مِن أعجب خَلق الله :

إن شاء الله ، كما ذكرت وأذكر دائماً ، إن أعظم آية أمام الإنسان نفسه التي بين جنبيه ، وكيف أن هذا الإنسان كان من نطفة ، ثم نمت ، لو أن هذه النطفة تكاثرت من دون تمايز لكان قطعة من اللحم ، أو قطعة من العظم ، لكن الآن أمام آية من آيات الله التي لا تصدق ، إنها التمايز ، يعيش في علمنا الذي هو كوكب مليء بالحياة أنواع لا تحصى من الكائنات ، لكن تبدأ الحياة بخلية واحدة ، تتكاثر هذه الخلية بنسخ نفسها ، ولولا تدخل تنظيم خاص للزم جراء انقسام الخلايا ظهور كتلة لحم مؤلفة من خلايا متشابهة ، إنسان له سمع وبصر ، وعظم ، ولحم ، وجلد ، وشعر ، ودماغ ، للزم أن تكون هذه الخلية المتنامية كتلة واحدة من لحم مؤلفة من خلايا متشابهة ، وليس إنساناً ، لكنه لا يحصل شيء كهذا ، لأن الخلايا ليست عاطلة ، كأنها عاقلة ، وهي في الأصل مادة غير عاقلة .

2 – متى يبدأ التمايز ؟

شيء دقيق جداً ؛ أنه بعد التقاء البويضة بالحوين بأسابيع يبدأ التمايز ، والتمايز تتمايز الخلايا عن بعضها ، بأمر خفي أعطي لكل منها ، والآن نشاهد هذا التغير الذي يعد معجزة لدى العلماء ، فالخلايا التي لا وعي لها شرعت في إنشاء الأعضاء الداخلية ، والهيكل والدماغ .

3 – خلايا الدماغ :

ها هنا بدأ تكون خلايا الدماغ داخل الفراغين ، هذا المشهد الذي نراه ملتقطًا بمجهر إلكتروني يبين بداية تشكل الدماغ ، وفي نهاية هذا الإنشاء سيصبح الجنين ذا عشرة مليارات من خلايا الدماغ .
الآن نشاهد تكون خلايا الدماغ ، يضاف لمجموع تكون هذه الخلايا في كل دقيقة مئة ألف خلية جديدة ، كل خلية تعلم مسبقاً كيف تتصرف ، وإلى أين ترجع ، ومع أي الخلايا يجب أن ترتبط .
في الدماغ مئة تريليون وصلة ، هذه الوصلات من أجل صنع الدماغ ، ولصنع هذه الوصلات بالشكل الصحيح يجب أن تملك هذه المادة عقلاً يفوق عقل الإنسان بكثير ، غير أنه ليس لها لهذه الخلايا أي عقل ، ليس فقط خلايا الدماغ ، بل كل واحدة من الخلايا المتكاثرة بانقسامها داخل الجنين تقوم برحلة من أول مكان تقوم منه نحو النقطة التي يجب أن تتواجد فيها ، وكل واحدة توجد في المكان الذي خصص أن تكون فيها ، وهنا تقوم بالارتباط بالخلايا التي يجب أن ترتبط معها .
شيء لا يصدق ، هذه الخلايا ليس لها أي وعي ، فمن يلهمها هذه الخطط الذكية ؟ يجيب أحد كبار العلماء فيقول : " ستقوم جميع هذه الخلايا المتشابهة مع بعضها برحلة فجأة ، وكأنها تلقت أمراً من مكان واحد ، وتذهب كلها إلى أماكن مختلفة ، تعمل على تكوين أعضاء مختلفة " ، وهذا يبين بشكل واضح أن هذه الخلايا المتماثلة خلايا لا تعرف ما ستفعله ، الخلايا المتماثلة (الدي إن إي) الوراثية كلها يشكل بعضها الدماغ ، وبعضها القلب ، وبعضها يشكل الأعضاء الأخرى ، هذه العضلة المتحركة هي القلب ، يدوم التكوين في رحم الأم ، وتبدأ بعض الخلايا المتغيرة بالانقباض كما ترون والانبساط ، وبعد ذلك مئات آلاف الخلايا في مكان واحد لتكون القلب ، وهذا القلب سيستمر بالخفقان طوال العمر .

4 – خلايا العروق :

ونشاهد الآن بعد قليل معجزة كبير جداً هذه الخلايا المستقلة عن بعضها في الأصل ، هي خلايا العروق ، ثم فجأة تبدأ هذه الخلايا بالتمسك ببعضها ، وتقيم ارتباطات فيما بينها ، وتشكل خلايا

العروق، لنتابع هذا المنظر الرائع مرة أخرى ، ترى من أين تعلمت هذه الخلايا أجوبة تكوين العروق ، وكيفية القيام بها ؟ هذه من الأسئلة التي لم تجد جواباً لها في الأوساط العلمية ، في النهاية تصنع خلايا العروق نظام أنبوب رائعا ليس عليه أي ثقب ، أو شق ، السطح الداخلي للعروق أملس ، وكأنه صنع بيد صانع ماهر ، نظام العروق هذا سيبدأ بعد مدة بنقل الدم إلى جميع أنحاء جسم الجنين ، ويبلغ طول شبكة العروق كلها أربعين ألف كم ، وهذه المسافة تساوي الطول الكامل لمحيط الأرض .

5 – خلايا الأطراف :

يستمر النمو في بطن الأم دون توقف ، وتصل أطراف الجنين في نهاية الأسبوع الخامس إلى مرحلة يمكن فيها رؤيتها ، أطراف الجنين هذه التي نراها على الشاشة يمكن أن نراها بعد حين يدين ، هذا النتوء سيصبح يداً ، بعد مدة تبدأ بعض الخلايا بصنع الأيدي ، إلا أنه يقوم قسم من الخلايا بعمل محيِّر جداً ، يقوم آلاف من هذه الخلايا بتضحية جماعية ، هذه الخلايا تنتحر ، كيف ؟ نرى لماذا تقدم هذه الخلايا أنفسها ، هذه التضحية تخدم هدفاً مهماً جداً ، أجسام الخلايا الميتة على خط معين ضروري لتكوين الأصابع ، اليد كرة ، أما حينما تنتحر هذه الخلايا بين الأصابع فمن أجل تكوين الأصابع ، لماذا تقوم الخلايا بتطبيق كهذا ؟ كيف تقوم الخلية بالتضحية بنفسها ؟ ليصبح الطفل المولود ذا أصابع بالمستقبل ، من أين عرفت الخلية أنها بهذه التضحية تخدم هدفاً كبيراً ؟ كل هذا يوضح مرة أخرى أن جميع الخلايا المكونة للإنسان موجهة من قِبل الله تعالى .

وفي هذه الأثناء تبدأ بعض الخلايا بصنع الساق ، ولا تعرف الخلايا أن هذا الجنين سيحتاج إلى المشي، وعلى الرغم من كل ذلك تتكون الساق ، والأرجل في هذه المرحلة .

الآن لو نظرنا إلى الساق كيف تتكون للجنين ، هو لا يعلم أنه يحتاج إلى المشي ، بعد قليل سننظر إلى رأس هذا الجنين .

6 – خلايا العينين :

الحقيقة آيات الله في رحم المرأة شيء لا يصدق ، وجه الإنسان في الأسابيع الأربعة الأولى له منظر لا يحتمل ، الله عز وجل جميل ، تجلى على الإنسان بخلق جميل ، لكن في بداية تكون عند الجنين هذا منظر الوجه ، هناك حفرتان في جانبي رأس الجنين ، شيء تصديقه صعب ، لكن في هاتين الحفرتين تنشأ العينان .

ويبدأ تشكل الأعين في الأسبوع السادس حتى تعمل الخلايا طوال الأشهر ضمن خطة لا يستوعبها العقل .

تتكون أقسام العين المختلفة في تتابع رتيب ، تصنع بعض الخلايا القرنية ، وبعضها الحدبة ، و بعضها العدسة ، تقف كل خلية عند وصولها إلى حد انتهاء القسم الذي يتوجب عليها صنعه ، وتنشأ العين المكونة من أربعين طبقة مختلفة بشكل كامل ، 130 مليون عصي ومخروط في شبكية العين .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

وهكذا تعد العينين أفضل آلة تصوير في العالم ، تخلق في بطن الأم من العدم ، فقد حسب بأن الإنسان الذي سيولد سيفتح عينيه ، وسيواجه عالماً ملوناً ، لذا خُلقت له عينان متناسبتان ، وبعض الحيوانات لا ترى الألوان ، ترى الأبيض والأسود فقط .

وقد حُسب أيضاً أن هذا الإنسان الذي سيولد يحتاج إلى أن يسمع الأصوات والأنغام ، والأذن التي ستسمع هذه الأصوات كذلك تنشأ في بطن الأم ، حيث يشكل أفضل جهاز للصوت على وجه الأرض ، هذه المشاهد تذكرنا مرة أخرى أن السمع ، والبصر من النعم الكبيرة التي منحها الله تعالى للإنسان ، وإلى ذلك يشير الله عز وجل :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة النحل)

إذاً : موضوع التمايز في خلق الإنسان في رحم الأم شيء لا يصدق .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (06-30) : الشهوة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان :

ترحيب وتقديم :

الأستاذ عدنان :

دكتور ، كلمة الشهوة تستعمل استعمالات متعددة ، والشهوة في الحقيقة كلمة يمكن أن تكون متعددة الاتجاهات ، هناك شهوة حب المال ، شهوة الظهور ، شهوة حب العلم ، يمكن أن تكون في هذا الإطار في بعض الأحيان ، الشهوة بشكل عام لها مظاهر متعددة ، إنما تكون بقوة دافعة فعلاً ، لكن هذه القوة إن وجهت وجهة الخير كانت الشهوة في طريق الخير ، وإن وجهت وجهة السوء والشر كانت الشهوة من خلال أنها قوة دافعة تقود الإنسان إلى السوء والشر أيضاً ، إذا أردنا أن نتحدث عن الشهوة بشكلها السليم الممنهج ، المرسوم بدقة ، وهذا يدخل في نطاق مكارم الأخلاق ، لكي نبتعد عن الشهوة المذمومة، التي تقود إلى مذام الخصال ، وإلى مذام الأعمال ، كيف تتحدون عن الشهوة ، وقوة دفعها للإنسان ، ثم أن تكون مبرمجة بالشكل السليم ؟

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الشهوة :

1 – الشهوة حقيقة وحيادية :

أستاذ عدنان ، يتوهم معظم الناس أن لولا الشهوات لما هلك الإنسان ، والحقيقة عكس ذلك ، لولا أن الله أودع في الإنسان هذه الشهوات لما ارتقى بها إلى رب الأرض والسماوات ، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران الآية : 14)

هذه الشهوات ركزت في أصل فطرتنا ، ولكن لأن الإنسان مخير ، الشهوات كلها حيادية ، بمعنى أنها يمكن أن تكون سلماً نرقى بها إلى أعلى عليين ، ويمكن أن تكون دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين . تصور إنسانًا لا يشتهي شيئاً ، لا تجد على سطح الأرض شيئًا إطلاقاً ، لا مدارس ، ولا جامعات ، ومعامل ، ولا جسورا ، ولأنه يشتهي أن يأكل فلا بد من أن يتحرك ، لأنه يشتهي المرأة فلا بد من أن يتزوج ، لأنه يشتهي التفوق فلابد من إنجاز كبير ، تصور حياة بلا شهوات ، ليس هناك شيء إطلاقاً ، فلولا الشهوات التي أودعها الله في الإنسان لما ارتقى الإنسان بها إلى رب الأرض والسماوات .

2 – الشهوة قوة دافعة وللإنسان اختيار مكان الدفع :

لكن النقطة الدقيقة جداً : أن هذه الشهوات لها معانٍ متناقضة ، فبينما تكون الشهوة قوة دافعة ، إذا بها قوة مدمرة ، في الوقت نفسه .

أوضح مثلٍ : السائل الذي يوضع في السيارة هو البنزين ، إذا وضع في المستودعات المحكمة ، وسال في الأنابيب المحكمة ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ولَّد حركة نافعة ، أقلّتك هذه السيارة أنت وأهلك إلى مكان جميل ، ما الذي يحصل في المركبة ؟ انفجارات ، لكنها مبرمجة ومنظمة، والبنزين في مكان محكم ، والأنابيب محكمة ، والانفجار في الوقت المناسب ، والمكان المناسب .

صفيحة البنزين لو ألقيت على المركبة ، وأصاب المركبة شرارةٌ لأحرقت المركبة ومَن فيها ، فبينما هذا الوقود السائل قوة محركة ثمين جداً ، هو في الوقت نفسه قوة مدمرة ماحقة .

هكذا الشهوات ، إما أنها قوى تدفعنا إلى الله أو قوة تبعدنا عنه .

ما الذي يدفعك إلى الله ؟ أن تحب المال ، ثم تنفقه في سبيل الله ، أن تحب المرأة ، ثم تتعفف عن امرأة لا تحل لك ، أن تحب العمل المشروع ، ثم تركل بقدمك كل عمل غير مشروع .

3 – ليس في الإسلام حرمان :

الحقيقة أن الشهوة نرقى بها مرتين ، مرة شاكرين ، ومرة صابرين ، نرقى بها مرتين ببعدنا عن شهوة لا تحل لنا ، ومرة لأخذنا شهوة تحل لنا .

مرة ثانية ليس في الإسلام حرمان ، لأن الحقيقة الدقيقة جداً : أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

هناك من يتوهم من البعيدين عن الدين أن الإسلام في حرمانًا ، كل شيء حرام في الإسلام ، لا ، حينما تمشي بأرض فلاة ، ثم رأيت لوحة كتب عليها : حقل ألغام ، ممنوع التجاوز ، هل تشعر بحقد على مَن وضع هذه اللوحة ؟ أبداً ، تشعر بامتنان ، هل ترى هذه اللوحة قيداً لحريتك ؟ أم صماناً لسلامتك ؟

4 – السيرُ بالشهوة ضمن المسموح تقرّبٌ إلى الله :

لذلك الشهوات أودعها الله في الإنسان ، ولكن لحكمة بالغةٍ بالغة ، ولأن الإنسان كلف حمل الأمانة ، ولأن الإنسان كلفه ربه أن يعبده ، سمح له أن يتحرك بكل شهوة أودعها فيه 180 درجة ، وأعطاه حيزاً مقبولاً عنده ، ومشروعاً له ، فرضاً 100 درجة ، فما دامت حركة الإنسان من خلال هذه الشهوة ضمن المساحة المسموح بها فهو في مأمن ، وهو في رضوان الله ، بل لا يشعر أنه فعل شيئاً محرّما ، بالعكس يتقرب إلى الله إذا مارس شهوة سمح الله له بها .

((وفي بُضْع أحدِكم صدقة))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري]

لأن الإنسان حينما يفعل هذا يكون قد نفذ منهج الله ، أما حينما يتحرك بدافع من شهواته بعيداً عن الحيز الذي سمح الله به تكون المعصية .

5 – السيرُ بالشهوة خلاف منهج الله عدوانٌ :

بل إن أية حركة بدافع شهوة خارج النطاق المسوح به هو في الحقيقة عدوان .

حينما تكسب المال الحلال وفق منهج الله ، وفق بيع وشراء صحيحين ، وفق سعر معتدل ، وفق بضاعة جيدة ، لا فيها كذب ، ولا غش ، ولا احتكار ، ولا تدليس ، ولا أي معصية من معاصي البيع والشراء ، وتكسب المال الحلال ، فأنت في بحبوحة ، وأنت في رضا الله عز وجل ، أما إذا اعتمدت على الغش ، غششت المسلمين ، أو غششت الناس جميعاً لقول النبي الكريم :

((ليس منا من غَشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

مطلقاً ، فإذا غششت الإنسان كائناً من كان ، أوهمته بشيء عن البضاعة ليس فيها ، أوهمته أنها مستوردة من بلد غربي ، هي مستوردة من بلد آخر ، ليس مستواها كهذا المستوى الذي ذكرته ، أنت بهذا أخذت مالاً لا يحق لك أن تأخذه ، هو دفع ثمن بضاعة بتصنيع من أرقى دولة ، وهي مصنوعة بدولة متخلفة جداً ، لكنه لا يعلم ، فقد غششته .

لذلك الغش عدوان ، لذلك التطلع إلى امرأة لا تحل لك عدوان ، لذلك أن تقول كلام غير صحيح توهم الناس بشيء عدوان ، فيجب أن نعلم علم اليقين أننا إذا تحركنا بدافع من شهواتنا وفق منهج الله لا عدوان إطلاقاً ، بل مصالح متبادلة .

لذلك لو سألتني عن ضابط دقيق جداً للحلال والحرام أقول لك : اضغط الحلال كله بكلمتين ، منافع متبادلة : والحرام كله يضغط بكلمتين : منفعة بنيت على مضرة ، السرقة حرام ، لأنها منفعة بنيت على مضرة ، لكن المضاربة حلال ، إنسان يملك المال ، وليس عنده خبرة لاستثمره ، وإنسان يملك الخبرة، وليس عنده مال ، فتعاون هؤلاء على مشروع ، قدم الأول ماله ، وقدم الثاني خبرته ، واقتسما الربح بينهما ، هذه منفعة متبادلة .

لذلك بشكل عام المنفعة المتبادلة عملٌ يرضي الله عز وجل ، والمنفعة التي يبنى عليها مضرة عملٌ يغضب الله عز وجل .

لو أن إنسانًا خطب فتاة ، وجعلها زوجة له وأنشأ أسرة ، وأنجب أولاداً صالحين ، الأسرة كلها مباركة، ولو أنه أفسد فتاةً ، ونقلها من فتاة شريفة إلى فتاة بغي ، فكل ما سيأتي بعد هذا الإفساد في صحيفة هذا المفسد .

مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تتحرك أيها الإنسان بدافع من شهواتك خارج منهج الله ولا تكون معتدياً ، والعدوان يعقبه العقاب من الله عز وجل ، فإذا أردت أن تكون في مأمن ، في بحبوحة ، في أمن ، في طمأنينة ، في راحة ، في سعادة فكن وفق منهج الله .

مرة ثانية :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

فاتباع الهوى وفق هدى الله لا شيء عليه .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، أحياناً ألا ترى أن الفطرة السليمة تلتقي بشكل ما مع الشهوة الموظفة توظيفاً سليماً أيضاً ؟

الدكتور راتب :

الشهوة الموظفة وفق الشرع هي من تمام الفطرة :

طبعاً ، أوضح مثل على ذلك : الإنسان أحياناً يخطب امرأة تروق له ، وهي صالحة مستقيمة ، لكن هذا اللقاء أثمر أولادا ، أثمر ابنا يترعرع في حضن أمه وأبيه ، وكلاهما يحبه ، وصبّت عليه كل العناية ، فنشأ مواطنا صالحا ، فالمرأة حصنت زوجها ، وهو حصن زوجته ، وكانت ثمرة هذا اللقاء

الطيب أطفالا صالحين ، فكل الخير ، وكل البركة من هذا الزواج الطيب الميمون ، بينما أية علاقة مع امرأة لا تحل للإنسان فهناك الفضيحة ، وهناك الجريمة ، وهناك السقوط ، وهناك الخزي والعار .

مرة قرأت في مجلة أن راقصة فرنسية سُئلت : ما شعورك وأنت على خشبة المسرح ؟ أنا دُهلت لإجابتها ، قالت : هذا شعور الخذي والعار ، وهو شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الناس .

إن الحب يجب أن يبقى بين الزوجين ، وفي غرف مغلقة ، هذا أصل التصميم ، ودائماً أستاذ عدنان ، هناك أصل لتصميم الإنسان ، ما دام هناك ذكر وأنثى ، هناك زوج وزوجة ، فكل أنواع العلاقات المحرمة مرفوضة في منهج الله .

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

(سورة المؤمنين)

حينما يبتغي الإنسان قضاء شهوة خارج منهج الله ، وخارج المنطقة المسموح بها فهو معتدٍ يقيناً ، ليست القضية قضيت أن الإنسان سلك هذا الطريق ، أو ذاك الطريق ، لا ، الطريق الوحيد الآمن والسالك هو هذا ، فهذا الطريق الآخر طريق العدوان ، وطريق الظلم .

إن الإنسان يكون في بحبوحة وفي خير ما دام وفق منهج الله ، من هنا وهذا درس لكل المسلمين قال الله تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال الآية : 33)

أي ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم مطبقة في حياتهم ، يأخذون ما أحل الله لهم ، يدعون ما لا يحل لهم فهم في مأمن من عذاب الله ، في بحبوحة ، في ضمانة من الله ، أما إذا خرجوا عن منهج الله كان من لوازم هذا الخروج العدوان ، وحينما تكسب المال المشروع ، هذا المال يقابل جهدك ، أما حينما يكسب الإنسان المال بالكذب ، أو الغش ، أو السرقة ، أو الاحتيال ، أو الربا فهو يعتدي على أموال الآخرين .

حينما نكسب المال بالطرق المشروعة ينمو المجتمع جميعاً ، وأصل التصميم أن هذه الكتلة النقدية يجب أن تكون متداولةً بين كل البشر ، فإذا سلكنا طرائق غير مشروعة في كسب المال تجمعت الأموال بأيدٍ قليلة ، وحرمت منها الكثرة الكثيرة ، وعندئذٍ تنشأ الجرائم ، وتنشأ الانحرافات الأخلاقية ، والاحتيالات ، والسرقة .

دائماً في كل مأساة تعاني منها الإنسانية ابحث عن المعصية ، لأنه ما من مشكلة في العالم كله إلا بسبب خروج عن منهج الله ، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل .

لذلك الشهوات تنضبط بمنهج الله ، بل لها ثمار رائعة ، ولا أبالغ أن الإنسان حينما يمارس شهوة ما وفق المنهج الإلهي فهو في قمة السعادة ، لأنه يشعر أن الله راض عنه ، وأنه ما فعل شيئاً .

أحياناً قد يصلي قيام الليل عقب لقاء زوجي ، ويبكي في الصلاة ، بينما الذي يتكلم كلمة لا تليق مع امرأة لا تحل له يشعر أنه خان زوجته .

فلذلك موضوع الدين موضوع أساسي في حياة الناس ، نحن حينما أغفلنا قيمة الدين كان الشقاء ، والحقيقة أن الإنسان مؤلف من نفس ، لما ظنناه جسماً فقط ، واعتنينا بهذا الجسم ، بطعامه ، بشرابه ، ببيته ، بمركبته ، على حساب الآخرين شقي هذا الإنسان ، فالسعادة سر .

بين اللذة والسعادة :

بالمناسبة : أنا أميز بين اللذائذ والسعادة ، اللذائذ حسية ، مصدرها من خارج الإنسان ، اللذة تحتاج إلى طعام طيب ، إلى بيت جميل ، إلى امرأة بارعة الجمال ، إلى مركبة فارهة ، كلها تأتينا من الخارج ، والمشكلة أن الإنسان من أجل أن يستمتع بالدنيا يحتاج إلى شروط ثلاثة : يحتاج إلى وقت ، ويحتاج إلى مال ، ويحتاج إلى فراغ ، ويحتاج إلى صحة ، في بدايات الحياة الصحة جيدة ، والوقت موفور ، لكن المال مفقود ، وفي وسط الحياة هناك صحة ، و مال ، لكن الوقت معدوم ، وفي خريف العمر سلّم أولاده المعمل ، وصار عنده مال ، و وقت ، لكنه فقد الصحة .

دائماً اللذائذ حتى تتحقق بشروط ثلاثة ، ودائماً ينقص الإنسانَ إحداها ، بينما السعادة فشيء آخر ، اللذائذ تأتي من خارج الإنسان ، ولها ثمن باهظ ، وتحتاج إلى وقت وإلى صحة ، بينما السعادة تنبع من داخل الإنسان ، تنبع السعادة من طاعته لله ، وهذا شيء متوافر في كل البشر ، وكلٌّ يملك السعادة ، لكن ما كل إنسان يملك المال الوفير ، وما كل إنسان يملك البيت الفاخر ، والمركبة الفارهة ، هذه تختص ببعض الناس .

السعادة في طاعة الله :

لكن الإنسان يملك السعادة ، وإذا بحث عن سعادته وجدها في طاعة ربه .

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

بعض العلماء قال : " في الدنيا جنة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، إنها جنة القرب " ، ويقول هذا العالم الجليل : " ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة ،

وإن قتلوني فقتلي شهادة " .

فلذلك الله عز وجل حينما يقول :

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد)

في الماضي ، يعني ذاقوا طعمها .

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لمـــــا وليت عنا لغيرنا

ولـــو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

ولـــو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولـــو نسمت من قربنا لك نسمة لمـــت غريباً واشتياقاً بقربنا

ولـــو لاح منا لك لائـــح تركت جميع الـــكائنات لأجلنا

فـــما حبنا سهل وكل من ادعى سهولته قـــلنا له قد جهلتنا

في حياة المؤمن من السعادة ما لا يوصف .

والله أستاذ عدنان ، أنا أصف لك السعادة بالشكل التالي : بيت فيه كل الأجهزة الكهربائية ، من دون استثناء ، المكيف ، والميكروويف ، والثلاجة ، كل الأجهزة الغالية ، لكن ما فيه كهرباء ، كلها قطع لا معنى لها ، فإذا سرت الكهرباء كل هذه القطع تألقت ، وقدمت وظيفتها .

فلذلك الإيمان بالله ، والاتصال به يجعل كل شيء في الدنيا مسعداً ، الزوجة مسعدة ، والأولاد مسعدون ، والمال مسعد ، أما إذا انقطع الإنسان عن ربه شقي وأشقى .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، هنا موضوع كما تحدثت موضوع الزوجة المسعدة ، وما إلى ذلك ، في القرآن الكريم :

(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

(سورة البقرة الآية : 35)

السكن فيما يتصل بآدم عليه السلام وزوجه حواء .

ثانياً :

(أَنْتَ وَزَوْجُكَ)

مع أن الخطاب لآدم ، وهو واحد ، لكن هذا الواحد عندما يدخل مدرسة الزوجية يصبح بمقام اثنين :

(أَنْتَ وَزَوْجُكَ)

الزوج هي الزوجة أيضاً في مقام الاثنين ، هنا عندما تكون الشهوة في مجالها المضمون ، في القناة النظيفة يحدث السكن ، ويكون هذا التبدل من المحبة والوفاء .

الدكتور راتب :

شقاء الزوج شقاء للزوجة ، والعكس :

ويقابل ذلك أن الاثنين واحد .

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)

(سورة طه)

قال علماء التفسير : شقاء الزوج شقاء حكمي لزوجته ، والقرآن بليغ وموجز .

الأستاذ عدنان :

حبذا لو تابعنا شيئاً دكتور في ما يتصل بهذه الإعجازات التي تتصل في الواقع وفي الأخلاق ، وفي نشأت الخلق ، وفي الآفاق ، وفي الأنفس .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي :

إعجاز القرآن دليلٌ على أنه كلام الله :

إن الذي يؤكد أن هذا القرآن كلام الله هو إعجازُه ، فهناك سبقٌ علميٌ ، وإشارات قرآنية قبل 1400 عام ، الآن مع التقدم العلمي المذهل كشف عنها ، ما الذي يستفيده من ذلك ؟ أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن ، وأحد أكبر الأدلة على أن هذا القرآن كلام الله هو إعجازه .

يعني جميع المعلومات التي شرحت حتى الآن في موضوع الجنين ، وتطوره في رحم الأم كُشفت خلال البحوث العلمية منذ ثلاثين أو أربعين عامًا الأخيرة ، وهذه المعلومات الجديدة أمَّنت لنا فهم معجزات القرآن الكريم من جديد .

1- تشكل عظام الجنين قبل تشكل اللحم :

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً

من حقبة قريبة جداً كان التقرير العلمي أن العظام والعضلات تتشكلان معاً ، وهذا موجود في أعلى

كتب الطب ، أن العظام والعضلات تتشكلان معاً ، إلا أن البحوث الجارية الأخيرة ، والتي كشفت عن حقيقية لم ينتبه إليها الناس في الماضي ، الجنين في أثناء تشكله تشكل العظام أولاً ، ثم تكسى العظام بالعضلات ، هكذا اكتشف العلم الآن .

الغريب أن هذه الحقيقة التي اكتشفها العلم من جديد أشار القرآن إليها قبل 1400 عام ، قال تعالى :

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

هذه الحقيقة التي اكتشفت حديثاً ، والذي اكتشفها لا يعرف عن القرآن شيئا ، فتطابقت مع الآية الكريمة:

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ)

2 ـ المراحل الثلاث للجنين :

وفي جانب آخر أوضحت البحوث الجارية في موضوع الولادة أن الطفل يجتاز ثلاث مراحل كاملة في بطن الأم ، وقد شُرحت هذه الحقيقة في واحد من المراجع الأساسية في علم الأجنة ، الحياة في بطن الأم تتكون في ثلاث مراحل :

الأولى : منذ التلقيح ، وحتى أول أسبوعين ونصف الأسبوع .

المرحلة الثانية : إلى آخر الأسبوع الثامن .

والمرحلة الثالثة : منذ الأسبوع الثامن ، وحتى ميلاده ، أشار القرآن الكريم قبل 1400 عام إلى ما توصلت إلى نتائج هذه البحوث في قوله تعالى :

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

(سورة الزمر الآية : 6)

3 ـ جمجمة الجنين :

وفي ختام هذه الموضوعات المتعلقة بالجنين طوال مرور الأشهر الطفل الذي في بطن الأم يأخذ شكلاً وينمو ، ويصل إلى حالة يصير فيها مستعداً للاجتياز إلى العالم الخارجي ، وقد جاء دور المرحلة الأخيرة ، أي الولادة ، وبقي خطر كبير ينتظر الطفل ، لأنه سيحصر رأس الطفل في أثناء الولادة في هذه المناطق الضيقة ، وسيشكل له ضغطاً على جمجمته ولكن هناك تدابير خاصة جداً أعدت لحماية

حياة الطفل ، وصحته ، إنها عظام الجمجمة ، عظام جمجمة المولود طرية بعكس جمجمة الإنسان البالغ، لم تلتحم مع بعضها ، وبفعل هذا تتمطط العظام مقدار معين في أثناء الولادة ، وهذا التمطط يشكل فراغات بين العظام تمنع تخريب الجمجمة ، بفضل هذا يولد الطفل ولادة صحيحة دون تضرر الجمجمة والدماغ ، وفي الأشهر القادمة بعد الولادة تقسو هذه الجمجمة ، وتصبح متماسكة ، ومتصلة ، وتكوِّن رأس الطفل .

هذه الأحداث الموضحة التي مرت بنا وشاهدناها مرت على جميع الناس الذين عاشوا على وجه الأرض ، ويوضح أن جميع الناس حينما كانوا من نطفة بسيطة ، ألقيت في رحم الأم ، وبفضل هذه الشروط الخاصة اتحدت مع البويضة ، ثم بدأت الحياة بخلية واحدة فقط ، حيث ليس لها أي علم حتى بوجودها ، والله تعالى سوَّى خلقها ، وخلق من كل واحدة إنساناً في أحسن تقويم من خلية واحدة ، والتفكير في هذه الحقيقة واجب كل إنسان على وجه الأرض ، ومهمتنا جميعاً التفكر كيف وُجدنا ، من أجل أن نعرف ربنا ، وأن نشكره ، وأن نتبع منهجه ، ولئلا نعيش جواً من الكبر ، والبعد عن الله عز وجل ، والله عز وجل يقول :

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ)

(سورة يس)

الإنسان خلق من ماء مهين يستحيا به ، خلق من ماء مهين ، خرج من عورة ، ودخل إلى عورة :

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ)

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)

(سورة يس)

لذلك قال تعالى :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

وخلق الإنسان في بطن أمه أكبر آية دالة على عظمة الله .

الأستاذ عدنان :

كل ما في العلم ، وكل ما في الأخلاق يتصل بالإنسان إن سلك سبيلاً جيداً وسليماً يرتقي به إلى الله تعالى.

الدكتور راتب :

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى

هنا نقطة دقيقة :

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

أن يبني مجده على أنقاض الناس ، أن يبني حياته على موتهم ، أن يبني أمنه على خوفهم ، أن يبني مجده على دمارهم ، أن يبني عزه على ذلهم :

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

ما الدليل ؟

(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى)

(سورة القيامة)

فالذي خلقه سيحاسبه .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (07-30) : الحرية ـ ظاهرة التمويه عند المخلوقات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:

دكتور كلمة الحرية كلمة واسعة الجوانب، والناس جميعاً يطلبونها، ومن أجلها تكون أشياء وأشياء في عالم الإنسان وهي متعددة الجوانب، لو ربطنا ذلك بمكارم الأخلاق ترى كيف تثمن مكارم الأخلاق بالحرية؟

مكارم الأخلاق كلها لا قيمة لها من دون حرية :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، أستاذ عدنان الله جلّ جلاله خالق السماوات والأرض بيده ملكوت كل شيء:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود الآية: 123]

نحن في قبضته ومع ذلك قال في قرآنه الكريم:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: 256]

أرادنا أن نأتيه طائعين، أرادنا أن نأتيه محبين، أراد أن نأتيه بمبادرة منا، أراد أن تكون العلاقة بيننا وبينه علاقة حب لا علاقة قهر، لا علاقة إكراه، لذلك ما كان لإنسان أن يطيع الله طاعة تسعده إلا أن يكون مختاراً في هذه الطاعة، فلذلك مكارم الأخلاق كلها لا قيمة لها من دون حرية.

الشيء لا قيمة له إلا إذا كان نابعاً من اختيار الإنسان وإرادته :

أرأيت إلى أن الله عز وجل منح نبيه خصائص كبيرة جداً، لكن حينما أثنى عليه أثنى على خلقه العظيم:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم الآية: 4]

أعطاه ذاكرة تفوق حدّ الخيال:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى)

[سورة الأعلى الآية: 6]



أعطاه فصاحة في الدرجة الأولى:

((أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

أعطاه جمالاً، أعطاه كمالاً، أعطاه كل وسائل الرسالة، ولم يثن عليه بواحدة منها لكنه أثنى على أخلاقه لأنها من كسبه، فالشيء لا قيمة له إلا إذا كان نابعاً من اختيار الإنسان ومن إرادته، فلذلك قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم الآية: 4]

أرأيت لو أن إنساناً منح ابنه مركبة ثم أقام له حفلاً تكريمياً لهذه المركبة، شيء مضحك، أما إذا نال الدرجة الأولى في امتحان الشهادة يقيم له حفلاً تكريمياً لأن التفوق في المدرسة من جهد الابن، ومن كسبه، ومن عرقه وسهره، لذلك العمل إجمالاً لا قيمة له إطلاقاً من دون أن تكون حراً في اختيارك.

الحرية أساس لتقييم العمل :

كل من يفهم أن الإنسان مجبر على أعماله وقع في عقيدة فاسدة وخطيرة، ما أظن أن العالم الإسلامي شلت قدراته إلا بعقائد زائغة في مفهوم الحرية والإكراه، الله عز وجل قال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان الآية: 3]

فالحرية أساس لتقييم العمل، وما لم نكن أحراراً في اختيار أعمالنا الصالحة لا قيمة لها عند الله، أما إذا كنا مكرهين هذه الأعمال تسقط قيمتها، كما لو أنك شهرت على إنسان سلاح وقلت له: أعطني هذه

الحاجة التي بيديك، يقدمها لك خوفاً على حياته، هل يرقى بهذا العمل؟ هل يحس أنه عمل عملاً عظيماً؟ يحس أنه قهر، أما إذا قدم إنسان لك هدية من عنده ابتداءً تقديراً لشيء قدمته له يرقى بهذا العمل، إذاً لا يمكن أن يقيّم عمل صالح من دون حرية كانت أساس تثمين هذا العمل.

الأستاذ عدنان:

ومن خلال هذه الناحية وكما تفضلتم وبينتم أن عبادة الإنسان لربه، وأن امتثاله لخالقه فيما شرع من شريعة دينية، ومن أوامر ونواه يغلفها جميعاً مبدأ الحرية، وبالتالي تكون المحبة، وشتان بين الامتثال من خلال المحبة والحرية و بين الإذعان للأمر المطلق، هذا ضمن أن مكارم الأخلاق تثمن بالحرية، إذا نزعنا هذه الحرية كيف تكون؟

الحرية أساس التكليف وأساس الثواب والعقاب وأساس الجنة والنار :

الدكتور راتب:



أستاذ عدنان شيء لا يصدق، بمعنى أنك إذا ألغيت حرية الإنسان ألغيت التكليف، ألغيت حمل الأمانة، ألغيت الثواب، ألغيت العقاب، ألغيت الجنة، ألغيت النار، ألغيت كل شيء وأصبحت الحياة تمثيلية سمجة، لو أجريت مسابقة وهيأت من يفحص المتسابقين، وأسئلة ذكاء، وأسئلة ثقافة عامة، وأسئلة اختصاصية، والذي سوف ينجح تعرفه مسبقاً، إذاً كل هذه التمثيلية تمثيلة سمجة لا معنى لها إطلاقاً، ما دام الإنسان مجبر على أعماله، هل تصدق أن مدير مدرسة يجمع الطلاب في أول يوم بالعام الدراسي ويتلو عليهم أسماء الناجحين في آخر العام، وأسماء الراسبين، ثم يقول لهم: انصرفوا إلى صفوفكم وادرسوا؟ شيء ليس له معنى إطلاقاً، إذا ألغيت الحرية ألغيت كل شيء في الدين، إذا ألغيت الحرية ألغيت الثواب والعقاب، ألغيت الجنة والنار، ألغيت التفوق، ألغيت الطاعة، ألغيت المعصية، ألغيت حمل الأمانة، ألغيت التكليف، بعضهم قال وأظنه الإمام الحسن رضي الله عنه:" لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو أنه تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم

تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً"، الحرية أساس التكليف، الحرية أساس الثواب والعقاب، الحرية أساس الجنة والنار، وهناك أدلة كثيرة.

الأستاذ عدنان:

أنتم بينتم في هذه الحالة الفرق بين النموذجين، مكارم الأخلاق مع الحرية، ومكارم الأخلاق مع سلب الحرية، كيف يكون الموقفان وشتان بينهما، لو قال قائل الإنسان ليس حراً ما الأدلة التي نجيب ونبين؟

أدلة من القرآن الكريم على أن الإنسان مخير و ليس مسيراً :

الدكتور راتب:

أستاذ عدنان هناك أدلة كثيرة جداً لكن الأصل في هذه الأدلة قول الله عز وجل:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام الآية: 148]

هذه الآية أصل في الأدلة على أن الإنسان مخير، لا يقول أحد من الناس إن الإنسان مجبر

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

نحن أشركنا لأن الله أرادنا أن نشرك، أي إنسان يقول بخلاف هذه الآية فهو مشرك:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

آية ثانية:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: 29]

آية ثالثة:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان الآية: 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة الآية: 148]

هو على من تعود؟ لو أننا أعدناها كما يفهم بعضهم على الله عز وجل ما معنى قوله عز وجل:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

؟ أي لو أنك تجلس في المقعد الخلفي من السيارة، وقال لك أحدهم: اذهب نحو اليمين، كلام ليس له معنى، المقود ليس بيدك، تخاطب من بيده المقود، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

إذا الإنسان هو موليها فاستبقوا الخيرات، لو أن الله هو الذي يولي وجهة الإنسان لا معنى لقوله تعالى:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

هذا قرآن، هذا كلام خالق الأكوان.

الإنسان حينما يخطئ و يسقط يميل إلى التنصل من المسؤولية :

لذلك بنص القرآن الكريم الإنسان مخير:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)


يعزو من يبني مجده على أنقاض الآخرين إلى القدر

هذه مقولة المشركين، أما التعليل النفسي أن الإنسان حينما يخطئ، وحينما يسقط، وحينما يتبع شهواته، وحينما يبني مجده على أنقاض الآخرين، يميل إلى التنصل من المسؤولية ويقول: إن الله قدر عليّ ذلك، ويقول العوام: هذا ترتيب رب العالمين، هذا كلام مرفوض أصلاً، وهو تخريف، وهو تزوير، وهو كذب، وهو أشد أنواع الكذب، الإنسان يميل إلى أن يلقي التبعة على غيره، أنا ما سمعت إنساناً بالأرض حقق إنجازاً كبيراً وقال: هذا قدره الله لي، يقول: أنا فعلته بجهدي، بعرقي، باجتهادي، بكد يميني، بسهري طوال الليل، أما إذا فعل فاحشة يقول: الله قدر عليّ ذلك، والإنسان إذا لم يؤمن، لم يصطلح مع الله، يقول: لم يشأ الله بعد، وكأن الأمر ليس بيده، مع أن الله عز وجل هدى عباده وانتهى الأمر، بقي عليهم أن يستجيبوا، كما لو أن إذاعة تبث بقي على المستمع أن يستقبل هذا البث، أما يقول: إلى أن تبث، البث قائم والإرسال مستمر بقي لك أن تستقبل هذا البث، الله عز وجل هدى الناس، فأدلة القرآن الكريم والسنة المطهرة كثيرة جداً في أن الإنسان محاسب عن أعماله:

"يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه".

الأستاذ عدنان:

دكتور هناك من خلال الذين تحدثت عنهم إنهم حين يخطئون أو يقصرون ينسبون ذلك إلى الله عز وجل

من خلال أنه قدر عليهم كذا وكذا لكن هناك في بعض الأحيان مواقف أو أحداث يمكن أن يقال فيها بل أن يشم لا أن يقال من خلالها شيء من الإجبار لو تطرقنا إلى هذا.

الآيات المحكمات والآيات المتشابهات :

الدكتور راتب:

أستاذ عدنان في القرآن الكريم آيات محكمات وآيات متشابهات، الآية المحكمة لها معنى قطعياً واحداً لا يختلف على معناها اثنان في الأرض، لا تحتاج إلى تفسير، ولا إلى مجتهد، هذه الآيات المحكمات قطعية الدلالة، لكن هناك آيات متشابهات قال علماء الأصول: الآيات المتشابهات تحمل على الآيات المحكمات، الآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلت، كيف؟ لو أني قلت لك: القمح مادة خطيرة، ما معنى كلمة خطيرة؟ هل يعني قنبلة؟ القنبلة خطيرة، أم أنه مادة أساسية؟ أنا قلت: خطيرة هذه كلمة متشابهة، بعد قليل قلت: القمح مادة أساسية في حياة الإنسان، ما معنى خطيرة؟ أنها أساسية، فالآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلت، إذا قال الله عز وجل:

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

[سورة الرعد الآية: 31]

إذا قال الله عز وجل:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة الآية: 13]

كأنه يشم من هذه الآية أن الله لم يشأ الهدى للناس، لكن هذه الآية متشابهة معناها: أنتم يا عبادي تنسبون أخطاءكم إلى القدر أنتم واهمون، لو أنني أجبرتكم على عمل ما لما أجبرتكم إلا على الهدى، لو أنني أردت أن آخذ منكم اختياركم، وأن ألغي هويتكم، وأن ألغي كل خصائصكم، لما أجبرتكم إلا على الهدى، ولو شئنا أن نسلب منكم اختياركم، وأن نلغي تكليفكم وحملكم للأمانة، وأجبرناكم على شيء ما، لما أجبرناكم إلا على الهدى"، مثلاً:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف الآية: 5]

إن عزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري :

حيثما عزي الإضلال إلى الله في القرآن الكريم، هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، تماماً كما لو أن طالباً لم يداوم إطلاقاً، ولم يقدم امتحاناً، جاءه إنذار أول وثان وثالث ورابع وخامس ولم يستجب، الآن صدر قرار بترقيم قيده، هذا القرار تجسيد لرغبته بعدم متابعة الدراسة، بالضبط، حيثما عزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف الآية: 5]

إذاً أية آية في القرآن الكريم متشابهة أي تحتمل معنيين، لو أنني قلت لواحد من الناس: أعط زيداً ألفاً وخمسمئة ليرة، هذا الكلام محكم، قطعي الدلالة، لا يحتمل تأويلاً، ولا تفسيراً، ولا تعليلاً، ولا تعليقاً، ولا يحتاج إلى اجتهاد إطلاقاً، ولا يختلف على معنى هذا النص إنسانان في الأرض، أما إذا قلت: أعط فلاناً ألف درهم ونصفه، هنا إشكال، يا ترى أعطيه ألفاً وخمسمئة أم ألفاً ونصف؟ هذه اسمها عبارة ظنية الدلالة، لذلك إذا كان هناك آيات ظنية الدلالة تحتمل معنى الإكراه والتخيير، قال علماء الأصول: الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلت، لذلك إذا عزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، دليله:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف الآية: 5]

(لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا)

[سورة الكهف الآية: 28]

قد نفهم هذه الآية فهماً خاطئاً، أغفلنا بمعنى وجدناه غافلاً لا بمعنى أننا وضعنا في قلبه الغفلة، وجدناه غافلاً، عاشرت الناس فما أجبنتهم، أي ما وجدهم جبناء، عاشرت هؤلاء القوم فما أبختلهم، أي ما وجدهم بخلاء:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

[سورة الكهف الآية: 28]

الأستاذ عدنان:

لا شك أن في تاريخنا العربي الإسلامي أحداث تؤكد الاختيار والحرية في مكارم الأخلاق وفي سواها لو استعرضنا شيئاً منها.

أحداث من تاريخنا العربي الإسلامي تؤكد الاختيار والحرية في مكارم الأخلاق :

الدكتور راتب:

سيدنا عمر بن الخطاب جاؤوا إليه بشارب خمر قال: أقيموا عليه الحد، قال: والله يا أمير المؤمنين قدر عليّ ذلك، قال: أقيموا عليه الحد مرتين؛ مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

أنت مخير، سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ حينما قال لبعض من انتقده على مسيره إلى الشام، سأله واحد من الناس كان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ قال: ويحك لو كان قضاءً لازماً وقدراً حاتماً إذاً لبطل الوعد والوعيد، ولانتهى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

الصحابة الكرام فهموا أن الإنسان مخير، وحينما تفهم الأمة أنها مسيرة وأنها مكرهة تشل حركتها، ويقوى عليها عدوها، وما من عقيدة فاسدة شلت حركة المسلمين في العالم كهذه العقيدة التي ليست من أصل الدين.

الأستاذ عدنان:

إذاً أستطيع أن أقول: إن الحرية موجودة وهي أساسية في حياة الناس جميعاً، ومكارم الأخلاق مرتبطة فيها ارتباطاً قوياً وثيقاً، وتظهر قيمة مكارم الأخلاق عندما يكون مبدأ الحرية موجوداً وقائماً، وهذا الأصل موجود من خلال إرادة الله عز وجل.

الأشياء التي ليس للإنسان إرادة فيها هي أكمل شيء لحاله :

الدكتور راتب:

لا بدّ من توضيح، أنت حر فيما كلفت فقط، لكنك لست حراً في أمك وأبيك، ولا في كونك ذكر أو أنثى، ولا في مكان ولادتك، ولا في زمن ولادتك، لكن العلماء قالوا: إن هذا الذي ليس لك إرادة فيه هو خير شيء لك، عبر عن هذا المعنى الإمام الغزالي فقال: "ليس في الإمكان أبدع مما كان"، أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني.

الأشياء التي ليس لك إرادة فيها هي أكمل شيء لحالك، لذلك تنتهي علاقة الإنسان بكلمة واحدة مع الله:

(وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ الحَمْدُ لِلَّه رَبِّ العالَمِينَ)

[سورة يونس الآية: 10]

الأستاذ عدنان:

دكتور هذه في الحقيقة من إعجازات الخلق التي أرادها الله تعالى أن تكون فيهم من خلال أخلاقهم، من خلال تصرفاتهم، من خلال المكارم التي أرادها الله عز وجل أن تكون موجودة في تصرفاتهم، هذا يقودنا إلى باب كبير لتحدثنا عنه وترينا من خلاله الإعجازات الموجودة، والتي أرادها الله عز وجل في خلقه، وفي هذا الوجود يمكن أن نتابع شيئاً منها.

الموضوع العلمي :

ظاهرة التمويه عند المخلوقات :

الدكتور راتب:

الحقيقة نحن أمام ظاهرة هي ظاهرة التمويه عند المخلوقات، شيء عجيب، شيء معجز، إن الله تعالى خلق كل نوع من الكائنات الحية في الطبيعة بخصائص تميزه عن غيره، بحسب البيئة التي يعيش فيها يستخدم كل كائن هذه الخصائص الفطرية لحماية نفسه، أو للتربص بفريسته، فبعض الكائنات يخفي نفسه بتقنية تمويه عالية، وبعضها يتصنع ويمثل، وبعضها يسلك التكتيك الذكي.

أودع الله تقنية التمويه لدى الحيوانات للحماية

التمويه واحد من عناصر الفن العسكري الذي لا يمكن الاستغناء عنه، فالقدرة على التخفي عن أعين العدو، والقدرة على الإخفاء أثناء هجوم العدو، مهمان إلى أقصى الدرجات، العجيب من هذا الأسلوب المسمى بالتمويه والذي يستلزم تحضيراً مفصلاً أنه ليس محصوراً لدى العقلاء، بل هو مستخدم أيضاً من قبل الحيوانات .

بعض الكائنات متناسقة مع بيئتها بحيث يصعب تمييزها

الحيوانات التي تموه نفسها خلقت متناسقة تناسقاً تماماً مع البيئة التي وجدت فيها، و وضعت تحت حماية خاصة بألوانها ونقوشها وبنية أجسامها، حتى إن أجسام بعض الكائنات متناسقة مع بيئتها إلى حدٍّ يصعب تمييزها عن النباتات المحيطة بها.

عنكبوت مثلاً بنفس لون الزهرة التي يعيش عليها، حية تثبت دون حركة كأنها غصن من أغصان الشجرة، حشرة لها جناح بنفس لون الأوراق اليابسة، ضفدعة تأخذ شكل محيطها ولونها، هذه كلها نماذج صارخة للتمويه في الطبيعة تظهر أن التمويه وجد بطريقة خاصة.

بعض الكائنات لها ألوان ونقوش تتناسب مع الغطاء النباتي المنتشر في الوسط الذي تعيش فيه


ليس من السهل تمييز نمر يختفي بين الأعشاب المصفرة

على سبيل المثال ليس من السهل تمييز نمر يختفي بين الأعشاب المصفرة. الأسود خلقت من لون المراعي التي تعيش فيها، وتختبئ بسهولة بين هذه الأعشاب، تتسلل إلى فريستها شيئاً فشيئاً كجندي مموه، والفهد كذلك بفضل تمويهه يتربص بفريسته دون أن تشعر، وعندما تشعر به يكون قد فات الأوان.

التمويه الذي يسلكه الحيوان من آيات الله الدالة على عظمته :

الحقيقة من آيات الله الدالة على عظمته هذا التمويه الذي يسلكه الحيوان ليحمي نفسه من عدوه أو ليقتنص فريسته التي يعيش عليها، هناك شواهد كثيرة لهذا التمويه تأخذ بالألباب.


يكون تمويه الحيوان أحيانا ليفترس غيره

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

* * *

والله عز وجل جعل هذا الكون كله مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، في القطب مثلاً يعيش قريباً من القطب في أبرد مناطق العالم كائنات ماهرة في فن التمويه، بعد قليل نبحث عن قابلية الطائر الخارقة للتمويه الذي كان سبباً في بقائه في هذا الإقليم. طائر يعيش في القطب لونه أبيض كالثلج تماماً لا تراه وهو على غصن شجرة غطيت بالثلج.

الموسم الآن الخريف مكان صخري تساقطت عليه الثلوج، وطائران قطبيان مختفيان هنا، هل بإمكانكم رؤيتهما؟ إنهما هنا، يكاد من المستحيل أن تميزهما في الطبيعة التي يعيشان فيها، لوجود تمويه تام في ريشهما، يقلدان به الأرضية الطبيعية، والآن لندقق أكثر، طبقات الثلج هذه نسخة مطابقة لريش الطائر الأبيض، والأرضية الترابية الظاهرة بين الثلوج أيضاً رسمت بعناية على ريش الطائر، الأرضية ومظهر الطائر يكاد يكون تمييزهما مستحيلاً.

أكبر سلاح يملكه الطائر في القطب أنه مموه :



أكبر سلاح للطائر القطبي (بتارميغان) تحول لونه للون الأبيض

أكبر سلاح يملكه الطائر في القطب أنه مموه، لون ريشه كلون الثلج، الموسم شتاء، الثلج يغطي كل مكان، يحصل تغير معجز في جسم الطائر القطبي، يزول لون ريشه الداكن كلياً يكاد يستحيل تمييز الطائر من الثلوج، والطائر لا علم له بهذا التغيير ولكن جسمه موه بشكل عام،وأما الريش الأسود المحيط بالعين فيحفظها من الإشعاعات المعاكسة التي تأتي من الثلج، حتى يرى طريقه لا بدّ من ريش أسود تمنع عنه إشعاعات الشمس المنعكسة على سطح الثلج.

الآن الموسم ربيع بدأت الثلوج بالذوبان، بين الثلوج الذائبة تخضر النباتات، وأما ريش الطائر القطبي فيظهر ريش جديد بلون النباتات، كل مظاهر التمويه الخارقة تحتاج إلى تفسير طبعاً، يستحيل على الطائر القطبي بالتأكيد تعيين لون ريشه حسب وسطه الذي يعيش فيه، فهو لا يملك ذلك العقل الذي يعرف به الفائدة التي يجنيها التمويه، إذاً فمن أعطى هذا الطائر قابلية التمويه الفائقة؟ من يعرف احتياج

الطائر إلى تمويه خاص بكل موسم؟ من هذا الرسام الذي رسم على ريشه نقش البيئة ولونها؟ هذه الأسئلة توصلنا إلى حقيقة واحدة هي أن هذا الطائر خلقه الله تعالى وهو الذي وهبه الميزات التي هو عليها.

بموسم الربيع يظهر للطائر ريش جديد بلون النباتات

وفي كل شيء له آي ة تدل على أنه واحد

* * *

الحقيقة أن هذه الآيات دالة على عظمة الله، وأصل الدين معرفته، والتفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه على الله، وأقصر طريق إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (08-30) : الفطرة و الشرع، التمويه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-03-09

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

دكتور مكارم الأخلاق والشرع، الشرع يحثنا على مكارم الأخلاق، والعقل نستطيع من خلاله أن نميز، ونفكر، وهناك الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لكن في بعض الأحيان يمكن أن يطغى العقل، ويمكن أن تنطمس الفطرة، من خلال ارتكاب الجهالات التي قد يقوم بها الإنسان، ونحن نتحدث الآن عن مكارم الأخلاق، كيف يسير الإنسان باتجاه مكارم الأخلاق إذا كان هناك عقل قد يطغى وفطرة قد تنطمس كيف يكون منهجه في الحياة؟

الله عز وجل ما كلف الإنسان بعبادته إلا بعد أن أعطاه مقومات التكليف :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان كما قلنا الإنسان هو المخلوق الأول، والمكرم، والمكلف، كلفه أن يعبده ليسعد بقربه في الدنيا والآخرة، وما كلفه بعبادته إلا بعد أن أعطاه مقومات التكليف، أعطاه كوناً ينطق بوجود الله، ووحدانيته، وكماله، أعطاه عقلاً يكشف به الحقائق:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

[سورة الرحمن : 7]

أعطاه فطرة يكشف بها الخطأ من الصواب، أعطاه شهوة تكون قوة دافعة له، أعطاه حرية ليثمن بها عمله، ولكن قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: 6-7]

فالإنسان قد يطغى وقد يطغى عقله، حينما يرى نفسه قوياً، غنياً، مالكاً، يطغى، ويطغى عقله قبل طغيانه، إذاً كان العقل ميزاناً موضوعياً فأصبح مزوراً ومشوهاً، أعطاه فطرة يكشف بها الخطأ من

الصواب، ولكن الإنسان حينما يغرق في الانحراف تنطمس فطرته، لا بدّ من مرجع ثابت، كيف أن هناك موازين كثيرة عند الباعة لكن عند المحافظة وعند المسؤولين على أمور التموين موازين ثابتة، فأي وزن كان مزوراً يقاس على هذا الوزن المركزي الصحيح، كيف أن محطات الوقود عندها عدادات، لا بدّ من وعاء يساوي عشرين لتراً بالتمام والكمال تفحص به عدادات محطات الوقود، فنحن مع أن هناك عقلاً كميزان علمي، ومع أن هناك فطرة كميزان نفسي أخلاقي، لا بد من مرجع ثابت، أنا حينما أكلف الطلاب أن يحلوا مسألة رياضية، بعض المدرسين يعطون الطالب الجواب، وكأنهم يقولون له: إذا جاء حلك منتهياً بهذا الجواب فأنت على صواب، فإن جاء عندك الجواب مخالفاً لهذا الجواب فأنت على خطأ، لذلك قضية الشريعة قضية أساسية جداً، هي المرجع.

العقل والفطرة موازين وضعها الله في الإنسان لاتباع الحق و اجتناب الباطل :

الإنسان آلة معقدة جداً، ولهذه الآلة صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة، أنت تشتري مركبة، وقد تجتهد في طريقة معالجة بعض أخطائها، وقد تجتهد في أسلوب تنظيفها، وقد تجتهد في أسلوب ملء العجلات بالهواء، لكن إذا فتحت تعليمات الصانع يعطيك تعليمات دقيقة في طريقة تنظيفها من الداخل، وفي طريقة تنظيف البلور، وفي طريقة ملء العجلات بالهواء، فهذه تعليمات الصانع هي الصحيحة، وما من جهة تستحق أن تتبع تعليماتها كالجهة الصانعة، معنا موازين، معنا موازين؛ العقل والفطرة، لكن الحياة معقدة جداً:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى)

أنواع القراءات :

1 ـ قراءة بحث و إيمان :

بل إن الله عز وجل حينما قال:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

[سورة العلق: 1-2]

فلا بد من أن تقرأ في هذا الكون قراءة بحث وإيمان:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

[سورة العلق: 1-2]

2 ـ قراءة شكر و عرفان :

و لا بد من أن تقرأ قراءة شكر وعرفان:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

[سورة العلق: 1-3]

منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، القراءة الأولى قراءة بحث وإيمان، القراءة الثانية شكر وعرفان.

3 ـ قراءة

وحي وإذعان :

ثم يقول الله عز وجل :

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

[سورة العلق: 3-5]

الوحي، كل شيء عجز العقل عن إدراكه أخبرك الله به، فعندي قراءة بحث وإيمان، وعندي قراءة الشكر والعرفان، وعندي قراءة الوحي والإذعان.

4 ـ قراءة عدوان و طغيان :

بقي القراءة الرابعة نعوذ بالله من هذه القراءة:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: 6-7]

يطغى بعقله.

من جاءت أفكاره موافقة للشريعة فهو على حق :

لماذا تتخبط البشرية اليوم بمتاهات الحروب والصراعات؟ لأن عقلها ضلّ، لأن عقل الإنسان لم يهتدِ بوحي السماء، وكنت أقول دائماً: كيف أن الضوء ضروري جداً لرؤية العين، الوحي ضروري جداً جداً لصواب العقل، فعقل من دون وحي كما ترى الإنسان يشقي نفسه بيده، والإنسان إذا ابتعد عن وحي السماء كان شقياً مشقياً، وكان فاسداً مفسداً، وكان مجرماً ويحمل على الجريمة، فلذلك العقل قد يطغى

والفطرة قد تنطمس، الإنسان إذا مارس الخطأ، واستمرأه، وتابعه إلى أن تنطمس فطرته هناك تعبير قرآني:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة المطففين: 14]

الإنسان أحياناً يفقد رؤيته الصحيحة، ويفقد وعيه:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

[سورة البقرة : 18]

لذلك تأتي قيمة الشريعة، الشريعة مرجعية، أنا شككت بهذا الكيلو هل هو مزور؟ هناك إضافات رصاص، أو نقص في الرصاص الذي بداخله، يؤخذ هذا الوزن إلى البلدية إلى قسم الموازين، يوضع على الوزن النظامي، فلذلك الإنسان العاقل يفكر، ويرتاح لشيء، وينزعج لشيء، أي يستخدم عقله تارة وفطرته تارة أخرى، ولكن ليعلم علم اليقين أنه في النهاية له مرجع، فإذا جاءت أفكاره موافقة للشريعة، وإذا جاءت تصرفاته موافقة للشريعة، فهو على حق، أما أن يخترع كل إنسان دين يقول: هذا يزعجني، هذا يريحني، هذه القضية أصبحنا في فوضى، نحن أمام مليون دين، أصبحنا أمام إنسان يفصل له دين على شاكلته، يريد ديناً فلكلورياً، يريد دين ألقاب علمية، دين مؤتمرات، دين ألقاب علمية، دين مناصب، دين مؤلفات، أما الدين الحقيقي بعيد عنه.

الشرع هو المرجع الأساسي للمسلم :

الآن هناك كلمات شائعة، فلان عنده أرضية إسلامية، وخلفية إسلامية، ونزعة إسلامية، وتوجه إسلامي، ومشاعر إسلامية، واهتمامات إسلامية، لكنه ليس مسلماً في الأساس، لا يطبق شيئاً من الدين، فهذه الفوضى، كان الدين مكعباً حديدياً، واضح المعالم، صار كرة نزعت منها النتوءات الثمانية، ثم أصبح كرة مطاطية، ثم أصبح سائلاً في أي وعاء يوضع، ثم أصبح غازاً، لذلك العقل قد يطغى، قد يأتيك إنسان بعقله يبيح لك المحرمات، قد يأتيك إنسان بدليل عقلي واه أنت لا تملك أن تجيبه يبيح لك الكبائر، لذلك هناك متاهات الأطروحات غير الصحيحة، لا بد من مرجع للمسلم، المرجع هو الشرع، هذه نقطة دقيقة جداً، أن العقل الذي هو ميزان قد يطغى، وأن الفطرة التي هي ميزان أخلاقي تنطمس، ما المرجع الأساسي الثابت؟ هو الشرع.

الأستاذ عدنان :

دكتور كلام جميل لا شك، وكما بينتم أن العقل قد يطغى، ويمكن ألا يطغى، وأن الفطرة قد تنطمس، لكن يمكن أيضاً ألا تنطمس، فإذا ما استطاع الإنسان أن يوازن في موضوع العقل بحيث لا يطغى، وفي

موضوع الفطرة بأن لا تنطمس، وجعل ميزانه الشرع، هذا هو المنهج السليم، لكن ضربت مثالين توضيحيين، الوزن الثابت الذي تقاس عليه بقية الأوزان، وموضوع آخر الطالب في المدرسة أعطي مسألة رياضية وأعطي الجواب الصحيح، إن كان زيادة فهو خطأ وإن كان نقصاناً فهو خطأ، هنا بالمثال الثاني لا الزيادة و لا النقصان يدخلان في نطاق الصواب، أما في نطاق الوزن فكما يقال زيادة الخير خير، ترى هل هذا أيضاً يدخل في نطاق الشرع؟

الدكتور راتب :

أنا ذكرت نقص الوزن، الزيادة خير طبعاً لكن هناك من يتلاعب، بأن يذيب بعض الرصاص في الأوزان، فيغدو هذا الكيلو تسعمئة غرام، فيغش الناس إلى أمد طويل، لابدّ من مرجع للوزن في البلدية يقاس عليه، كما ذكرت قضية محطات الوقود لابدّ من وعاء يساوي عشرين لتراً بالتمام والكمال تفحص به عدادات وقود المحطات.

الأستاذ عدنان :

أنا قصدت في الحقيقة في موضوع الزيادة في الوزن ما يتصل بالصحابة الثلاثة الذين أرادوا أن يصوم أحدهم الدهر كله والثاني ..

منهج النبي كامل لا يحتاج إلى إضافة ولا إلى حذف :

الدكتور راتب :

بارك الله، أنا ما انتبهت إلى دقة السؤال، الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أنا لا أريد لمؤمن أن يزايد على رسول الله، لأن منهجه منهج كامل، بل إن بعض الأشخاص أراد أن يحرم قبل الميقات، قال له أحدهم: لا تحرم قبل الميقات، قال: أنا في عبادة، قال له: هل تتفنن؟ قال: كيف أتفتن؟ قال: وهل من فتنة أكبر من أن ترى نفسك سبقت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنهج النبي كامل لا يحتاج إلى إضافة، ولا يحتاج إلى حذف، أما النقطة الدقيقة أن هذا المنهج يوصلك إلى أعلى مراتب الجنة، فلا تحتاج إلى أن تضيف على الدين ما ليس منه، لذلك قالوا: العبادات الأصل فيها الحظر، ولا تشرع عبادة إلا بالدليل القطعي الثبوت، أما الأشياء الأصل فيها الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالدليل القطعي والثابت.

الأستاذ عدنان :

دكتور من خلال الكون نرى أشياء معجزة، وقد جعلتم في كل حلقة ما يشير إلى إعجاز الله عز وجل، وعظمته في الكون، وفي مخلوقاته، الكون إذاً يرينا أشياء كثيرة من خلالها نعرف الله عز وجل، لكن هذه المعرفة هل توصلنا لوحدها إلى المنهج السليم؟

معرفة الآمر هو الخطوة الأولى في طريق الإيمان :

الدكتور راتب :

لا، أنا أقول دائماً أستاذ عدنان أنت أيها المسلم بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، أحياناً تلتقي بإنسان محسن، كريم، منحك شيئاً ثميناً، الآن تفكر كيف تكافئه، كيف تقدم له آيات الشكر، الإنسان إذا عرف الله دون أن يشعر يبحث عن قربة له، يبحث عن منهجه، ما الذي يريده الله؟ ما الذي لا يريده؟ ما الذي يحب؟ ما الذي لا يحب؟ لمجرد أن تعرف الله تبحث عن منهجه، لكن الذي يستغني عن منهجه هو لا يعرفه، لأنه بالكلام الدقيق: إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر، لذلك قبل أن نبحث عن الحلال والحرام، هل تعرف من الذي أمرك بهذا؟ وهل تعرف ماذا ينتظرك إن أطعته؟ وماذا ينتظرك لو عصيته؟ فلذلك معرفة الآمر هو الخطوة الأولى في طريق الإيمان، وما تخلف المسلمين إلا لأنهم عرفوا الأمر ولم يعرفوا الآمر، لم يعرفوه إلهاً واحداً بيده كل شيء، لم يعرفوا أن الله عز وجل في السماء إله وفي الأرض إله، لم يعرفوا أن ما من إنسان يطيع الله عز وجل إلا ويربح، و مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر وأن تعصيه وتربح، سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت.

الإنسان بالكون يعرف الله وبالشرع يعبده :

إذاً الإنسان بالكون يعرف الله، وبالشرع يعبده، أنا أضرب مثلاً؛ إنسان يعمل في لف المحركات، فأحياناً يأتي محرك فيه شريط خارجي مقطوع، يحتاج إلى نقطة لحام ويعود كما كان، أجرته غالية جداً، هذا الإنسان قبل أن يعرف الله يأخذ الأجرة الكاملة خمسة آلاف ليرة على إصلاح هذا المحرك، وكلفه دقيقة واحدة، بعد أن عرف الله يطلب خمساً وعشرين ليرة، فأنت لمجرد أن تعرف الله تبحث عن طريقة تتقرب إليه من تنفيذ أمره، ومن الابتعاد عن نهيه، لذلك الحلال والحرام، والمنهج التفصيلي، والعبادة التعاملية، متى يحتاجها الإنسان؟ إذا عرف الله، أما هي الآن مبذولة بين يدي الناس، لا يوجد إنسان إلا ويعرف أنه يعصي، إلا يعرف أنه يأخذ ما ليس له، ومع ذلك يأخذ ما ليس ويعصي لأنه ما

عرف الآمر، إذا عرفت الآمر تفانيت في طاعته، قد تأتي ورقة أحياناً من البريد تدعوك إلى تسلم رسالة مسجلة، لا تتحرك شعرة في جسمك، وقد تأتي ورقة من جهة أخرى فلا تنام الليل، الفرق بين الورقتين الآمر، فإذا عرفنا الآمر تفانينا في طاعته، وإذا لم نعرف الآمر تفننا في التفلت من الأمر.

الطاعة لها ثمن معجل و ثمن مؤجل :

يقال الثواب، ما الثواب؟ أنت حينما ترفع عملاً صالحاً إلى الله:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

يعود عليك من الله سكينة، سعادة، لذلك أسعد الناس المحسنون، المحسن يمتلئ قلبه سعادة، ولو وزعت سعادة المحسن على أهل بلد لكفتهم، لأن الله عز وجل كافأه بالسكينة، تجلى على قلبه، أودع فيه السكينة، أودع فيه الطمأنينة، قربه إليه، فلذلك الطاعة لها ثمن معجل، في عقود القران هناك مهر معجل ومهر مؤجل، والطاعة في الدنيا لها ثمن معجل، ولها ثمن مؤجل في الآخرة:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن: 46]

الأستاذ عدنان :

دكتور، من خلال هذا الميزان الذي تحدثنا عنه وهو الشرع، وهو المنهج السليم، ترى الإنسان الذي يطغى عقله وتنطمس فطرته يحاول أن يموه في استباقه تعاليم الشرع، إذا تابعنا موضوع التمويه في الحيوانات التي خلقها الله عز وجل، وهي ليست مختارة في تصرفاتها، ترى كيف نجد من إعجاز الله عز وجل في هذا الأمر؟

الإعجاز العلمي :

الأخطبوط أمهر مموه في البحار :

الدكتور راتب :

بارك الله بكم، الحقيقة الحيوان أحياناً يقوم بأعمال تفوق حدّ الخيال تنطوي على دقة متناهية، ومع ذلك ليس له عقل، هذا يستنبط منه أن الله يُسير الكائنات، والإنسان أعطاه الله عقلاً، وأطلق له حريته، فهذا يتصل بحرية الإنسان، وبالمنهج الذي أعطاه إياه، أنت حر ومعك منهج، الحيوان كمن يقود قطاراً

يمشي على سكة، أما الإنسان يقود مركبة، هناك علامات سير، وإشارات مرور، و خبرة بالقيادة، وهناك واد، الإنسان مسؤول في قيادة مركبته، لأنه مخير في تحريكها إلى أية جهة، أما قائد القطار ليس مسؤولاً.

لا يقتصر وجود المهارة بالتمويه على الغابات والثلوج فحسب، بل يمكن إيجادها في أعماق البحر في الوقت نفسه، ولعل الأخطبوط أمهر مموه في البحار، بعض الأنواع من الأخطبوط تحقق تناسقاً تاماً مع لون وشكل أرضية البحر الذي تعيش فيه، هذا الأخطبوط الذي نتابعه مقلد ماهر إلى أقصى حد، إلى جانب تقنية التمويه الفائقة لديه، فعندما يمر بأرضية بحر رملية يصعب عليه معها التمويه، يبدأ باستخدام إمكانية تقليد الطحلب، أحياناً يصل تغيير شكل الأخطبوط إلى درجة لا يمكن تمييزه من الصخرة التي يلتصق بها، على هذه الصخرة أخطبوط آخر إلا أنه يستحيل أن نميزه إن لم يتحرك، هذا السبق لأول وهلة يقف وكأنه اختفى داخل الطحلب، حيث تظهر الحقيقة إذا رجعنا إلى الوراء قليلاً، فلم يكن أمامنا طحلب بل حصان بحر على شكل طحلب، الذي يرى كأنه إسفنج بحر لأول وهلة، هذا الكائن الحي هو في الحقيقة سمكة، بفضل هذه الحاسة الخاصة لتحقيق وظيفة الصنارة تستطيع اصطياد الأسماك الصغيرة.

التمويه عند الحشرات :

هنا على الغصن نتوءان، لكن أحدهما بالحقيقة عنكبوت مموهة في وقت الخطر، العنكبوت تموه نفسها مرة أخرى بنتوء الغصن الحقيقي، ليس لهذه العنكبوت إمكانية التفكير فكيف تتمكن من التمويه بنتوء الغصن؟ هذا من فعل الله عز وجل .

هناك أمثلة لا تنحصر بالعناكب فقط، فمثلاً هنا حشرة مختبئة بين هذه الأوراق، إنها هنا تماماً، لاحظوا لا يوجد أي فرق بينهما فجسمها كالورقة تماماً، من شكل الورقة إلى عروقها خلقت بدون أي نقصان، يوجد هنا حشرة بين هذه الأوراق الصفراء، لنحاول الآن إيجادها، هذه هي حشرة مموهة ببراعة من الصعب جداً رؤيتها على الورقة، جناح الحشرة له تفصيلات دقيقة حتى البقع الفاسدة على الورق المصفر، لنفكر الآن قليلاً بتصميم هذا التمويه ليس لدى هذه الحشرة إمكانية التفكر ولا تعلم مدى احتياجها إلى التشبه بالأوراق لبقاء حياتها حتى لو علمت لا تستطيع رسم شكل ورقة عليها، إذاً الرسم الموجود على جناح الحشرة المصممة بشكل واع أثر من؟ لا شك هذا الرسم آية من آيات الخالق.

الحقيقة دارون كما هو معروف تزعم نظريته ـ نظرية التطور ـ أن جميع الكائنات في الطبيعة وجدت نتيجة لمصادفة عمياء، ولكن حتى التصميم الذي على أجنحة هذه الحشرة الصغيرة لم يكن مصادفة بل

هو كاف لرؤية أثر الخالق، لو شمر فنان لرسم الورقة لا يستطيع أن يرسمها لتبدو كالحقيقة، إلا أنها هنا ليست مجرد صورة بل هي أنموذج مصغر لورقة منسقة بالأبعاد الثلاثية في جسم الحشرة، خالق هذا الكائن بهذا الشكل، وهذا التصميم الخارق، يرينا فيه صنعته، وقدرته، إنه رب العوالم، إنه رب العالمين سبحانه وتعالى.

التمويه آية من آيات الخالق :

الآن هذا الجسم المتحرك على الغصن لأول وهلة يطابق ورقة جافة شكلاً ولوناً، إلا أنه ليس كذلك بل هو شرنقة فراشة جافة وبفضل تقنية التمويه الفائقة التي وهبها إياها الله تعالى أثناء وجودها دودة في الشرنقة، حيث ليس لها أي دفاع يتم نموها دون أن يشعر بها أعداؤها، وتبدأ أول خطوات حياتها فراشة جديدة.

الآن نشاهد زهرة الأوركيد، لكن هذا المنظر الذي نراه ليس كله لها، بل هناك كائن آخر منسجم مع شكل هذه الزهرة، حتى مع درجات لونها، إنه الحشرة المسماة فرس النبي بتمويه مدهش، ويكمل الشبه من جهة اللون، والشكل، والنقش، في قوله تعالى:

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

[سورة السجدة : 7]

إذاً الحيوان مسير، الإنسان مخير، الإنسان مخير ومعه منهج، أما الحيوان فمسير، والحيوان يقوم بأعمال لا يستطيع العقل تصورها من دقتها وبراعتها، لكنه فعل الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (09-30) : الاستقامة، التمويه عند الفراشات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

دكتور الاستقامة كلمة نسمعها في الناس، وفي المجتمع، وفي أخلاق الناس كثيراً، في الحقيقة المصطلح في تعريف الاستقامة هو الذي نطلبه، ولا نطلب التعريف اللغوي، الاصطلاحي هو الذي أود أن تبينه للأخوة المشاهدين.

المعنى الاصطلاحي للاستقامة :

الدكتور راتب :

المعنى الاصطلاحي للاستقامة سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، لأن استقامة فعل مزيد على الثلاثي، من قوم، وقوم أي اعتدل، واستقام طلب سلوك الطريق المستقيم، والطريق المستقيم هو الطريق إلى الله، هو منهج الله، هو افعل ولا تفعل، هو المنهج الذي رسم للإنسان من أجل سلامته وسعادته، هو تعليمات الصانع، هو تعليمات الخبير، هو الطريق الذي يصل نعم الدنيا بنعم الآخرة، هو الطريق الذي يحقق سلامة الإنسان:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

[سورة المائدة الآية: 16]

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء الآية: 9]

الاستقامة بالمعنى الدقيق :

الاستقامة بالمعنى الدقيق: سلوك الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو طريق الدين القويم، هو الطريق إلى الله، هو الطريق الذي يفضي إلى الجنة، هو الطريق الآمن، هو طريق السعادة، هو طريق الأمن:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام الآيات : 81-82]

هو طريق الحكمة، هو طريق الرحمة، هو طريق العدل، هو طريق الإنصاف، هو طريق الخير، هو طريق الجمال، هو طريق العطاء، المنهج القويم الذي رسمه الله لهذا الإنسان كي يحقق علة وجوده، وغاية وجوده، هو الصراط المستقيم، والاستقامة أن تمشي على طريق يوصلك إلى الله، والآية الدقيقة:

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

[سورة فصلت الآية : 6]

إن سرت على طريق الدين وصلت إلى الله،

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

كيف أنك في الدنيا تسلك طريقاً يوصلك إلى هذه المدينة، وهذا الطريق يوصلك إلى مكان آخر،

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

إن سرتم على منهج الله وصلتم إلى الله في الدنيا وفي الآخرة، في الدنيا رحمة، وحفظ، وتأييد، ونصر، وتوفيق، وفي الآخرة جنة عرضها السماوات والأرض، فالمعنى الاصطلاحي للاستقامة أن تسلك المنهج الذي رسمه لك خالقكم:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة الآية : 21]

الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تطاع هي الجهة الخالقة، الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها هي الجهة الصانعة، فلذلك الاستقامة أن تمشي على صراط الله.

الأستاذ عدنان :

دكتور:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود الآية : 112]

الأمر الإلهي للرسول عليه الصلاة والسلام وللمسلمين الذين مع الرسول أن يستقيموا كما أمروا، رغم أن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام رعته يد العناية الإلهية فهو مخلوق على الاستقامة كيف يكون ذلك؟

الاستقامة تجب على كل المؤمنين :

الدكتور راتب :

لا بد من التوضيح أستاذ عدنان، أن النبي عليه الصلاة والسلام بشر، ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود الآية : 112]

هناك من يتوهم أن هؤلاء الأنبياء صفوة الله في خلقه، هم في كمال وهبي، نقول: لا:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أوضح لك هذه الحقيقة بمثل، لو أراد أعلى طبيب جراح قلب أن يعطي مريضاً حقنة فيجب أن يعقمها، يجب أن يعقم المكان، يجب ويجب هناك تعليمات دقيقة، ولو أراد أقل ممرض أن يعطي هذه الحقنة يجب أن يطبق تعليمات أعلى طبيب، المؤمنون والأنبياء يشتركون في تطبيق منهج الله، أما مقام الأنبياء شيء، ومقام المؤمنين شيء آخر، إذاً الاستقامة تجب على كل المؤمنين:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

ولا تضعف،

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

لئلا يتوهم المسلم أن الذي فعله النبي ليس مطالباً به، الذي فعله النبي عليه الصلاة والسلام منهجاً لنا، ونحن مطالبون بتطبيقه، ولولا أن الشريعة ضمن وسع الإنسان لما كان لهذه الآية من معنى:

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا)

[سورة البقرة الآية : 286]

الأستاذ عدنان :

استقم وكما أشرتم أن الاستقامة هي الطريق المستقيم الذي يوصل إلى الخالق وعبادته، لا يمكن أن يكون الاتجاه إلى الطريق المغاير، فالحق إذاً واحد، لكن إذا كان الحق واحداً فهل الباطل هو الذي يكون واحداً باتجاه معاكس أم الباطل يكون متعدداً؟

الحق واحد لا يتعدد :

الدكتور راتب :

الحقيقة أنني مضطر لاستخدام بعض المصطلحات الهندسية، بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، ولو حاولنا أن نرسم مئات المستقيمات بين نقطتين تأتي كلها فوق بعضها، لذلك الحق لا يتعدد، الحق لا يتعدد لأن الحق كالخط المستقيم، الباطل يتعدد، بين نقطتين يمكن أن نرسم مليون خط منحن، بين نقطتين يمكن أن نرسم مليون خط منكسر، لكن بين نقطتين لا يمكن إلا أن نرسم خطاً واحداً، لذلك من لطائف القرآن الكريم أن الحق جاء مفرداً، وأن الباطل جاء متعدداً:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام الآية : 153]

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة البقرة الآية : 257]

الظلمات جمع، إلى النور، قد يقول أحدهم: لمَ لم يقل الله عز وجل من الظلمات إلى الأنوار؟ من الظلمات إلى النور، الحق لا يتعدد، ويقاس على هذا أن المعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، والمعركة بين حقٍ وباطل لا تدوم، لأن الله مع الحق، والمعركة بين باطلين لا تنتهي، لأن الله تخلى عن كل منهما، بقيت القوة وحدها هي الحكم.

الأستاذ عدنان :

الإنسان إذا أردنا أن ننظر إلى أعماله أهي مستقيمة أم لا، نجد الإنسان ـ وأنا أعمم هذا ـ يسير على الاستقامة الكاملة من خلال المصطلح الذي عرفتم به الاستقامة في بدء هذه الندوة، ونجد إنساناً على غير ذلك، وهذا في مرده لذات الإنسان، تكمن بواعث هذا التعدد في مستوى الاستقامة، ما هي البواعث التي تدعو فلاناً إلى الاستقامة وما هي البواعث التي تجنبه طريق الاستقامة؟

الإيمان بالله هو الباعث الأول للاستقامة :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن المستقيم كما قال الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية : 30]

قبل أن تؤمن بالآمر لا تبحث عن الاستقامة، قبل أن تؤمن بالآمر لا تبحث عن الأمر، قبل أن تعرف الله لا يمكن أن يهمك قضية طاعته أو عدم طاعته، لأن الإنسان حينما يكذب بالحسنى، والحسنى هي الجنة:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات الآيات : 40-41]

الآية التي تقول في قوله تعالى :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآيات : 5-9]

الإنسان حينما يكذب بالجنة، يكذب أن هناك حساباً وعقاباً، وجنة وناراً، حينما يكذب بالحسنى يستغني عن طاعة الله:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

[سورة المؤمنون الآية : 74]

إذاً ما هو الباعث الأول للاستقامة؟ الإيمان بالله، أن تؤمن أن الله يعلم وسيحاسب وسيعاقب، أنت حينما تقف بمركبتك أمام إشارة حمراء، والشرطي واقف، والضابط واقف، وأنت مواطن عادي، لا يمكن أن تخالف، لأن واضع قانون السير علمه يطولك من خلال هذا الشرطي، وقدرته تطولك من خلال حجز المركبة، أما قد تتخطى هذه الإشارة في الساعة الثالثة ليلاً، أو تتخطاها إذا كنت لك مكانة أكبر من واضع القانون مثلاً، لكن حينما تكون منضبطاً، وتعلم أن واضع هذا القانون يطولك علمه، وتطولك قدرته، لا يمكن أن تعصيه.

الله عز وجل علمه يطولنا وقدرته تطولنا :

لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية : 30]

ربنا يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، علمه يطولنا، وقدرته تطولنا:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ)

[سورة الطلاق الآية : 12]

بواعث الاستقامة أن الله يعلم و سيحاسب و سيعاقب :

الآن: الله عز وجل اختار من بين أسمائه كلها اسمين:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق الآية : 12]

علمه يطولك، وقدرته تطولك، لذلك لا تنتظر من إنسان لم يؤمن بالله أن يستقيم، لا تنتظر من إنسان لم يعرف ماذا عند الله لو أطاعه، وماذا ينتظره لو عصاه، الاستقامة متعلقة بالإيمان:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

[سورة المؤمنون الآية : 74]

إذاً ما هو الباعث الأول على الاستقامة :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية : 30]

ربنا الله، وإلهنا، ومسيرنا، أسماؤه حسنى وصفاته فضلى، يعلم، يطولنا علمه، وتطولنا قدرته، يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، هذه بواعث الاستقامة، لذلك أنا لا أصدق كثيراً أن يكون إنسان عنده رادع داخلي من دون أن يكون مؤمن، قد يتعفف عن شيء لا يريده.

الأستاذ عدنان :

دكتور هنا في هذه الناحية بالذات كنت أود أن أسأل مثل هذا الأمر الذي فتحتم الباب إليه، تحدثتم فيما مضى عن الفطرة، والفطرة يمكن أن تكون مقومة، ويمكن أن تكون سليمة، ويمكن أن تكون كما أرادها الله عز وجل، في هذه الحالة دون أن تنطمس ألا تكون باعثاً للاستقامة؟

الفطرة باعث معرفة الله عز وجل إذا بقيت سليمة :

الدكتور راتب :

طبعاً إذا بقيت سليمة، الفطرة أيضاً باعث معرفة الله والرجوع إلى الفطرة، هناك إيمان فطري، وهناك إيمان كسبي، فالإيمان الكسبي باعث على الاستقامة، والإيمان الفطري باعث، لكن مع كثرة الضلالات، والشبهات، والشهوات المستعرة، والفتن، هذا كله يضعف قيمة الفطرة، ويقوي قيمة الإيمان الكسبي، لكن أريد أن أقول أستاذ عدنان الباطل لا يمكن أن نستوعبه، قبل قليل ذكرت أن بين نقطتين يمر مليون خط منحن، ومليون خط منكسر، أي عمر الإنسان أقل بكثير من أن يستوعب الباطل كله، مضيعة وقت، طريق مسدود، ما يطبع في يوم واحد، بلغة واحدة، نحتاج إلى قراءته في مئتي عام، أن نستوعب الباطل طريق مسدود، وشيء مستحيل، وعمرنا قصير، والوقت محدد، لكن البطولة أن نستوعب الحق،

لو استوعبنا الحق كان الحق مقياساً، وكان الحق ضابطاً يمكن أن تقيس كل شيء تسمعه، أو تقرأه على الحق الذي استوعبته من وحي السماء، لأن فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه

الأستاذ عدنان :

دكتور أنت ضربت مثلاً من خلال النقطتين وبينهما خط مستقيم، وهذه هي الاستقامة اصطلاحاً، وضربت في نفس المثل ليصل الإنسان إلى النقطة الثانية يستطيع أن يمر من خلال خط منحن بملايين الخطوط، أو منكسر بملايين الخطوط، قال قائل: أنا منذ ولادتي في النقطة الأولى إلى نهايتي في النقطة الثانية إن سرت على الخط المستقيم إلى أن أصل نهايتي، أو سرت على الخط المنكسر ومتى أتت نهايتي فليكن، ماذا يكون الجواب؟

الاستقامة توصل إلى الجنة :

الدكتور راتب :

نقطة النهاية نقطتان جنة ونار، فإن سار على الخط المستقيم أوصله الطريق إلى الجنة، أما إذا سار على الخط الآخر أوصله هذا الخط الآخر إلى النار، يتوهم أن النقطة الثانية يصلها بالانحناء مستحيل، طبعاً ينهي الانحناء إلى النار.

الأستاذ عدنان :

أهداف الاستقامة.

أهداف الاستقامة السلامة و السعادة :

الدكتور راتب :

أهداف الاستقامة ما من إنسان على وجه الأرض من الستة آلاف مليون إلا ويحرص على سلامته وسعادته، والذي يشقي الإنسان جهله، الجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

الأستاذ عدنان :

الاستقامة منجية في هذه الحالة، إذا أردنا أن نرى نتائجها على الفرد وعلى من حول الفرد أي في المجتمع.

لغة العمل أبلغ من لغة القول :

الدكتور راتب :

الحقيقة:

((استقيموا يستقم بكم))

[أخرجه الطبراني عن سمرة بن جندب]

هذه الدعوة الصامتة، بإمكانك أن تكون صادقاً، وأميناً، وعفيفاً، صدقك وحده دعوة للاستقامة، أمانتك وحدها دعوة إلى الأمانة، عفتك وحدها دعوة إلى العفة، نحن بحاجة لا إلى دعاة ناطقين بقدر ما نحن بحاجة إلى دعاة صامتين، لأن لغة العمل أبلغ من لغة القول، وهذا الإسلام بدأ وانتشر بالتطبيق لا بالكلام، ولو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن والله ما خرج من مكة المكرمة، فهموه تطبيقاً، فهموه بذلاً وعطاءً، فلذلك:

((استقيموا يستقم بكم))

[أخرجه الطبراني عن سمرة بن جندب]

كيف أن القرآن الكريم كون ناطق، وكيف أن الكون قرآن صامت، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، نحن بحاجة الآن إلى مسلم يمشي أمامنا، فإن تكلم فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف، هذا الذي ينجي:

((استقيموا يستقم بكم))

[أخرجه الطبراني عن سمرة بن جندب]

الأستاذ عدنان :

إذا أردنا أن نخصص أكثر لنرى ميادين الاستقامة، هذا عن المجتمع والإنسان بشكل عام، فيما يتصل بالقلب والجوارح عند الإنسان.

من استقام قلبه استقامت جوارحه :

الدكتور راتب :

إذا استقام قلب الإنسان استقامت جوارحه، الإيمان لا يتجزأ، الإيمان ما وقر في القلب، وأقرَّ به اللسان، وصدَّقه العمل، فإنسان مستقيم من خارجه هذا منافق، أما الاستقامة تبدأ من القلب، يستقيم القلب يعرف الله، يتوجه إليه، يرجو جنته، يخشى ناره، يُحسن إلى خلقه، هذه المشاعر الداخلية، الحقيقة الاستقامة هي بيان داخلي، الاستقامة في حقيقتها سلوك، وانضباط، ووقوف عند الحق، وإنصاف، وإذعان للحق، وردّ للباطل، وإحسان، ورحمة، هذه كلها مظاهر، كيف أن الحب شعور يعبر عنه بالود، كذلك

الاستقامة موقف داخلي، اعتقاد، يقين، إيمان بالله عز وجل، رغبة في خدمة الخلق، هذه كلها مشاعر داخلية تنعكس خدمة لبني البشر، لذلك:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية : 159]

أي يا محمد بسبب رحمة استقرت في قلبك من خلال اتصالك بنا كنت ليناً معهم، فلما كنت ليناً معهم التفوا حولك، ولو كنت منقطعاً عنا لامتلأ القلب قسوة، معادلة رياضية:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران الآية : 159]

إذاً الاستقامة مبعثها داخلي؛ القلب، لذلك :

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

استقامة اللسان تأتي من استقامة القلب، واستقامة الجوارح تأتي من استقامة القلب، والحقيقة الإيمان كله قرار داخلي، موقف داخلي، عظمة المؤمن أو هذه الشخصية الفذة سره كعلانيته، ظاهره كباطنه، خلوته كجلوته، هي مرتبة أخلاقية، ومرتبة علمية، ومرتبة جمالية.

الأستاذ عدنان :

دكتور هذه من ثمار الاستقامة في ذات الإنسان، قلبه نظيف، جوارحه نظيفة، لسانه نظيف، الآن ما يندرج من هذه الاستقامة ثماراً في الدنيا.

ثمار الاستقامة في الدنيا :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان الحقيقة هناك حديث أسأل الله أن يمكنني أن أوضحه، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

والمطلق على إطلاقه، وحينما يحذف المفعول به يطلق معنى الفعل، لن تحصوا ثمار الاستقامة أهي سكينة؟ أهي راحة؟ أهي سعادة زوجية؟ أهي سمعة متألقة؟ أهي توفيق في العمل؟ أهي إنجاز كبير؟ أنها بركة في العمر؟ أنها كسب مال حلال؟ أنها أسرة سعيدة؟ أي استقيموا ولن تحصوا الخيرات في الدنيا قبل الآخرة:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن الآية : 46]

في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة، استقيموا ولن تحصوا الخيرات من الاستقامة.

الأستاذ عدنان :

دكتور الحقيقة أن الكرامة التي كرّم الله تعالى بها الإنسان هي الاستقامة من جملة أمور كثيرة، والاستقامة كما ذكرتم أن يكون الإنسان على الطريق المستقيم الذي يؤدي به إلى عبادة الله عز وجل، واتباع أوامره، والانتهاء عما نهى عنه، إذا انتقلنا إلى الموضوع العلمي وما فيه من تمويه الحيوان في أموره حتى يكسب أمور نجاته، وحياته، وبقائه، ترى هل الإنسان إذا ما موه يستطيع أن يموه على ربه؟ الجواب: لا، لنرى ما يتصل بالتمويه في ميدان الحيوان.

الموضوع العلمي :

التمويه عند الفراشات :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحقيقة هناك آيات دالة على عظمة الله في خلقه، والحيوان مع أنه غير عاقل لكن يقوم بأعمال تفوق عقول الأذكياء، لأنه مُسير من قبل الله عز وجل.

هذه العنكبوت البيضاء في طرف الزهرة في انتظار فريستها، تحط الفراشة وسط الزهرة، يرى بزاويتها العنكبوت بلون أوراق الزهرة تماماً، ولشدة التمويه تحط الفراشة على العنكبوت نفسه ظناً منها أنها زهرة، للفراشات مكانة خاصة بين الكائنات، هذه الفراشة تجيد التمويه في الطبيعة بشكل معجز، بعض أنواع الفراشات رسمت عليها عيون كبيرة، هذه العيون الكاذبة أهم تكتيك دفاعي للفراشات، فعند مواجهة أي خطر كمقابلة عصفور يبحث لنفسه عن طعام ما عليها إلا أن تفتح جناحيها كاملاً لتبدو للعصفور أنها مخلوق كبير، وهذا مثال حي لهذا التكتيك.

في الحقيقة هذه الفراشة التي تقف على الشجرة فريسة سهلة للعصفور، إلا أن الفراشة ما تلبث أن تفتح جناحيها فتبرز عينان كبيرتان، ليبدو الخطر على العصفور كبيراً، يفر العصفور من هناك بسرعة وكأنها بومة، هي تقلد شكل البومة، وهذه طريقة تنجو منها من خطر أن يلتهمها العصفور.

لندقق في روعة النقوش التي على هذه الفراشة، شكل العين، الأهداب التي تحتها، الأنف، القزحية، الضوء المنعكس في الحدقة، حتى بريقها، وضعت كل التفاصيل، على جناح آخر نرى الأنف، والآذان، والظلال فوق العين، كأنه مكياج، و شكل العين، وحدقة العين، وحتى البريق المنعكس في الحدقة،

تعطي صورة حيوان كبير، فالفراشة المتواضعة الصغيرة شكل أجنحتها على شكل بوم، فإذا رأت عصفوراً فتحت أجنحتها، فخاف العصفور فولى هارباً.

التصميم على جناح الفراشة يدلنا على بديع خلق الله سبحانه وتعالى :

في هذا التمويه تفصيل مهم، ألد أعداء الفراشات صنفان: حشرات كاليعسوب، وعصافير صغيرة تتغذى عليها، وتعد البومة ألد أعداء هذين الصنفين، وفي هذه النقطة معجزة خارقة جداً، ذلك لأن الصورة التي على جناح هذه الفراشات غالباً صورة بومة، أي أن الفراشة تحمي نفسها بتقليد عدو عدوها، لأن الطيور الصغيرة تخاف من البومة كثيراً، إلا أن الفراشة قطعاً لا تعرف أن البومة عدو عدوها، من علمها ذلك؟ ولا تقدر على رسم صورتها على جناحيها، وليس لها وعي لتخطيط مثل هذا التكتيك، ولكن في الواقع الصورة الدقيقة هذه موجودة بلا شك، لم يأتِ هذا الرسم مصادفةً، بل خلق لغاية معينة، فلمن يرجع التصميم الموجود على الفراشة يا ترى؟ تصميم كهذا لا يمكن أن يحدث كما زعم التطوريون، فكل تصميم يدل على مصمم، وهذا التصميم الذي على جناح الفراشة يدلنا على بديع خلق الله سبحانه وتعالى، قال تعالى :

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحشر الآية : 24]

وإلى جانب الأعين الكاذبة للفراشات لها إمكانيات للتمويه محيرة، فكأن الفراشات استقطعت ألوان الأيكة ثم أنتجت هذه الألوان على أجسامها، من خلال نظام دقيق تناسب ألوان هذه الأيكة، إلا أن الفراشة لا يمكنها قطعاً عمل كل هذه الذي عددناه، هذا التصميم في الفراشات دليل واضح على خلق الله تعالى.

التفكر في آيات الله عز وجل طريقة معرفته :

مرة ثانية أستاذ عدنان: الإنسان إذا تفكر في خلق السماوات والأرض عرف جانباً من أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، الله عز وجل حينما أمرنا أن نعبده رسم لنا طرقاً سالكة وواضحة إليه، لذلك طريقة معرفة الله التفكر في آياته، له آيات كونية؛ خلقه، وله آيات تكوينية؛ فعله، وله آيات قرآنية؛ كلامه، الله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ (35))

[سورة المائدة]

من وسائل معرفة الله آياته الكونية؛ خلقه، فراشة ليس لها عقل يمكن أن تظهر على شكل بوم، هل هي صنعت لنفسها هذه الرسوم الدقيقة؟ العين، والحدقة، والظل فوق العين، وبريق حدقة العين، شيء مستحيل، إذاً التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى معرفة الله وأوسع باب ندخل منه على الله.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (10-30) : الإحسان ـ التمويه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:

دكتور نقول عن فلان: إنه محسن، ونقول: وأحسنوا كما أحسن الله إليكم، ونقول: فلان أعطى حسنة، وكلمة الإحسان بشكل عام يمكن أن تكون حتى في اسم الإنسان، يسمى إحساناً، كلمة الإحسان تعريفاً من خلال المصطلح لا من خلال التعريف اللغوي ماذا تعني؟

تعريف الإحسان :

الدكتور راتب:

تعريف الإحسان أستاذ عدنان جزاك الله خيراً من خلال المصطلح فعل ما هو حسن، وما الحسن؟ هناك مصطلح قرآني رائع هو المعروف والمنكر، الحسن تعرفه النفوس السليمة بفطرها، والشيء غير الحسن تنكره النفوس السليمة بفطرها، فكأن مفهوم الإحسان هو مفهوم المعروف عند كل الخلق، ومفهوم الإساءة تنكرها النفوس كل نفوس الخلق، في أصل الإنسان هناك فطرة سليمة تعرف الحسن وتعرف القبيح، وفي بعض البلاد يأتون برجال من الطريق اسمهم المحلفون، ويعرضون عليهم قضية قضائية، بفطرهم السليمة يمكن أن يكتشفوا الحقيقة، الحسن ما عرفته النفوس بفطرتها، المعروف والسوء ما أنكرته النفوس بفطرتها، فالإحسان فعل الشيء الحسن، والإنسان قبل أن تطمس فطرته، وقبل أن يعطل عقله ويزور، يعرف الحسن بفطرته، ويعرف عدم الحسن بفطرته.

الأستاذ عدنان:

دكتور أحياناً نستقبح عملاً بشكل كبير وأحياناً بشكل أدنى من ذلك، وقد يقارب هذا الفعل القبيح أن يكون غير قبيح، والحسن أيضاً الشيء نفسه، فنستحسن عملاً بشكل رائع وقد يكون وسطاً وقد يكون أدنى من ذلك، إذاً هل أستطيع أن أقول إن الإحسان له مراتب؟ ما هي؟

مراتب الإحسان :

الدكتور راتب:

لا شك أن أدنى مرتبة في الإحسان أن تميط الأذى عن الطريق:

((إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ))

[متفق عليه عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

إذا رأيت قشة في المسجد وضعتها في جيبك هذا إحسان، أحياناً أثناء كنس الغرفة في الشتاء، والأشعة داخل الغرفة تبدو أشياء عالقة في هواء الغرفة، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة]

فالإنسان قد يعمل عملاً سهلاً جداً؛ أن تبتسم في وجه أخيك هذه حسنة، الإحسان مستويات أدناه أن تميط الأذى عن الطريق، وأعلاه أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وكما هو معلوم هناك الإسلام: الانصياع لأوامر الله، وهناك الإيمان: التوجه إلى الله، وهناك الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

إذاً هناك مراتب متفاوتة تفاوتاً كبيراً جداً، ولكن قبل قليل قلت: إن الفطر السليمة تعرف الإحسان بفطرها، لكن النبي عليه الصلاة والسلام في حديث دقيق وخطير يقول:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً المنكر معروفاً؟))

[ورد في الأثر]

هذه حالة متدنية جداً من ضياع الأمة حينما تتبدل القيم، في الأصل الشيء الحسن تعرفه النفوس بفطرتها، والشيء القبيح تنكره النفوس بفطرتها، لكن أحياناً مع استمراء المعاصي والآثام، وشيوع الفتن، مع طروحات غريبة عن هذا الدين، مع شبهات لا تنتهي، مع ضلالات، مع باطل مزخرف مزين، عندئذ تضيع المقاييس السليمة، لذلك:

((إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

الأستاذ عدنان:

في هذه الحالة دكتور بينتم أن الإحسان والإساءة يمكن أن يكونا على درجات من الأدنى إلى الأعلى،

ولا أقصد بكلمة الأدنى أن الإحسان له حدّ أدنى أي سيئ إنما بدأ الإحسان ثم التدرج إلى العلو، لكن هذا يمكن أن يقودنا إلى مستويات الإحسان.

مستويات الإحسان :

الدكتور راتب:

الحقيقة الإحسان قد يكون عميقاً في النفس عمقاً لا حدود له، وقد يكون أثره ممتداً إلى أمد بعيد، وقد يكون أثره في رقعة واسعة جداً، وقد يكون أثره عميقاً جداً يغير كيان الإنسان كله، يمكن أن تطعم هرة، يمكن أن تطعم جائعاً، لكنك إذا أحسنت إلى إنسان فدللته على الله فتبدلت حياته، وتبدلت قيمه، وسعد بقربه من الله، نقول: هذا الإحسان، وصل إلى أعماق الإنسان، واستطاع أن يغير كل منطلقاته النظرية، وقناعاته الفكرية، ومبادئه، وقيمه، فصار إنساناً آخر، لذلك الفرق بين الإنسان المسلم والإنسان الشارد عن الله كبير جداً، حينما يغدو الفرق فقط أن تؤدى العبادات من قبل إنسان، وقد لا تؤدى من قبل إنسان، وفيما سوى العبادات الناس متشابهون، هذا ضعف كبير أصاب المسلمين، أما حينما ترى المسلم له صفات صارخة، وفاؤه، دقته، تواضعه، رحمته، أي إحسانه صارخ، لا تستنبط أنه مسلم من خلال عباداته بل من خلال معاملاته، فلذلك الإحسان قد يكون عميقاً جداً في النفس، أنت حينما تُعرّف الناس بالله تجعلهم أناساً آخرين، كان ميتاً فأحياه الله بالإيمان، كان شارداً فاهتدى، كان شقياً فسعد، كان منحرفاً فاستقام، كان مسيئاً فأحسن، هذا نوع من الإحسان حينما تصل به إلى أعماق الإنسان، حينما تعرفه على الله، وتكون أنت قدوة له، لذلك قال بعض العلماء: "من دعا إلى الله بأسلوب ومضمون سطحي غير متماسك، أو دعا إلى الله بأسلوب غير علمي وغير تربوي، لا يعد عند الله مُبلّغاً، ويقع إثم تفلته من المنهج على من دعاه بهذه الطريقة"، لكن يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت الآية: 33]

الدعوة إلى الله تتذبذب بين أقدس عمل و أتفه عمل :

لذلك أنا أقول: ليس هناك من شيء يتذبذب بين أن يكون أقدس عمل يرقى إلى صنعة الأنبياء كالدعوة إلى الله، إنها صنعة الأنبياء، و بين أن يكون أتفه عمل لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة كالدعوة إلى الله، يكون أقدس عمل إذا بذل من أجل هذه الدعوة الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، يكون أقدس عمل إذا التزم الداعية بما يقول فلن يجد المدعو مسافة بين أقواله وأفعاله، يكون أقدس عمل إذا كان قدوة لمن

يدعوهم، لذلك ليس عند الله في خلقه من هو أفضل ممن:

(دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

وليس عند الله ممن هو أسوأ ممن تاجر بالدين، لذلك يقول الإمام الشافعي: "والله لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين".

أنت حينما تحسن، ويتغلغل إحسانك إلى أعماق الإنسان، فتتبدل قيمه ومبادئه، وأنماط سلوكه، وعلاقته بأهله، وبأولاده، وبعمله، وبالناس عامة، يكون هذا الإحسان عميقاً جداً، وقد تكون دعوتك تشمل أناساً كثيرين، أنت في قلوب المئات بل في قلوب الملايين وهذا معنى قول الله عز وجل:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

[سورة النحل الآية: 120]

الدين كله أن تؤمن بالله وأن تحسن إلى خلقه :

قد تكون دعوتك قد وصلت إلى أطراف الدنيا، اتسعت رقعتها، وتعمق أثرها، وكثر المستجيبون لها، وقد تكون الدعوة إلى أنبل المبادئ ،وأكرم القيم، لذلك الإحسان واسع جداً يبدأ بأن تميط الأذى عن الطريق، وتنتهي بهداية الخلق، كلمة إحسان جامعة مانعة واسعة جداً فعل ما هو حسن، أن تبتسم للضيف، أن تتواضع لمن يراجعك وأنت موظف، أن تعالج المريض بإتقان بالغ، أن تعتذر عن قبول دعوى ليست محقة، إحسان هذا الرفض إحسان، أن تمتنع عن غش الناس، الاستقامة إحسان، الإحسان له جانب سلبي، كلمة لا، أنا ما كذبت، ما افتريت، ما غششت، كل كلمة تسبقها ما هذا الإحسان السلبي، وكل كلمة لم تسبق بما، أعطيت بذلت، منحت،نصحت، إحسان إيجابي، فالدين كله أن تؤمن بالله وأن تحسن إلى خلقه، السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال على لسانه في القرآن الكريم:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ)

[سورة مريم الآية: 31]

هذه الآية جمعت الدين كله، الدين حركة نحو خالق الأرض والسماوات، وحركة نحو الخلق، معرفة الله وطاعة له وإحسان إلى الخلق، فالإحسان كلمة واسعة جداً.

الأستاذ عدنان:

دكتور يمكن أن يأتي إنسان ويعطي فقيراً مالاً، والفقير بحاجة إلى هذا المال، لكننا إذا عدنا إلى هذا المعطي يمكن أن نجده قد اختلس هذه الأموال فهل هذا إحسان؟ وهل للإحسان شروط بالتالي؟

شروط الإحسان :

الدكتور راتب:

الحقيقة أن الإحسان لا يقبل إلا بشرطين؛ كل شرط منهما شرط لازم غير كاف، الأول: أن يكون صواباً وفق منهج الله، والثاني أن يكون خالصاً لوجه الله، فالعمل الصالح لا يقبل إلا إذا كان خالصاً ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، لذلك هناك أعمال ظاهرها إحسان لكن وسيلتها ليست مشروعاً، بأن تقيم حفلاً غنائياً ساهراً يرصد ريعه للفقراء، النهاية عمل صالح صورته الأولى ليست صالحة، لذلك أنا أنصح أخوتي المشاهدين أن العمل الصالح الذي يقرب إلى الله له شرطان أساسيان؛ وكل شرط منهما شرط لازم غير كاف، أن يكون صواباً وفق منهج الله، وأن يكون خالصاً ابتغي به وجه الله:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية: 19]

يرضى الله عن العمل الصالح إذا كان صواباً، وإذا كان خالصاً، أما هناك أعمال بمقياس البشر صالحة لكن هي عند الله ليست صالحة، فالعبرة لا أن تُحكّم العمل بمقاييسك أن تُحكّم مقياس الله عز وجل في كتابه وفي سنة نبيه بالعمل الصالح.

الأستاذ عدنان:

دكتور وأحسن كما أحسن الله إليك، هذه ناحية، الناحية الثانية: وأمرني بالصلاة و الزكاة كما بينت قبل قليل، هنا تتوضح لنا ميادين الإحسان، وأنواعه، بحيث أولاً: الصلاة وهي متعلقة بالله الخالق، ثانياً: بما يتصل بالبشر، بالإحسان، وأحسن كما أحسن الله إليك، أي أن يكون الإحسان للناس وإحسان الله عز وجل كبير وكبير، إذاً علينا أن نسلك السبيل الذي يكون على طريق الخير، وعلى طريق الخير يمكن أن يتشعب، يمكن أن يكون في ميدان الإحسان لذات الإنسان، لمن حوله، لأقاربه، لوالديه، للمجتمع كله، حتى في الكلمة يمكن أن يكون الإحسان موجوداً يمكن أن نوضح ذلك؟

أعظم أنواع الإحسان :

1 - أن يحسن الإنسان إلى نفسه :

الدكتور راتب:

أستاذ عدنان الحقيقة أعظم إحسان على الإطلاق أن تحسن إلى نفسك فتعرفها بالله، وأن تحملها على طاعته، وأن تجعلها تتقرب إلى الله بالعمل الصالح، لذلك:

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ)

[سورة الإسراء الآية: 7]

أو أنواع الإحسان أن تحسن لنفسك، لأن نفسك أمانة بين يديك:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية: 73]

وقال علماء التفسير: الأمانة نفسك التي بين جنبيك.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس الآيات: 9-10]

أعظم أنواع الإحسان أن تعرف نفسك بالله، وأن تحملها على طاعته، وأن تدفعها إلى العمل الصالح، كي تسعد بقرب الله في الدنيا والآخرة، هذا نوع كبير من أنواع الإحسان.

2 - أن يحسن الإنسان لمن كانا سبب وجوده :

ثم عليك أن تحسن لمن كانا سبب وجودك.

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء الآيات: 23]

ولكن مع الوالدين هناك فرق بين العبادة وبين الإحسان، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فالله عز وجل نعبده وفق منهجه، لكن الوالدين نحسن إليهما،

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

إذاً الإحسان الذي يلي طاعة الله عز وجل الإحسان للوالدين، وهناك تفاصيل كثيرة جداً في هذا الموضوع لها مجال آخر.

3 ـ أن يحسن لأقرب الناس إليه؛ زوجته و أولاده :

على كلٍّ بعد أن تحسن لوالديك ينبغي أن تحسن لأقرب الناس إليك، لأهلك، الله عز وجل حضّ عباده على أن يتقي الإنسان النار، وأن يقي أهله النار:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

[سورة التحريم الآية: 6]

أي:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

[سورة الطور الآية: 21]

أي كل أعمال ذريتهم إلى يوم القيامة تلحق بالآباء والأمهات، لذلك الإحسان إلى الأبناء هو أعظم أعمال الإنسان، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أفضل كسب الرجل ولده))

[أخرجه الطبراني عن أبي بردة بن نيار]

الإنسان لأنه جُبل على حبّ وجوده، وعلى حبّ سلامة وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، لكن الأخيرة وعلى حبّ استمرار وجوده، الإنسان المؤمن يستمر وجوده بأولاده، فحينما يعتني بتربيتهم، حينما يعتني بعقيدتهم، حينما يعتني بأخلاقهم، حينما يعتني بسلوكهم، عندئذٍ يكون الابن استمراراً لأبيه، فرغبة الإنسان في الاستمرار تكون عن طريق أولاده، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((أفضل كسب الرجل ولده))

[أخرجه الطبراني عن أبي بردة بن نيار]

4 ـ أن يحسن إلى الأقارب :

الآن نظام التضامن الاجتماعي أساسه الجغرافيا والنسب، فالله عز وجل أمرنا أن نعتني بالجار من خلال سنة النبي عليه الصلاة والسلام:

((أتدرون ما حق الجار؟ إذا استعان بك أعنته، وإذا استنصرك نصرته، وإذا مرض عدته، وإذا مات شيعته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته...))

[الطبراني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

لكن التضامن الثاني تضامن الأقارب، لذلك العلماء قالوا: لا تقبل زكاة مال من غني، وفي أقربائه محاويج، بل إن العطاء للقريب له أجران؛ هو صدقة وصلة في وقت واحد، لذلك أساس التكافل الاجتماعي هو أساسه نسبي، فأنا أتفقد من يلوذ بي من أقربائي، فإذا كل واحد من المسلمين تفقد أقرباءه

الضعاف، والفقراء، والمرضى، فكان هناك ضمان اجتماعي عفوي، وطبيعي، وشامل، إذاً أنت يجب أن تحسن إلى نفسك، وأن تحسن إلى والديك، وأن تحسن إلى أولادك وزوجتك، وأن تحسن إلى أقاربك.

5 - أن يحسن إلى المجتمع :

بقي بقية المجتمع.

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ))

[مسلم والترمذي وابن ماجه واللفظ له عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

أي مسلم أنت محاسب على الخطأ معه حساباً شديداً، أنت مثل أعلى، أنت إنسان تتقرب إلى الله بخدمة الخلق، كلهم عباد الله، فأنت محاسب أشد الحساب عن الإحسان إلى بقية الخلق، لذلك إسلامك الدقيق في عيادتك، وفي مكتبك الهندسي، وفي متجرك، وفي معملك، وفي حقلك، فبقدر ما تحسن إلى خلق الله جميعاً من دون استثناء، ما أحسن عبد من مسلم أو غير مسلم إلا وقع أجره على الله في الدنيا والآخرة.

هذا أوسع حديث، العمل الصالح مقبول عند الله ولو من إنسان في عقيدته خلل، لأن الخلل بعقيدته يحاسب عليه، أما عمله الصالح محفوظ له في الدنيا كحد أدنى، وإذا ابتغى به وجه الله محفوظ له في الآخرة، إذاً أنت مكلف أن تعامل كل الخلق بالإحسان، وعامل الناس كما تحب أن يعاملوك، وما من شيء يسخط الإنسان إلا حينما يكيل بمكيالين، يتمنى أن تعامل ابنته عند بيت أهل زوجها لا كما يعامل زوجة ابنه في بيته.

الأستاذ عدنان:

دكتور، هناك أشياء كثيرة يمكن أن تكون في مجال الإحسان، الإنسان عندما يجاهد نفسه ليكون على طريق الإحسان.

تعدد الطرق إلى الله عز وجل :

الدكتور راتب:

هذا إحسان، والصبر إحسان، وجهاد النفس والهوى إحسان، وبذل المال إحسان، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، مليار طريق إلى الله.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة الآية: 245]

أحياناً لا تحل المشكلة بالعدل، تحل بالإحسان.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل الآية: 90]

فأنت كما أنت مأمور أن تكون عادلاً مأمور أن تكون محسناً.

الأستاذ عدنان:

اللهم يا رب عاملنا بالإحسان إذ لو عاملنا بالعدل لسقط كثير منا، دكتور في كل الأحوال هذه الأمور من خلال الإحسان يمكن أن ندركها في كثير من الأحيان في إحسان الله عز وجل إلى خلقه، وموضوع التمويه الذي تتحدثون عنه في المجال مجال الإعجاز العلمي، والمجال في قدرة الله عز وجل ومعجزاته في خلقه يمكن أن نتبينها أيضاً في الموضوع العلمي الذي تتحدثون عنه.

الموضوع العلمي :

التمويه عند الطيور :

الدكتور راتب:

الحقيقة أمامنا طائر يسمى باتو، هذا الطائر يعيش في غابات فنزويلا، هو أحد الطيور المهرة في عالم التمويه، أرياش الطائر تشبه قشر الشجر تماماً التي حط عليها، بل تتطابقان إلى حدّ ممتع، لنقارن الآن بدقة كما هو ظاهر على الشاشة، بين أرياش الطائر وقشرة الشجرة معاً، الشجرة على اليسار والطائر على اليمين تشابه تام، هناك علامة فارقة واحدة لتمييز الطائر؛ منقاره وعيناه، إلا أن الطائر يعرف جيداً استعمال النقش الذي عليه، فعند الخطر يبدأ بالتنفيذ، يقلص نفسه بإغلاق عينيه ومنقاره، وحينئذ لا يمكن أن نميزه عن قطعة من الغصن، يوجد هنا تصميم فائق أيضاً، فرغم إغماض الطائر عينيه يرى ما حوله من خلال الفراغ الخاص بين جفون عينيه، وعند ابتعاد الخطر يترك التمثيل ويرتاح، إذاً من علم الطائر مثل هذا التمثيل؟ الحقيقة الصارخة هنا هي صنع الله الذي أتقن كل شيء دون مثال.

التمويه في البحار :

لو انتقلنا إلى البحار هناك سمكة تتقن تقنية التمويه العالية التي ألهمها الله إياها لا حدود لها، فبعض الكائنات تخفي نفسها باستخدام بعض المواد التي في بيئتها، فعلى سبيل المثال هذه السمكة الصغيرة تعمل على تجهيز مكان آمن لها لإفراغ الرمال من المحارة الفارغة، وهناك أخطبوط منا ترون يتبع

أسلوب تمويه ذكي جداً، حيث يقوم بجمع الأصداف التي حوله في مكان واحد ثم يخبئ نفسه بينها، ينتظر فريسة تبحث عن طعام لها بين هذه الأصداف.

سرطان آخر، نشاهد حركة هذا السرطان المحيرة جداً، يقطع بدقة أجزاء النبات التي اختارها من سطح البحر، إذاً ماذا ستفعل بهذا الأجزاء من النبات؟ الجواب مدهش جداً سيخفي نفسه، يضع على جسمه هذا الجزء من النبات كما يفعل المقاتلون تماماً يضعون أغصان الأشجار، يضع على جسمه هذا الجزء من النبات الذي قطعه، ويحضر لنفسه ملابس من الطحلب، وهكذا يقوم بعملة تمويه خارقة.

سرطان آخر يضع الأغصان التي قطعها بدقة على قشرة رأسه، وهكذا يمكنه الاختباء بسهولة بين النباتات، وهنا حقيقة أخرى وهي إفراز سائل لاصق ليتمكن من إلصاق هذه الأغصان عليه، أي خلقت الأنظمة في جسم الحيوان متناسبة مع فطرتها التي فطرت عليها، أما هذا السرطان الذي نراه على الشاشة يقطع إسفنجة يبدو فعله كإنسان يرتدي ثياباً ولكنه بذلك يخيط لنفسه ملابس ثم يلبسها. من علمه ذلك؟ إنها قدرة الله عز وجل:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه الآيات: 49-50]

الآن نقف في هذه النقطة وقفة متأنية فالسرطان لا يرى نفسه في المرآة ولا مرة واحدة فكيف يفتقر إلى إمكانية التخطيط والتفكير؟ هو يفتقر إلى إمكانية التخطيط والتفكير إذ من أين عرف السرطان ضرورة عمل التمويه بالنسبة له؟ إنه يستخدم التكتيك الذكي، الجندي الذي يموه نفسه تماماً بإلصاق الأغصان والأوراق عليه، من أين تعلم السرطان التمويه؟ بهذه الطريقة واضح أن هذا العمل الذي قام به هو إلهام بلا شك، القدرة التي أعطت السرطان هذه الخصائص لحماية نفسه بهذا الشكل الذكي هي قدرة الله عز وجل، الذي أوجد الكائنات كلها من عدم، فلذلك نحن نستخدم عقولنا في تحقيق مصالحنا، لكننا إذا استخدمنا عقولنا في معرفة ربنا سعدنا بقربه، وسلمنا، وانتقلت نعم الدنيا إلى نعم الآخرة، فهذا التفكير لو بذل الإنسان بعضه لحقق نتائج كبيرة جداً في حياته، لكن الإنسان أحياناً قد يستخدم تفكيره لغير ما خَلَق له ويشقى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (11-30) : الثبات
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان :

تقديم وترحيب :

الأستاذ عدنان :

الثبات : هل هذه الكلمة تعني أن يثبت الإنسان في مكانه ؟ فلا يتحرك يمنة أو يسرى ؟ هل الثبات في الأخلاق أن يبقى عليها في كل أمور الحياة ، وأن يثبت في مكانه ؟ هل هذا هو الثبات ؟ أم يمكن أن يكون من الثبات أن يتقدم الإنسان في وجوه الخير ، أن يزيد منها ، وهل هذا زيادة على الثبات ، فيمكن إذاً أن نقول : إن في الثبات في معناه أن نوضحه في مصطلح ، فما هو تعريفه الاصطلاحي ؟

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الثبات الأخلاقي :

1 – الثبات هو الدوام وعدم الزوال :

أستاذ عدنان ، الثبات هو الدوام ، والثبات عدم الزوال .

إن الإنسان إذا قام بعبادة فالبطولة أن يثبت عليها ، قام بعمل صالح البطولة أن يستمر فيه ، قام بإنفاق مالٍ البطولة أن يتابع هذا الإنفاق ، لأن قضية الثبات من نتائجها التراكم ، لو ثبت على حضور درس علم تتراكم قناعاتك إلى أن تكون عالماً ، لو ثبت على عمل صالح تتراكم وجهتك إلى الله إلى أن تكون مقرباً .

2 – الثبات بقاء في القمة بعد بلوغها :

إن الأعمال الطيبة البطولة لا أن تقوم بها مرة واحدة ، أن تتابع القيام بها ، فلذلك يعد النبي صلى الله عليه وسلم سيدَ من ثبت على مبدئه .

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركته ، هذا يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

فقضية الثبات تأتي كقضية مهمة جداً بعد الإيمان بالله ، لذلك يمكن أن نصل إلى القمة ، والطريق وعر ، ومتعب ، وفيه عقبات ، وفيه أكمات ، وفيه صوارف ، وفيه بذل جهد ، لكن البطولة ليس أن تبلغ القمة ، أن تبقى فيها ، فالإنسان وهو في القمة قد يصيبه الغرور فينزلق ، ويسقط ، ودائماً البطولة أن تصل إلى القمة ثم تبقى فيها ، أن تحقق هذا النصر ، ثم تحافظ عليه ، أن تقوم بهذا العمل ، ثم تتابعه . فلذلك الإنسان لا يتألق إلا بالثبات ، أما كومضة ، كجائحة ، أو كشيء طارئ فهذا شيء ممكن ، ومن الممكن لشاب أن يتألق دينياً شهرا أو شهرين ، لكن أدنى إغراء ، أو أدنى ضغط يخرجه عن ثباته ، نقول : هذا مقاومته هشة ، لكن الذين حققوا انتصارات كبيرة في الأرض الأبطال الكبار ، هؤلاء أعظم صفة فيهم أنهم ثبتوا على مبدئهم ، فلا تستطيع سبائك الذهب اللامعة ، ولا سياط الجلادين اللاذعة أن تصرفهم عن أهدافهم .

3 – الثبات على المبادئ بعد تغير الأحوال الدنيوية حُسْنًا أو سوءًا :

إن الذي يقود أمة ، أو يقود مجتمعاً ألزم شيء بحاجة إليه أن يكون ثابتاً على مبدئه وعلى قيمه . مثلاً : لما ينتصر الإنسان نصرا كبيرا ، ويفتح مدينة ، في 99 حالة من فاتحي المدن العظام أصابهم الكبر ، والعلو ، والعنجهية ، والغطرسة ، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما فتح مكة المكرمة دخلها مطأطأ الرأس ، كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل .

من السهل جداً أن تكون متواضعاً ، ولكن البطولة إذا بلغت قمة المجد أن تبقى متواضعاً ، ومن السهل جداً أن تكون كريماً ، ولكن إذا بلغت درجة من الفاقة أن تبقى كريماً ، فالذي يتألق به الإنسان هو الثبات ، الثبات على مبدئه ، الثبات على قيمه ، الثبات على تواضعه ، الثبات على حبه للآخرين .

أحياناً الدنيا تبدّل ، وتغير ، يكون في حال ، ثم يصبح في حال أخرى ، وهذا التبدل في الذي كان يعتقده وهو ضعيف ، ثم بالذي غيَّره بعد أن صار قوياً ، هذا يسقطه من عين الله ومن عين الناس .

لذلك كان عليه الصلاة والسلام حين وصل إلى أعلى درجات القوة ، حين دانت الجزيرة العربية من

أقصاها إلى أقصاها ، وفتح مكة ، وانتصر في حنين ، وانتهى كل شيء بقيت المغانم ، جاء أحد أصحابه يقول له :

((يا رسول الله ، إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم ، قومه الأنصار ، النبي عليه الصلاة والسلام سأل زعيم الأنصار : أين أنت من قومك يا سعد ؟ قال : ما أنا إلا من قومي ، قال : اجمع لي قومك ، جمع النبي الأنصار ، ووقف فيهم خطيباً ، وقال : يا معشر الأنصار ، أما إنكم لو قلتم فلصدقتم ، ولصدقتم به ، بماذا بدأ ؟ ذكرهم بفضلهم عليه ، أما إنكم لو قلتم فلصدقتم ، ولصدقتم به ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، وطريداً فآويناك ، ثم يقول عليه الصلاة والسلام : يا معشر الأنصار ! ألم تكونوا ضلالاً ـ ما قال فهديتكم ـ قال فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ، يا معشر الأنصار ! أوجدتم علي في أنفسكم في لعاعة من الدنيا ؟ تألفت قوماً ليسلموا ؟ ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم ، وقال لهم : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار))

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

أستاذ عدنان ، بربك هذا الموقف في أي باب يصنف في السيرة ، مع تواضعه ؟ أم مع إخلاصه ؟ أم مع وفائه ؟ أم مع حنكته ؟

4 – ضعاف الإيمان لا يصمدون أمام رياح التغيير :

لذلك الإنسان أحياناً يصيبه التبدل والتغير ، وعندئذٍ لا قيمة للمبادئ التي طرحها يوم كان ضعيفاً ، البطولة أن نثبت على مبادئنا ، وعلى عقائدنا ، وعلى قيمنا .

لذلك ضعاف الإيمان أيّ ضغط يخرجهم عن إيمانهم ، وأي إغراء يخرجهم عن إيمانهم ، وفي آخر الزمان يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسي كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، فالثباتَ الثباتَ ، وأصحاب النبي الكريم بيَّن الله لنا أنهم ثبتوا على الحق .

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

لكن ضعاف الإيمان في معركة الخندق قال أحدهم : أيَعِدنا صاحبكم ، لم يقل : رسول الله ، أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ لذلك يُكشَف الإنسان بالامتحان .

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران الآية : 179)

الله عز وجل لابد من أن يمتحن الإنسان ليعرف نفسه أنه صادق ، فهو معرَّض للابتلاء ، والله عز وجل يقول :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

الله عز وجل عنده أساليب في كشف حقيقة الإنسان لا تعد ولا تحصى ، لذلك تستطيع أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت ، ويستطيع الإنسان أن يخدع بعض الناس لكل الوقت ، أما أن يخدع الإنسان كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل ، أما أن يخدع اللهَ ثانية واحدة ، أو أن يخدع نفسه ثانية واحدة فهذا مستحيل ، والله عز وجل تولى امتحان عباده :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

أنت قل ما شئت ، لكن الله يضع هذا الإنسان في حجمه الحقيقي ، فالثبات بطولة ما بعدها بطولة ، ونحن بحاجة لمن يثبت على قناعاته ومبادئه .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، أشرتم في البداية إلى أن الثبات يجب أن يكون ضمن إرادة الله تعالى من خلال الشرع ، فلو أن إنساناً ثبت على الباطل فباطله مستمر فيه ، وهو مستمر بباطله ، هذا مرفوض ، وفي البداية بينتم هذه الناحية ، والثبات عندما يكون منطلقه أن يكون الإنسان على الحق فالله تعالى يبارك له فيه ، ويعطيه مدداً من عنده ، لذلك إذا أردنا أن نتحدث عن البواعث التي تؤدي إلى مزيد من الثبات ، فإننا نجدها عندما يكون منطلقها الائتمار بما أراد الله تعالى ، نوضح هذه الناحية .

الدكتور راتب :

الرجوع إلى الحق لا الثبات على الباطل :

قبل أن أوضحها أشرت إلى قضية مهمة جداً ، إنسان على الباطل هل يعد ثابتاً إذا بقي على الباطل ؟ لا ، هنا تأتي فضيلة أخرى اسمها الرجوع إلى الحق ، لكن أنا أتصور أن هذه الفضيلة الرائعة لا يمكن أن نجدها عند النبي الكريم ، لأنه معصوم ، فكيف نجدها ؟

قال بعض كتاب السيرة : شاءت حكمة الله أن يحجب عن النبي الموقع المناسب في موقعة بدر حجبه

عنه وحياً ، وحجبه عنه اجتهاداً ، وحجبه عنه إلهاماً ، فأمر أصحابه بمكان ليس بموقع جيد ، فجاء صحابي يكاد يذوب أدباً مع رسول الله ، قال : يا رسول الله ! هذا الموقع وحي أوحاه الله إليك ، أم هو الرأي والمشورة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : بل هو الرأي والمشورة ، فقال هذا الصحابي الجليل : والله يا رسول الله ليس بموقع ، فما كان من هذا النبي العظيم إلا أن أثنى على هذا الصحابي الجليل ، وأمر أصحابه أن يتحولوا إلى الموقع الذي اقترحه هذا الصحابي عبادة بن المنذر .

النبي الكريم أراد الله أن يظهر على يديه هذه الفضيلة ، وهي الرجوع إلى الحق ، أولاً : حجب عنه الموقع المناسب وحياً ، مع أن الوحي جاءه في موضوعات أقلّ من هذا بكثير ، وحجب عنه الموقع المناسب إلهاماً ، وحجب عنه الموقع المناسب اجتهاداً ، وجعله يظهر هذه الفضيلة ، وهي الرجوع إلى الحق .

فلذلك الإنسان المتفوق لا يتعنت ، ولا يلغي المعارضة ، وإذا أصغيت إلى من ينتقد ترقى ، وإذا منعت الذي ينتقدك أن ينتقدك لا ترقى ، لذلك الذين ينتقدون الإنسان لهم فضل عليه ، لأنهم يسعون دون أن يشعر ، ودون أن يشعروا إلى ارتفاعه .

فلذلك الثبات لا يمكن أن يكون ثباتاً على الباطل ، بل يقابل الثبات على الباطل هو الرجوع إلى الحق .

الباعث على الثبات على الحق :

1 – اتباع التفسيرات القرآنية للحوادث الدنيوية :

أكبر باعث على الثبات الله عز وجل :

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

(سورة إبراهيم الآية : 27)

أستاذ عدنان ، أنت حينما تقرأ القرآن تجد تفسيراً عميقاً ودقيقاً ورائعاً ومتناسباً ومتناسقاً للكون والحياة والإنسان ، أنت عندك حاجة فكرية قد غذيت ، وقد استجيب لها ، عندك تصور صحيح ، لماذا خلق الله الكون ؟ لماذا خلقنا في الحياة الدنيا ؟ لماذا هناك مرض ؟ لماذا هناك فقر ؟ لماذا هناك عدوان أحياناً ؟ القرآن الكريم قدم لك تفسيراً دقيقاً لكل ما يجري ، فأحد أسباب الثبات أنك تقرأ منهج الله ، وأنك تتطلع على وحي الله ، فأنت كمسلم أعطاك الله عز وجل تفسيرات دقيقة ، حتى إذا رأيت أمة ضالة ، منحرفة، معتدية ، طاغية ففي القرآن ما يفسر هذا :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية : 44)

2 – معاملة الله الحسنة للعبد بعد التوبة :

لكن هناك باعث آخر ، وأنا أعتقد أن الآخر أقوى من الأول ، وأنك حينما اصطلحت مع الله ، ورجعت إليه ، وأقبلت عليه ، وطبقت منهجه ، يأتي الإكرام الإلهي لك بمعاملة خاصة ، لك حفظ ، لك تأييد ، لك توفيق ، لك نصر ، هذه أقوى ما يثبتك على الحق .

لذلك أنا أقول ليس الفكر الديني ، ولا التصور الإسلامي ، ولا العقيدة الصحيحة وحدها تثبت ، بل إن معاملة الله لهذا المؤمن بعد أن اصطلح معه تثبته على هذا الطريق .

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

الإنسان ما الذي يثبته ؟ فكره ، وإيمانه ، ويثبته عطاء الله له ، فكيفي أن يتجلى الله على قلب المؤمن بالسكينة ، وبالرضا ، ويكفي أن يفتح بصيرته .

إن الإنسان حينما يتصل بالله يلقي الله في قلبه نوراً يريه الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية : 28)

إن الإنسان يقود مركبة في الليل ، و في الطريق منعطفات ، وفيه وادٍ سحيق ، عن يمين الطريق ، وعن يسار الطريق ، و فيه عقبات ، و فيه أكمات ، و فيه حفر ، إذا كان معه مصباح شديد يتقي الوقوع في الحفرة ، ويتقي الانزلاق في الوادي .

إن هذا النور الذي يقذف في قلب المؤمن بعد أن يتصل بالله هو الذي يعينه على السلامة والنجاة ، وعلى الثبات على طريق الحق ، وكلما ارتقى الإنسان أصبحت قيوده متوافقة مع الشرع .

((نعم العبد صيب لو لم يخاف الله لم يعصيه))

[كنز العمال ، قال السيوطي : لم نظفر به في شيء من كتب الحديث ، قال ابن حجر : إنه ظفر به لابن قتيبة لكن بغير سند]

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[الجامع الصغير عن عبد الله بن عمرو بسند ضعيف]

لإسلام أمره بالصدق ، وهو صادق ، وهو يحب أن يكون صادقاً .

لذلك أسباب الثبات صحة العقيدة ، واستقامة السلوك ، هذا الذي تفضلت به .

الأستاذ عدنان :

بالمقابل الثبات على الحق ، وقد بينتم أن الطريق إلى الحق فيه مغريات ، إنما باتجاه ما في نفس الإنسان من قوة إيمان ، وبالمقابل فيه صعوبات من خلال ما يمكن أن يكون في هذا الطريق ،

إذاً : لا بد للإنسان حتى يثبت من أمور تدفعه ، لكن يضعف هذا الثبات أحياناً .

الدكتور راتب :

الإنسان في حال الضعف لابد له من شحن إيماني :

مرة اقتنيت مصباحاً كهربائياً يشحن بالكهرباء المستمرة ، فأعجبني هذا المصباح ، ألغيت البطاريات كلياً ، لكنني أراه ضعيف الضوء فأقول : يحتاج إلى شحن .

وأنا أقول : إن المؤمن حينما يضعف ضوءه نقول له : أنت بحاجة إلى الشحن هناك شحن يومي ، الصلوات الخمس ، هناك شحن أسبوعي حضور خطبة الجمعة ، هناك شحن سنوي صيام رمضان ، هناك شحن مدى العمر الحج ، فكل هذه العبادات هي مناسبة لشحن الإنسان علمياً وروحياً ، فكلما ضعف ضوءه نقول له : هو بحاجة إلى شحن ، ولا أدل على ذلك من هذا الهاتف الجوال ، إن لم تشحنه يصمت ، وتنطفئ شاشته ، وكذلك المؤمن إن لم يشحن تنتهِ فعاليته ، ويصبح كسائر الناس ، يخاف إذا خاف الناس ، يقلق إذا قلق الناس ، يبخل إذا بخل الناس ، يتبع شهوته إذا فعلوا كذلك ، أما حينما يتصل بالله عز وجل فله مع الله شأن آخر .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

المتصل بالله له شأن خاص .

الأستاذ عدنان :

ولنا نحن المؤمنين في رسول الله أسوة حسنة ، إنه في سيرته عليه الصلاة والسلام ما يشير إلى ثباته على مبدئه ، وقد ذكرتم بعض هذه الأمور ، على كلٍ ضمن هذا الإطار ، وحتى لا نستطرد في موضوع الثبات ، ونترك جانب الموضوع الإعجازي العلمي ، وهذا يثبت الإنسان المؤمن على عقيدته ودينه ، نتابع معكم شيئاً من هذا الإعجاز العلمي إن سمحتم .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : التمويه :

1 ـ التمويه عند اليرقات :

1 – براعة التمويه عند اليرقة :

هناك كائنات أخرى ، ولا زلنا في موضوع التمويه ، هناك كائنات أخرى تخفي نفسها عن طريق صنع زي لها ، الغريب في الأمر أن بينها يرقات ، وجودها بين الحشرات التي خرجت تواً من بيوضها، هذه القطع من الفسيفساء المتحركة ليست سوى يرقة صغيرة أمنت لنفسها تمويهاً رائعاً بزيها المكون من قطع الحجر الصغيرة ، التي نسقتها على جسمها بدقة عالية كما ترون ، أزياء اليرقة ليست نموذجاً واحداً ، كما أن لها زياً من قطع الخشب الصغيرة المستقيمة صنعت لنفسها أيضاً فضفاضاً من الأوراق .

هذه الكائنات دودة صغيرة لا تملك أي عقل ، أو أي وعي ، ولا تعرف شيئاً بالنسبة للعالم الخارجي ، قد خرجت تواً من البيضة ، رغم ذلك تحمل على ظهرها هذه الثقال الكبيرة ، ترى لمَ تفعل هذا الشيء؟

2 – سقوط نظرية التطور :

المدافعون عن نظرية التطور يقفون في حيرة من أمرهم تجاه هذا السؤال ، منهم ألماني كتب في كتابه المسمى الديناصورات الهادئة تفسيرا لهذه التصرفات الذكية التي تصدرها هذه الدودة ، من الأصل في هذا الإبداع الذكي الذي أوقع الإنسان في حيرة ، أثر من ؟ هذه القمة في الإبداع التي أخذت به الدودة منذ ولادتها ، علينا أن نقبل أن هذه الأساليب كلها لا يسلكها إلا إنسان ذكر جداً للحفاظ على حياته ، فليس للدودة الاستطاعة على تخطيط غاية منشودة ، وليس صاحب هذا العقل الكائنات المنوهة ، بل هي قدرة أخرى حاكمة لها إنها الله .

هاهنا الحقيقة لا يريد التطوريون الاعتراف بها ، كل هذه الخصائص الخارقة في الكائنات خلقت من قبل الله تعالى ، فهذه آية على علمه وخبرته ، لا حدود لها .

2 ـ التمويه بالتمثيل عند الطائر الذهبي :

هناك طائر ذهبي حير الإنسان بصفاته ، بقدرته الفائقة على التمويه ، ومهارته في التمثيل ، وهناك شيء ثانٍ ، شجاعته وتضحيته ، هذا الطائر يبني عشه بين الأعشاب والمراعي ، يغطي بيوضه تماماً من نقوش في بطن الأم قبل أن تبيض ، البيضة منقوشة ، وهي في بطن الطائر الذي سيلد هذه البيضة على شكل البيئة ، التي هو فيها كما نرى على الشاشة ، شيء لا يصدق ، هذه النقوش حماية خاصة لهذه البيوض ، وتأمين لها من الأخطار ، وهكذا لا تتميز البيوض عن الأعشاب التي بينها ، وعند اقتراب الخطر من عشها من قبل طير جارح ، أو إنسان ، يقوم هذا الطائر بعملية تمثيل ، و ليس التمثيل قاصرًا على الإنسان ، هذا الطائر يمثل أيضاً ، ماذا يفعل ؟ يقوم بحركة محيرة جداً ، تنطلق من عشها ، ثم تمثل دور طائر جريح مكسور الجناح ، الغريب أن كلما اقترب منها أحد تبدأ مرة أخرى بالتمثيل ، وأن تظهر نفسها كطائر مكسور الجناح جريح .

الغريب أنه كلما أصابها هذا الخطر فعلت هذا الفعل ، فإذا ابتعد الخطر عادت إلى ما كانت عليه ، هدفها الوحيد إبعاد عين الغريب المقترب عن العش ، وإذا ابتعد الخطر بما فيه الكفاية ينتهي التمثيل ، ويعود الطائر إلى عشه .

إذاً : هذا يموه بالتمثيل ، يظهر نفسه مكسور الجناح جريحاً ، هذا الطائر يظهر تصرفا فائقا ، أن يلقي العصفور الصغير نفسه في التهلكة هذا أمر مستحيل على سلامة وجوده ، أما أن يقدم تضحية من أجل صغاره فهذا شيء مدهش ، عند الحيوان رحمة تفوق حد الخيال ، لا تفسر بأي شيء آخر .

لذلك النظرية التطورية ترفض أن يكون هناك تعقيدات في الحيوان ، والحيوان عندهم خلق صدفة ، فلِمَ هذا التعقيد في التمثيل ، أو في التضحية ؟ وفي الإيثار ؟ وفي حب الصغار ؟ كل كائن حي له هذه الصفات ، وقد أودعها الله فيه ، ولكن هذا الطائر الذهبي يفسد هذه الفرضية ، ويوضح لنا مرة أخرى أن صفاته ، وشجاعته ، وتضحيته ، وتصرفاته الذكية إلهام من الله عز وجل ، هذا معنى قوله تعالى :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه)

لابد من التفكر في مخلوقات الله :

كلما تأملنا في الطبيعة نواجه الحقائق نفسها ، فالكائنات ذات بنية معقدة في قمة التصميم تبطل زعم المصادفة في نظرية التطور ، كل كائن على حدا دليل للخلق ، لكل نوع من الكائنات خصائص فائقة يختلف بعضها عن بعض ، صاحب كل هذه المخلوقات البديعة هو الله تعالى .

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

(سورة الدخان الآية : 7)

و الله سبحانه وتعالى يقول :

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة الجاثية)

أستاذ عدنان ، كما أقول دائماً : إن أسرع طريق إلى الله التفكر في خلق لسماوات والأرض ، وقد قال الله عز وجل :

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

(سورة القدر)

هذه الآية تبنى على آية أخرى :

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

(سورة الزمر الآية : 67)

إذاً أحد أكبر معالم الإيمان أن تقدر الله حق قدره :

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

فإذا تفكرت في مخلوقات الله ، وعظمت ربك ، هذا خير من أن تعبد الله ثمانين عاماً عبادة جوفاء لا معنىً لها ، لذلك :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 28)

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أرادتهما معاً فعليك بالعلم ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطِك شيئاً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (12-30) : الخلق الحسن
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

الأستاذ عدنان :

نسمع عن فلانٍ أو فلان بأنه على خلق حسن ، لكن لا أود أن أتوقف عند هذه الصفة إلا بعد أن أطرح ما يلي :

قد يقال عن فلان بمثل هذا الكلام ، لكنه عند أناس آخرين يرونه على غير هذه الصفة ، إذ يرون فيه نوعاً من أنواع عدم الانفتاح ، وآخرون يقولون : إن الخلق الحسن أن يكون الإنسان واعياً لما حوله ، ومتعاملاً التعامل الكامل مع من حوله ، إن كانوا على جودة ، أو كانوا على غير ذلك ، هنا قد تختلف أراء الناس في الإنسان ذي الخلق الحسن ، لكن وكلامنا واضح دائماً ، نحن نقول من خلال الشرع الإيماني الإسلامي ، ترى من الناحية الاصطلاحية من هو صاحب الخلق الحسن ؟.

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الإنسانُ كائن متحرك بفعل الشهوة :

أستاذ عدنان ، الإنسان في الأصل كائن متحرك ، لماذا هو متحرك ؟ لأن الله أودع فيه الشهوات يتحرك ليأكل ، يتحرك ليعمل ، يتحرك ليتزوج ، يتحرك ليعلو ، هو كائن متحرك ، وهذه الحركة سببها أن الله أودع فيه الشهوات ، والشهوات لحكمة بالغةٍ بالغة أرادها الله سمح للإنسان أن يتحرك فيها 180 درجة ، ويأتي منهج الله ليقنن حركته بمئة درجة مثلاً ، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

مَن هو الإنسان الأخلاقي بالمنظور الشرعي ؟

من هو صاحب الخلق الحسن في المنظور الشرعي ؟ في منظور القرآن الكريم ؟ و في حقيقة هذا

الدين العظيم ؟

صاحب الخلق الحسن هو الذي يوقع حركته وفق منهج الله .

1 – الخلق الحسن كما جاء به الشرع :

فالإيمان خلُق ، يقول ابن القيم رحمه الله : " الإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان " ، والدليل : أن صحابياً جلياً شرح الإسلام لملك الحبشة بأنه خلق حسن ، قال :

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ))

أبرز صفات النبي أمانته ، وصدقه ، وعفافه ، هذه أخلاق حسنة .

((فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَالصِّيَامِ))

[أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة أم المؤمنين]

وهذا في المنظور الحديث العبادة التعاملية ، وقد يقول العلماء : " إن العبادة الشعائرية لا تقبل ، ولا تصح إلا إذا صحت العبادة التعاملية .

2 – الشرع هو مقياس المتفتح والمنغلق :

أنا دائماً عندي مقياس ، أو عندي مرجعية ، أن أتهم إنسان أنه مغلق أو منفتح ، اجتماعي أو انطوائي ، هذا التقييم الشخصي لا قيمة له إطلاقاً .

يقولون : هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند

العبرة أن تكون ذا خلق حسن بمقياس الله ، بمقياس القرآن ، بمقياس السنة ، فقد لا يروق عملك لواحد من الناس ، لا قيمة لتقيمه ، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به .

ونقول دائماً : إن الشرع هو المرجع ، فأنا صاحب خلق حسن إذا جاءت حركتي في الحياة وفق شرع الله ، أحياناً أعطي ، أحيانًا لا أعطي ، أحيانًا أغضب ، أحيانا لا أغضب ، أحيانًا أصل ، أحيانًا أقطع ، أحيانًا أتسامح ، أحيانًا لا أتسامح .

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى)

إذا غلب على ظن المقهور أن عفوه يصلح الطرف الآخر ينبغي أن يعفو ، فإذا غلب على ظنه أن عفوه سيزيده تعنفاً وانحرافاً ينبغي ألا تعفو عنه .

إذاً الخلق الحسن يوصف بمقياس الشرع ، أحياناً العطاء جيد جداً ، أحياناً العطاء لإنسان لا يستحقه ، وسينفق هذا المال في المعاصي والآثام لا يعد خلقاً حسناً ، وعند الناس سذاجة أحياناً ، أي عطاء يعد خلقاً حسناً ، لا ، المؤمن يعرف متى يعطي ، ومتى يمنع ، متى يصل ، ومتى يقطع ، متى يرضى ، ومتى يغضب ، متى يوالي ، ومتى لا يوالي .

دائماً وأبداً حينما يفهم الناس الخلق الحسن بالمقاييس الأرضية ، أو بمقاييس مستوردة ليست أصيلة في حياتنا ، ولا في ثقافتنا ، نقع في خطأ كبير .

من الخلق غير الحسن أن تقيم الناس بغير منهج الله عند الناس ، يقول لك : منفتح ، والفتاة المتفلتة اسمها متحضرة ، والذي يأكل المال الحرام اسمه ذكي ، والمنافق اسمه لبق ، فنحن لا نعتد بتقييم البشر من خلال قيم مستوردة أرضية للخلق الحسن ، الخلق الحسن يقيم من قبل خالق السماوات والأرض ، ويقيم أيضاً من خلال سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، أحياناً ، وضمن الخلق الحسن الممنهج من خلال القرآن والسنة يمكن أن يكون للإنسان عمل ما ضمن الخلق الحسن ، والتصرف الحسن ، ولكنه في ميدان إبراز قول أو نصيحة لإنسان آخر ، أن أكون على خلق حسن في معاملتي معك ، يقتضي أن أشير إلى مواطن ما أرى تبيانه بلباقة وأسلوب جميل ، وما يناسب ذلك ، وأحياناً قد أكون صريحاً إلى مستوى الفظاظة ، يمكن أن يكون هذا ، ولكنه أيضاً ضمن الأسس الكبيرة الواسعة في منهج القرآن الكريم والسنة الشريفة المطهرة ، كيف يبرز الخلق الحسن ؟

الدكتور راتب :

كيف يبرز الخلق الحسن في ساحة المعاملة ؟

1 – لابد للخلق الحسن أن يكون مرتبطاً بالحكمة :

هنا نضيف إلى الخلق الحسن الحكمة ، فليس بحيكم من لا يداري من لا بد من مداراته ، ليس بحكيم من أعطى في موطن المنع ، ومن منع في موطن العطاء ، الحكمة أن تفعل ما ينبغي مع من ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي ، وبالطريقة التي تنبغي ، هنا ندخل الحكمة إلى الخلق الحسن .

لذلك الإنسان أحياناً لا يعفو ، والنبي مرة لم يعفُ عن إنسان لأنه عفا عنه أول مرة ، وبالغ في إيذاء أصحابه وقتلهم ، المرة الثانية لم يعفُ عنه ، فالخلق الحسن يرتبط بالحكمة .

لذلك من حدث الناس بالحكمة ، وليسوا أهلاً لها فقد ضيع قيمتها ، ومن منعها أهلها فقد ظلمهم ، لذلك من أمر بمعرف فليكن أمره بمعروف .

2 – الفضيلة وسطٌ بين طرفين :

على كلٍ ، بشكل عام التطرف سهل ، والتهور نقيصة ، والجبن نقيصة ، والشجاعة بينهما ، و إتلاف المال نقيصة ، والبخل نقيصة ، والكرم بينهما .

لذلك قالوا : الفضيلة وسط بين طرفين ، ودائماً وأبداً التطرف سهل .

مثلاً : على مستوى التربية سهل جداً أن يضرب الأب ابنه ضرباً مبرحاً لذنب صغير ، وسهل جداً أيضاً أن يسيب أخلاقه بلا رادع ، وبلا توجيه ، ولكن البطولة أن يكون الطفل مع أبيه محباً له إلى درجة عجيبة ، ويخاف منه إلى درجة عجيبة ، أن يجمع بين الرهبة والرغبة ، دائماً المواقف المتوسطة المعتدلة صعبة ، تحتاج إلى مهارة ، بينما التطرف سهل جداً ، سهل أن تكون متطرفاً يمنة أو يسرة ، أما أن تكون وسطياً معتدلاً فهذا الذي ذكره الله عز وجل عن أنبيائه :

(وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً)

(سورة الأنبياء الآية : 90)

الأستاذ عدنان :

دكتور ، ممكن أن يقول إنسان : إذا تعددت هذه الأمور من خلال ما وضحتم ، قد يحتار الإنسان كيف يكون على الخلق الحسن ، أنا مثلاً أود أن أجعل نفسي على طريق الخلق الحسن ، فما هي الخطوات ؟

وكيف أبدأ ؟ وما هو المنهج ؟.

الدكتور راتب :

الخطوات العملية في ميدان الخلق الحسن :

أنا أريد أن أبين حقيقة قد تغيب عن الإخوة المشاهدين ، وهي : أنك إذا أردت أن تجري فحصاً لقيادة المركبة ، أنا فيما أعلم يمتحن بالطريقة التالية : يكلف أن يرجع بها إلى الوراء ، وعلى طريق ضيق يكاد يساوي عرض المركبة ، وهناك قطع من البلاستيك إذا مس واحدا منها رسب ، لماذا فحص هكذا؟ لأن أصعب شيء في القيادة أن ترجع إلى الوراء ، وعلى طريق ضيق ، وأن تنجح في هذا الامتحان أمرٌ صعب .

1 – البيت :

لذلك الإنسان تظهر حقيقته تماماً في بيته ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((خيرُكم خيرُكُم لأهْلِهِ ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي))

[أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها]

الإنسان خارج بيته من مصلحته أن يكون أنيقاً ، من مصلحته المادية أن يكون لبقاً ، أن يعتذر ، أن يبتسم ، أن يجمِّل صورته ، أن يختار الكلمات اللطيفة ، هذا كله بالتعبير المعاصر (بزنز)، ومصلحة ، لكن الإنسان ينكشف على حقيقته في البيت ، حيث لا رادع ، ولا رقيب ، ولا محاسب ، أنت ذو خلق حسن بقدر ما أنت أخلاقي في بيتك .

((خيرُكم خيرُكُم لأهْلِهِ ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي))

فالمرآة ما أكرمها إلا كريم ، ولا أهانها إلا لئيم ، النساء يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً ، من أن أكون لئيماً غالباً .

فأنا أرى أن الخلق الحسن يبدأ من البيت ، وهذا البيت جنة المؤمن ، والمؤمن كل كمالاته تظهر في بيته ، وأنا أعجب كثيراً بالتماسك الأسري ، حينما يكون الأب مؤمناً ومحسنًا ، وزوجا صادقا ، والمرأة مخلصة ، والأولاد ربوا في هذا الجو الرائع ، هذا هو الخلق الحسن .

2 – خارج البيت :

الآن خارج المنزل أغلب الظن من كان أخلاقياً في بيته هو أخلاقي خارج المنزل ، أما العكس فمنتشر جداً بين الناس ، في أعلى في درجات النعومة خارج البيت ، فإذا دخل إلى البيت فهو كالوحش الكاسر، هذا شيء مرفوض ، والنبي الكريم بيّن أن الخلق الحسن يبدأ من بيت الإنسان ، من أقرب الناس إليه ، من زوجته .

أخلاق المصلحة لا قيمة لها :

إذاً : قضية الخلق الحسن لها أسباب ، وسوف أصل إليها ، والسبب الذي يأتي بالنتيجة أنا أعتقد والله أعلم إن كنت مصيباً فمن فضل الله ، وإن لم أكن فمن تقصيري ، أنا أعتقد أن الذي يتصل بالله اتصالاً صحيحاً يشتق منه العدل ، والإنصاف ، والرحمة ، والحكمة ، والكرم ، أنا لا أصدق أن قيمة أخلاقية عالية جداً تكون بعيدة عن الدين ، أما الذين هم أذكياء جداً ، ويتصرفون بذكاء ، وكأنهم أخلاقيون ، حينما تمس مصالحهم يصبحون كالوحوش كما نرى .

فلذلك هناك أخلاق أساسها الذكاء والمصلحة ، لكن هؤلاء يمتحنون ، فإذا امتحنوا ، وجاء من مس مصالحهم يصبحون كالوحوش تماماً ، لا قيمة لهذا الخلق الذي أساسه الذكاء وطلب الربح ، أما الخلق الأصيل فهو الخلق الذي يتأتى من اتصال الإنسان بربه ، هذا خلق ثابت ، لا يتبدل ، ولا يتغير ، لا يتأثر ، لا بالمصالح ، ولا بإقبال الدنيا ، ولا بإدبارها ، لا يتأثر لا بالمكاسب ، ولا بالعقبات ، ولا بالصوارف .

الصحابة الكرام كانوا أخلاقيون من هذا النوع ، لذلك حينما فتحت القدس من قبل الفرنجة ذُبح سبعون ألفا ، أما حينما فتحها صلاح الدين فلم يرق قطرة دم واحدة ، فالمؤمن عنده كمال داخلي .

الخلق الحسن صورة الإنسان من الداخل :

أستاذ عدنان ، بشكل أو بآخر لي كلمة دقيقة : الخلق الحسن صورة الإنسان من الداخل ، أنا لي صورة من الخارج ، هذا الإنسان له طول معين ، له شكل وجه معين ، له لو جلد معين ، له أناقة معينة ، هذه الصورة من الخارج ، أما الخلق الحسن فصورته من الداخل ، أدبه ، تواضعه ، رحمته ، قلبه الذي يشع رحمة ، حلمه ، خيره ، كرمه ، الخلق الحسن صورة الإنسان من الداخل ، وأكاد أقول : إن أول ثمرة من ثمار الإيمان الخلق الحسن وإن أولى صفات الأنبياء :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

فالإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان .

أستاذ عدنان ، جزاك الله خيراً ، النبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصحابه في سفر ، أرادوا أن يعالجوا شاة ، قال أحدهم :

((عليّ ذبحها يا رسول الله ، فقال الثاني : عليّ سلخها ، وقال الثالث : وعليّ طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام : وعليّ جمع الحطب فقالوا : نكفيك ذلك يا رسول الله ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

هكذا كان عليه الصلاة والسلام .

كان مع أصحابه رواحل قليلة ، والأصحاب كثير ، وهو قائد ، قائد الجيش وزعيم الأمة ، ونبي الأمة ، وسيد الأنبياء والمرسلين ، فقال : كل ثلاثة على حدة ، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة ، سوى نفسه مع كل أصحابه ، أو جعل نفسه جندياً في هذا الجيش ، فركب الناقة في نوبته الأولى ، فلما جاء دوره في المشي ، توسلا صاحباه أن يبقى راكباً ، فقال قولة والله لو أرددها آلاف المرات لا أشبع منها ، قال:

((ما أنتما بأقوى مني على السير ، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر))

[أحمد]

دخل عليه أعرابي ، نظر إلى المجلس قال : أيكم محمد ؟ ما له كرسي خاص ؟ لم يتميز على أصحابه أبداً ، لذلك هؤلاء الأصحاب الذين افتدوه بأرواحهم هم الرابحون ، الإنسان قوي بكماله .

وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

مع أنك نبي ، مع أنك رسول ، مع أنك أوتيت الوحي ، مع أنك أوتيت القرآن مع أنك أوتيت الفصاحة ، مع أنك أوتيت البيان ، مع كل هذه الخصائص :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

نأتي إنسانا يدعو إلى الله ، لا معه وحي ، ولا قرآن ، ولا معجزات ، ولا بيان ولا جمال ، ولا فصاحة، ويدعو الناس إلى الله بغلظة ، لِمَ الغلظة يا أخي ؟

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

أخلاق الدعوة وأخلاق الجهاد :

فلذلك هناك أخلاق الدعاة ، قال تعالى :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

وقد يخلط الناس بين أخلاق الدعاة ، وأخلاق الجهاد .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

(سورة التوبة الآية : 73)

تلك في الجهاد ، في ساحة المعركة فقط ، ساحة المعركة هكذا أخلاقها ، فلذلك الخلق الحسن صورة الإنسان من الداخل ، ويمكن أن نضغطها بأن كل شيء جاءك من الله تتلقاه بالشكر ، وأن كل شيء أديته لله تعتذر عنه ، لأنه لا يليق بمقام الله ، وأنك مع الناس تكف عنهم الأذى ، وتبذل له المعروف .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، أحياناً كما يقال : ينضح الإناء بما فيه ، فلان من الناس في طويته أنه سهل المعشر ، سهل الحديث ، متواضع ، وهو مع الآخرين كذلك ، في بيته وخارج بيته ، لكننا نشهد في بعض الأحيان إنساناً آخر في الصفات نفسها ، ولكنه لا يتراجع عن مبادئه الأساسية الممنهجة ضمن شرع الله ، أما الأول فيمكن أن يتراجع من خلال ضعف في شخصيته ، فكيف نحكم موضوع حسن الخلق في هذا الأمر ؟.

الدكتور راتب :

لا مجال للمساومة في المبادئ والقيم ، لكن عليكم بالمداراة :

في موضوع المبادئ والقيم لا مجال للمساومة ، ولا للمسايرة ، ولا لأنصاف الحلول ، أما في موضوع التعامل العادي فلك أن تتسامح ، لذلك هنا نفرق بين المداهنة ، والمداراة ، المداهنة بذل الدين من أجل الدنيا ، بينما المداراة بذل الدنيا من أجل الدين .

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

(سورة القلم)

المؤمن الصادق لا يداهن في مبادئه وقيمه ، لكنه يداري الناس ، يبذل لهم من الدنيا ما شاء ، فالمؤمن يداري ، ولا يداهن ، بينما غير المؤمن يداهن ولا يداري .

الأستاذ عدنان :

ومن إعجاز الله تعالى أن خَلَق في ميدان آخر ضمن الإعجاز العلمي الذي ستحدثنا عنه بإذن الله تعالى من الحيوانات ما يمكن أن تداري أمورها لندرك عظيم خلق الله تعالى .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : طائر البطريق :

1 – أين يعيش البطريق ؟

هناك طائر يعيش في أبرد منطقة في العالم ، يبقى الشتاء هنا في المنطقة القطبية ستة أشهر ، تربية صغير في بيئة صعبة كهذه تحتاج إلى تضحية كبيرة جداً ، الحقيقة سوف نرى كيف أن هذا طائر البطريق يعيش ، ويعد من أكثر المضحين من أجل أولاده ، قد نجد إنسانا يقسو على الصغار ، وسوف نجد هذا الطائر البطريق يعطف على صغاره عطفاً لا حدود لها .

2 – رحلة البطريق :

هذه البطارقة تقوم برحلة إلى مكان الذي سيتحقق فيها اللقاء الكبير ، إنما أن تزحف على بطنها ، وإما أنها تمشي على قدميها ، تمشي أحياناً 100 كم ، وتمشي جميعاً إلى الجهة نفسها بشكل معجز ، في نهاية هذه الرحلة ستلتقي آلاف البطارقة في مكان معين بشكل محير ، في منطقة حرارتها 60 تحت الصفر ، ورياحها 100 كم بالساعة ، هناك لقاء كبير في هذه المنطقة ، هذه الرحلة الشاقة هي بداية المصاعب التي تواجهها ، والتضحيات التي تقوم بها ، لأجل صغرها ، والصعوبة الأساسية تبدأ بعد وضع الأنثى بيضها .

3 – مهمة الذكر حضانة البيض :

البطريق هناك أنثى البطريق ، وهناك ذكر البطريق ، الأنثى تضع البيض ، هذه البيضة ماذا يفعل بها الذكر ؟ بعد أن تضع الأنثى بيضها لفترة قصيرة يهجم الشتاء ، الحرارة في أشهر الشتاء تنخفض إلى الخمسين أو الستين تحت الصفر ، وتهب الرياح حاملة معها الثلج والبرد بسرعة 100 كم في الساعة .

الآن تترك الإناث البيض عند الذكور ، وتعود إلى البحر ، الإناث تضع البيض في هذا التجمع الكبير ،

وتنطلق إلى البحر ، وتوكل مهمة حضن البيضة للذكور ، تحمل ذكور البطريق البيوض على قدميها ، البطريق واقف ، يحمل على قدميه البيضة ، ويبقى واقفاً أربعة أشهر ، دون أن يأكل ، ودون أن يشرب، حفاظاً على البيضة ، لأنها إذا لامست الثلج ماتت .

ما أروعها من رحمة !!!

ما هذه الرحمة ؟! بطريك أعجم لا يعقل ، يضع بيضة على قدميه ، ويغطيها بفروه ، ويبقى واقفاً من دون طعام وشراب أربعة أشهر ، وفي حوصلته غذاء هو في أمس الحاجة إليه من أجل أن هذه البيضة تنشق عن صوص صغير يلقمه الوجبة الغذائية الأولى .

شيء يكاد لا يصدق من رحمة الحيوان بصغاره ، وقد ترى أناساً من بني البشر يهملون أولادهم ، هم يجتمعون مع بعضهم بعضاً كي لا يتأثروا بالبرد الشديد ، وكل بطريق ذكر على قدميه البيضة التي يحفظها أربعة أشهر من دون أن تمس الثلج ، فإذا مست الثلج ماتت ، فيغطيها بفروه والبيضة على قدميه ، ويمشي مشياً متئداً لئلا تقع البيضة ، ما هذه الرحمة التي أودعها الله بالبطريك ؟ إلى أن يأتي فصل الربيع .

4 – مهمة الذكر إطعام الصغير بعد فقسه للبيضة :

وفي فصل الربيع يخف الثلج وينحسر ، وتظهر الأزهار عندئذٍ هذه البيضة تنشق عن بطريك صغير ، أول عمل يفعله البطريق الأب أنه يعطي المولود الجديد الغذاء الذي هيأه في حوصلته لهذا المولود الجديد ، وبعد هذا يبقى البطريق الصغير على قدمي أبيه إلى أن يقوى عوده قليلاً ، ثم يمشي كما يمشي أبوه .

5 – مهمة الأنثى جمعُ الطعام :

لكن الأم في هذه الفترة في البحر ، ترجع من البحر إلى هذا التجمع الكبير ، هي جمعت غذاء ، وأتعبت زوجها بتربية هذه البيضة لمدة أربعة أشهر ، الآن جاء دورها في العناية بهذا المولود الجديد ، والذكر يعود إلى البحر ليستجم قليلاً ، وليأكل ، وليملأ حوصلته من ما في البحر من طعام .

هذا درسٌ للإنسان :

إنها آية من آيات الله الدالة على عظمته ترينا كيف أن الله أودع في قلوب الحيوانات هذه الرحمة ، فإذا قسا الإنسان فالمشكلة كبيرة جداً ، إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي الراحمون يرحمهم الله ، ولا شيء يؤلم الإنسان كأن تجد طفلاً يعذب ، طفل مريض ، طفل يُقتل ، أما الحيوانات العجماوات التي لا تعرف شيئاً من الحق ، أودع الله في قلوب أمهاتها هذه الرحمة ، أن يبقى طائر واقفاً أربعة أشهر ، وعلى قدميه بيضة يخشى أن تمس الثلج ، ولا يأكل ، ولا يشرب إطلاقاً ، وهو في مكان الحرارة فيه خمسون تحت الصفر ، إلى ستين ، وفيه رياح عاتية شديدة تحمل الثلج سرعتها مئة كم بالساعة ، والبيضة تبقى هي هي ؟! هذا من آيات الله الدالة على عظمته ، وهذا درس بليغ جداً للإنسان الذي يهمل تربية أولاده ، فإذا كان المخلوق البهيم بهذه الرحمة فما بال الإنسان ؟!

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (13-30) : التعاون
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :
التعاون عنوان عريض لحياة واسعة عريضة أيضاً في كل المجتمعات ، والتعاون لا يمكن أن يستغني عنه الإنسان بالنسبة لأخيه الإنسان ، ترى هل كان في هذا الاتجاه توجيه وتكليف من الله تعالى للإنسان بأن يكون متعاوناً مع أخيه الإنسان ؟.

منهج الدين منهج كامل :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ عدنان ، يتوهم معظم المسلمون أن الدين هو العبادات الشعائرية ليس غير مع أن الحقيقة الدين منهج كامل ، يبدأ مع الإنسان من فراش النوم إلى العلاقات الدولية لذلك يقول العلماء : كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك ، هناك أمر تهديد .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

هناك أمر إباحة :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

(سورة البقرة الآية : 187)

هناك أمر ندب :

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

(سورة النور الآية : 32)

لكن ما لم تقم قرينة على خلاف الوجوب ، كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، منهج الله منهج كامل ، فالذي يقرأ القرآن ، والذي يقرأ سنة النبي العدنان الصحيحة ، أي نص فيه فعل أمر ، أو معنى

الأمر يجب أن يطبقه .

التقوى صلاح الآخرة والبر صلاح الدنيا :

موضوع التعاون الأصل فيه أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة)

فهناك أمر ، وهناك نهي ، الأمر يقتضي شيئين ، التعاون على البر صلاح الدنيا والتعاون على التقوى صلاح الآخرة ، فينبغي أن يتعاون المؤمنون على صلاح دنياهم وعلى صلاح دينهم ، ينبغي أن ننصح، ينبغي أن نبين ، ينبغي أن نحبب الناس بالدين ، ينبغي أن نتعاون معهم كي يطبقوا شعائر هذا الدين ، ينبغي أن نقنعهم بأفضلية الدين ، ينبغي أن نأتيهم بالأمثال ، بالأدلة ، بالشواهد ، بالبراهين ، ينبغي أن نعزز الحق ، كل هذه النشاطات العلمية والدعوية تحت قوله تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

فالتقوى صلاح الآخرة والبر صلاح الدنيا ، ينبغي أن نتعاون في حل مشكلات الشباب ، ينبغي أن نتعاون لتأمين فرص العمل ، ينبغي أن نتعاون لإيجاد المساكن ، ينبغي أن نتعاون لحل مشكلات الفقراء.

على المسلمين أن يتعاونوا على صلاح دنياهم و آخرتهم :

الأمر الإلهي العظيم في هذه الآية :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

أي ينبغي أن نتعاون على صلاح دنيانا وعلى صلاح أخرتنا ، وينهانا القرآن الكريم عن أن نتعاون على ما فيه الفساد ،

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ)

الإثم مطلق المعصية

(وَالْعُدْوَانِ)

أن ينتقل الفعل إلى الآخرين ، الإنسان قد يكون فاسداً ، ثم قد يكون مفسداً ، قد يكون ظالماً لنفسه ، وقد يكون ظالماً لغيره ،

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

فهذه الآية أصل في موضوع التعاون ، والتعاون فريضة محكمة ، نحن أكثر مشكلة يعيشها الناس أنهم يتوهمون أن الدين أن تصلي ، هناك أوامر لا تعد ولا تحصى في القرآن والسنة تقتضي الوجوب ، الدين منهج كامل ، والحقيقة أن ثمار الدين لا تقطف إلا إذا أديت كاملة .

تماماً كالسيارة ، عندك محرك ، هذا ليس سيارة ، عندك عجلات ، هذه ليست سيارة ، لا بد من أن يكون الهيكل ، والعجلات ، والمحرك ، والوقود ، والفرش ، والكهرباء ما لم تستكمل السيارة خصائصها لا تسمى سيارة .

الأستاذ عدنان :

ممكن أحياناً أن نرى إنساناً يتعاون مع أخيه الإنسان ، ويمكن بالمقابل أن نرى من ينفر من التعاون ، ترى ما هو السبب ؟.

التناقض بين الطبع و التكليف :

الدكتور راتب :

والله هناك تعليل عميق : الإنسان عنده طبع ، خصائص جسمه ، وعنده تكليف ولحكمة بالغةٍ بالغة يتناقض الطبع مع التكليف ، فبينما يحتاج الجسم إلى الراحة يأتي التكليف أن تستيقظ كي تصلي الفجر ، فالجسم يميل إلى الراحة ، بينما يميل الإنسان كلاً إلى أخذ المال ، التكليف أن ينفقه ، يميل الإنسان إلى أن يخوض في فضائح الناس ، والتكليف أن يستر ، يميل الإنسان أن يملأ عينيه من محاسن النساء ، والتكليف أن يغض بصره عن أية امرأة لا تحل له .

إذاً هناك تناقض بين الطبع والتكليف ، وجئت بهذا المثل كمقدمة ، الطبع فردي جبلة الإنسان طبعه ، والطبع أقرب إلى الجسم ، والفطرة أقرب إلى النفس ، فطرة وطبع الفطرة أقرب إلى النفس ، لكن الطبع أقرب إلى الجسم .

ارتباط التعاون بطاعة الله عز وجل :

لذلك الإنسان في طبعه فردي ، والتعاون تكليف ، فالإنسان بقدر طاعته لله يتعاون مع أخيه الإنسان ، وبقدر بعده عن الله يتنافس مع أخيه الإنسان ، فأنت إن رأيت إنساناً مؤمناً ، ملتزماً ، مطبقاً ، خاضعاً لمنهج الله ، من لوازم هذا الخضوع أن يتعاون مع أخيه الإنسان ، وإن رأيت إنساناً فردياً يبني مجده على أنقاض الآخرين ، هذا دليل قاطع على أنه مع الله في جفاء ، وفي بعد كبير ، من لوازم الإيمان التعاون ، من لوازم البعد عن الله التنافس ، هذه نقطة مهمة جداً في موضوع التعاون ، التعاون مرتبط

بطاعة الله عز وجل لا تجد مؤمناً إلا متعاوناً ، ولا تجد إنساناً شرد عن الله عز وجل إلا وتجده أنانياً ، يريد أن يحيا وحده ، أن يستمتع بالحياة وحده ، لا يحمل هم المسلمين إطلاقاً .

الأستاذ عدنان :

يمكن أن يكون الإنسان في حياته إمكانات ، وطاقات ذاتية متقدمة ، يظن أنه من خلال هذه الإمكانات أنه يستغني بها عن الآخرين ، ترى هل يستطيع الإنسان فعلاً أن يستغني عن الآخرين بما عنده من طاقات ، أو إمكانات ؟.

الاجتماع ضروري بحياة كل إنسان :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان ، فيما أتصور أن الله جل جلاله أرادنا أن نجتمع مع بعضنا بعضاً بل قهرنا على أن نجتمع ، الدليل أن الإنسان يمكن أحياناً أن يتقن عملاً واحداً ، وهو بحاجة إلى آلاف الحاجات ، أنت تتقن مثلاً أن تلقي درساً ، لكنك بحاجة إلى خياط ، إلى حلاق ، إلى قصاب ، إلى تاجر ، إلى أستاذ جامعي لابنك ، أنت بحاجة إلى مليار حاجة ، وقد مكنك الله من حاجة واحدة ، وقد تُمكن من حاجتين ، فأنت لن تستطيع أن تعيش وحدك ، فكأن الله أرادنا أن نجتمع ، بل قهرنا على الاجتماع ، لأن كل واحد منا مفتقر إلى إخوانه .

لذلك في بعض الآيات :

(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)

(سورة الأنعام الآية : 165)

أوضح هذا المثل : أنه قد يكون هناك طبيب قلب ، وفي إنسان آخر يشعر بضيق في صدره ، يقلق على صحته ، يأتي هذا الطبيب ، هو قلق جداً ، وخاضع جداً ، ومستسلم جداً لهذا الطبيب ، يسأله أحتاج إلى عملية قلب مفتوح ؟ أم تعالج هذه بالأدوية ؟ هل أحتاج إلى إضافة شريان ؟ إلى قسطرة ؟ إلى ؟ إلى؟ هذا الإنسان المريض بحاجة إلى هذا الطبيب ، الطبيب نفسه يشعر بالمحرك بصوت غير طبيعي ، يأخذ مركبته إلى من يعمل بإصلاح السيارات ، يقف الطبيب أمام مصلح المركبات بأدب جم ، هل هذا المحرك سليم ؟ أم يحتاج إلى تبديل ؟ فكان الطبيب أولاً في موضوع ، ثم صار مصلح المركبات أولاً في موضوع فكل إنسان بحاجة إلى أخيه الإنسان ، وما في إنسان يستغني عن أخيه الإنسان .

امتحان كل إنسان من خلال التعاون :

الله قهرنا أن نجتمع ، وكأنه أراد من هذا الاجتماع أن يمتحننا ، أنت بهذا التعاون ، أو أنت بهذه المصالح المشتركة هل تصدق أم تكذب ؟ هل تخلص أم لا تخلص ؟ هل تؤذي أم تنفع ؟

فهنا جوهر الموضوع ، أنت من خلال حاجتك إلى أخيك الإنسان يمتحنك الله هل تنصحه أم تغشه ؟ هل تفي بوعدك أم لا تفي ؟ هل ترحمه أم تقسو عليه ؟ هل تستغله أم لا تستغله ؟ فالله أرادنا أن نجتمع ، وقهرنا على أن نجتمع ، وجعل اجتماعنا عن طريق أننا نتقن حاجة واحدة ، بينما نحتاج إلى مليون حاجة ، إذاً لا بد من التعاون فيما بيننا ، من خلال هذا التعاون يمتحن الإنسان .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، في حياته كما بينتم هو بحاجة لأخيه الإنسان ، بالتالي التعاون قائم لا محالة بين الناس ، وتستطيع المجتمعات كلها من خلال التعاون أن ترقى ، والرقي يرتبط بالتعاون فعلاً ، لكن في دور الإيمان ، في دور الإنسان المؤمن ، هل يزيده التعاون درجة على غيره ؟.

التعاون دين و حكمة و رحمة :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان ، أولاً قد نهتدي إلى الكمال بعقولنا ، وقد يأتينا بوحي السماء ، المجتمعات القوية الآن متعاونة جداً ، بل إنهم يعلمون أولادهم التعاون في سن مبكرة ، بل إن كل الألعاب التي يمارسها أولادهم أساسها التعاون ، لذلك تجد المجتمعات القوية متعاونة إلى أقصى الحدود ، بينما تجد مجتمعات مختلفة متنافسة ، أنا أتكلم مع الحرقة ، أي أعداؤنا على 5% من قواسم مشتركة فيما بينهم ، بينما الشعوب الأخرى تتقاتل وبينها 95 % قواسم مشتركة ، فالتعاون فضيلة ، والتعاون رقي ، أولاً التعاون دين ، تنفيذ لأمر الله ، ثانياً التعاون حكمة ، التعاون رحمة ، التعاون قوة .

((يَدُ اللهِ مع الجماعةِ))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس]

((ومن شَذَّ شَذَّ إلى النار))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

أولاً دين ، وقرب من الله ، ومحبة وحضارة ، ورقي ، وقوة .

العمل الذكي يلتقي مع العمل العبادي في النتائج ويختلف عنه في البواعث :

لذلك : التعاون قد نصل إلى جدواه بعقولنا كالعالم الغربي ، وقد نصل إليه بطاعة لله كالمسلمين ، لكن أحياناً العمل العبادي يلتقي مع العمل الذكي في النتائج ، ويختلف عنه في البواعث ، يعني المؤمن حينما يتعاون يعبد الله في هذا التعاون ، له الدنيا وله الآخرة ، بينما غير المؤمن يتعاون بذكائه ، يُحصّل من الدنيا الشيء الكثير ، أخذ نصيبه من الدنيا ، لكن العمل الذكي يلتقي مع العمل العبادي في النتائج ، ويختلف عنه في البواعث .

فالتعاون من زاوية دينية طاعة لله ، من زاوية دينية إقبال عليه ، من زاوية دينية محبة للخلق ، ومن زاوية حضارية التعاون قوة .

لذلك هناك مصطلح عند الغربيين اسمه فريق العمل ، الآن عندما يعلنون عن طلب وظيفة يضعون الشروط ، والأعمار ، والشهادات ، والخبرات ، وفي بند مهم جداً أن يصلح للعمل ضمن فريق ، يعني يتعاون .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، الدعوة إلى الله تعالى ، فلان يود أن يظهر إعجاز الله تعالى كما تظهرونه أنتم في هذه البرنامج ، ألا يحتاج إلى مواد علمية ؟ والمواد العلمية لا تأتي هكذا لابد من عالم يتابعها ، ميدان أثر التعاون في الدعوة إلى الله تعالى ؟.

أثر التعاون في الدعوة إلى الله تعالى :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان ، أنا أعتقد ، وأرجو أن أكون على صواب ، أن الدعاة إلى الله نوعان ، دعاة إلى الذات بدعوة مغلفة بدعوة إلى الله ، ودعاة إلى الله مخلصون ، الدعاة إلى الذات يبتدعون ولا يتبعون ، يتنافسون ولا يتعاونون ، يلغون الطرف الآخر ، أما الدعاة إلى الله الصادقون يتبعون ولا يبتدعون ، يتعاونون ولا يتنافسون ، يعترفون بالطرف الآخر فلذلك لا تجد داعية خالصاً يعمل بإخلاص شديد إلا ومن سمات دعوته إتباع ، إتباع الكتاب والسنة ، ثم التعاون مع زملائه الدعاة ، ثم الاعتراف بفضلهم .

***

الموضوع العلمي :

الأستاذ عدنان :

يا سيدي ، حتى في ميدان الطير نجد أن أكثر أنواع الطير هي عبارة عن جماعات ، وهي بالتالي متعاونة ، فكل ما في الحياة يعني التعاون ، ومن إعجازات خلق الله تعالى ما نتبينه معكم من خلال الموضوع العلمي الذي نتابعه بإذن الله .

الطائر من الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل :

الدكتور راتب :

إن شاء الله ، الحقيقة من الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل هذا الطائر ، بل إن أعظم طائرة صنعها الإنسان حتى الآن لا ترقى إلى مستوى الطائر .

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

(سورة الملك الآية : 19)

أستاذ عدنان ، ربما كان الحمام أكثر الطيور التي تقابلها الناس في حياتهم اليومية ، فعندما نراقب عن كثب الكائنات الصغيرة التي لا تشد انتباه أحد تظهر لنا معجزة وأي معجزة ، إنها معجزة الطيران .

معجزة الطيران عند الطيور :

لكي نرى هذه الحقيقة فلندقق في كيفية إقلاع من الأرض إلى الهواء ، ولنشهد هندسية تصاميمه الهندسية ، تقفز الحمامة أولاً باتجاه الأعلى لحظة انفصالها عن الأرض ، وترفع جناحيها ثم تميل إلى الأمام قليلاً ، وتعلو بحيث تستطيع التقدم في الجو ، أما الطيور التي هي أكبر من الحمام فإنها لا تستطيع فعل هذه الحركة الصعبة أكثر من مرتين .

وإذا كان الطائر كبيراً كالباتروس فلا يستطيع فعل هذه الحركة أبداً ، لذلك كان لها تقنيات إقلاع مختلفة، فعلى سبيل المثال : الإقلاع تدريجياً في ميدان طويل ، وهذه الطريقة التي يستخدمها الناس في الطائرة تماماً ، اللحظة الأولى من الإقلاع هي أصعب مرحلة بالنسبة إلى عامة الطيور ، ثم تحلق بسهولة تامة في الفضاء ، كما أن الطائرة أصعب شيء في قيادتها الإقلاع والهبوط .

ما الذي يؤمن للطائر تعلقه في الجو ، الآن سؤال ، ما الذي يؤمن للطائر تعلقه بالجو بعد إقلاعه أول مرة ؟ الجواب : يمكن في التصميم الهندسي الكامل الموجود تحت جناحي الطائر ، فالقسم الخلفي لجناح الطائر ينثني للأسفل قليلاً ، يصدم الهواء المار من أسفل الجناح بهذا الانثناء ، فيضغط ، ولهذا يرتفع

الطائر باتجاه الأعلى ، أما الهواء المار من القسم الأعلى للجناح فيدفع القسم الأمامي في الجناح للأعلى، ويقلّ ضغط الهواء الذي فوق الجناح ، مما يجذب الطائر إلى الأعلى .

إذاً كان هناك مجرى هواء كافٍ ، فقوة الجاذبية المتكونة فوق الجناح ، وقوة الرفع بعد الجناح تكفيان لتعلق الطائر في الجو ، وهذا من آيات الله الدالة على عظمته

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

أشكال أجنحة الطيور وأرياشها معجزة من معجزات الخالق سبحانه :

ويستطيع طائر الباتروس البقاء في الجو لساعات باستخدام الرياح الصاعدة فقط دون أن يرفرف بجناحيه ، يستخدم تيار الهواء من دون رفرفة جناحين ، أما بعض الطيور فتكون بنفسها تيار هواء ، الذي يلزم أن يكون تحت جناحيها ، لهذا ترفرف بالجناح كل مرة الطائر يجدف بها في الهواء ، وأثناء رفع جناحيه إلى الأعلى يضم نصفه باتجاه الداخل وهكذا يقل احتكاك الهواء ، ويفتح جناحا الطائر بشكل كامل عندما ينزلان باتجاه الأسفل وتتداخل الأرياش بعضها في بعض في كل حركة ، ولكن يبقى القسم الأسفل أملس على الرغم من تغير حركة الجناح في كل لحظة .

أستاذ عدنان ، إن أشكال أجنحة الطيور ، وأرياشها كاملة في الديناميكية الهوائية معجزة من المعجزات.

هذه البطة بفضل بنيتها الهوائية الرائعة ترى كأنها تحلق في الجو ببطء على الرغم من طيرانها بسرعة سبعين كم بالساعة تقريباً ، بعض الطيور تطير بسرعة 125 ، أجنحة الطيور مختلفة ، أعطت الناس الأسوة في صنع الطائرة ، في كل زمان ومكان كما قلت : إن أرقى طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر ، بعض الأجنحة قصيرة ومتينة ، للمناورات المتتابعة ، وبعض الأجنحة ضيقة وحادة للطيران السريع ، وبعض الأجنحة طويلة وواسعة للطيران على ارتفاع عال ، وبعض الأجنحة طويلة ضيقة للتحليق في الجو بسهولة .

اختلاف أنظمة الطيران بحسب حاجة كل طائر :

الله تعالى خلق في جسم كل طائر أكمل الأنظمة أنظمة الطيران ، ولكل بحسب حاجته ، بعض الطيور تطير أشهراً بأكملها تأكل وتشرب وتنام في الفضاء ، الصقور تنقض على فريستها بسرعة ثلاثمئة كم في الساعة ، الصقور ، العقاب لا يطير لإيجاد طعامه فقط بل لإثبات قوته أيضاً كالمناورة العسكرية ، الصراع بين هذين العقابين ليس مشاجرة بل مسابقة في الشجاعة ، والمهزوم هو الطائر الذي يسقط على الأرض أولاً ، نبقى مع مشهد الطيران الرائع هذا .

وبما أن كل طيران لابد من أن يعقبه نزول لهذا فأهمية الهبوط بشكل آمن ضروري كأهمية القدرة على الإقلاع ، والطيور ماهرة بهذا أيضاً ، تستخدم جناحيها للفرملة كما تستخدم الطائرات اليوم جناحيها للفرملة .

بالإضافة إلى الطيران الطائر المسمى بافين يستطيع أن يبقى معلقاً في الجو بفضل تيار الهواء الصاعد، ويستخدم هذه القابلية للنزول أيضاً ، عدم الانتباه ولو للحظة ربما ينتهي بنتائج مريرة ، كالطيارة تماماً ، معظم الحوادث أثناء الإقلاع أو الهبوط .

الإوز العراقي واحد من الطيور ذوات الأجنحة الكبيرة ينزل على سطح الماء كطائرة بحرية ، ويستخدم الأقدام كالفرامل ، يقوم النسر بالهبوط إلى عشه الذي على حافة الهاوية بمراقبة طيران حادة ، وبحساب هندسي دقيق ، أولاً يبدأ بالغوص بسرعة إلى الهدف الذي يبتغيه أسفل العش ، ثم فجأة ينعطف فوق باتجاه الأعلى متخذاً الهواء فرملة ، وعندما يصل إلى العش تكون سرعته قد انخفضت إلى الصفر.

الحقيقة أحد أكبر الآيات الدالة على عظمة الله هذا الطائر الذي يطير بجناحين وبعد مئات الأعوام اخترع الإنسان طائرة ، بكل طاقته ، وخبرته ، وإبداعه لا ترقى هذه الطائرة إلى مستوى الطائر .

الأستاذ عدنان : دكتور في البداية ذكرت قول الله تعالى مبيناً تكليفه للناس ،

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

الطلب إذاً من الله تعالى أن يكون التعاون على البر والتقوى ، لا أن يكون الإنسان منفرداً في أعماله ، ترى هل نفهم من القسم الثاني من الآية

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

أنه لا مانع أن يفعل الإنسان بعض السيئات دون أن يكون متعاوناً مع الآخرين ، أم أن النفي هو قاطع، وزيادة في النفي أن لا يكون هناك تعاون على الإثم والعدوان ؟

على كل إنسان أن يكون مطيعاً لله فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين الناس :

الدكتور راتب : هو فردي ، العدوان تخطي الفعل إلى الآخرين ، أنا حينما آخذ مال إنسان أعتدي عليه، أما حينما أعصي ربي فيما بيني وبين ربي أنا وقعت في الإثم ، فهو ينبغي أن تعين الناس لا على أن يأثموا وهم في بيوتهم ، هناك أعمال تعين الناس على الإثم وهم في بيوتهم فالعبرة أن يكون الإنسان مطيعاً لله فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الناس .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (14-30) : الرفق ـ الطير الطنان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

دكتور ، الرفق ، وما أحوج الإنسان في حياته إلى الرفق به من قبل الآخرين وبالتالي الآخرون أيضاً بحاجة لرفق هذا الإنسان بهم .

((إن اللَّه رفيق يُحبُّ الرَّفْق في الأمر كلَّه))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة أم المؤمنين]

ترى هل الرفق أن يكون الإنسان ضمن معنىً لغوي ، يمكن أن يكون في إطار ضيق ، أم أن الإطار الاصطلاحي يضم صفات كثيرة في باب الرفق ؟.

الرفق يرقى بالإنسان و يسمو به :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ عدنان ، بالتعريف الاصطلاحي : الرفق لين الجانب ، الرفق لطافة الفعل ، الرفق الأخذ بالأيسر والأسهل ، الرفق ضد العنف ، والعنف لا يلد إلا العنف ، هذه حقيقة تغيب كثيراً عن الأقوياء ، العنف لا يلد إلا العنف .

((إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيء إلا زَانَهُ ، ولا يُنْزَعُ مِن شيء إلا شانَهُ))

[أخرجه مسلم وأبو داود عن عائشة أم المؤمنين]

الحقيقة الرفق الذي يكون في الإنسان مرتبة أخلاقية عالية جداً ، ونحن نتحدث عن مكارم الأخلاق ، الرفق الذي يكون في الإنسان سمو به ، يعني الإنسان قد يرقى رقياً إلى أعلى الدرجات ، ويبقى مظهره واحد ، له رأس ، وجذع ، وأيدي ، وأرجل ، لكن الفرق بين إنسان رفيق ، وإنسان متوحش ، فرق كبير .

تماماً كما لو وجدت قطعة لحم متفسخة ، تكاد تخرج من جلدك من نتن رائحتها وقد تجد قطعة لحم مشوية ، وأنت جائع ، كلاهما قطع لحم ، الأولى تخرج من جلدك من نتن رائحتها ، والثانية تتمنى أن تأكلها .

فلذلك الرفق يرقى بالإنسان ، هو لين الجانب ، ولطافة الفعل ، والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، الرفق له أصل في القرآن الكريم ، ودعوة إليه ، وكذلك في الحديث النبوي الشريف ، لو أردنا أن نتوقف عند ما ورد في القرآن الكريم عن الرفق ، هل يمكن أن توضحوا ذلك للأخوة المشاهدين ؟.

من اتصل بالله عز وجل اشتق من كمالاته الرحمة و الرفق :

الدكتور راتب :

يقول الله جل جلاله يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

في هذه الآية ملمح دقيق جداً ،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ)

هذه الباء باء السبب ، يعني بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً لهم ، تبين أن الرفق سببه الرحمة ، والرحمة من الله ، الرحمة تشتق من الله ، لأن الله أرحم الراحمين ، وكل إنسان اتصل بالله عز وجل اشتق من كمالاته ، فالذي يتصل بالرحيم يمتلئ قلبه رحمة على الخلق ، والذي ينقطع عن الرحيم يقسو قلبه .

الاتصال بالله يولد الرفق بعباده و الانقطاع عنه يولد القسوة :

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ)

(سورة الزمر الآية : 22)

من النار ،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

هذا الرفق هو اللين ، لين الجانب.

((غفرَ الله لرجل كان قبلكم : سهلاً إذا باع ، سَهلاً إذا اشترى ، سهلاً إذا اقتضى))

[أخرجه البخاري والترمذي عن جابر بن عبد الله]

((علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف))

[أخرجه الحارث عن أبي هريرة]

فاللين هنا يعني الرفق ، هو لين الجانب ،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

يا محمد ! وأنت أنت ، وأنت سيد الخلق ، وأنت حبيب الحق ، وأنت سيد ولد آدم ، أنت الذي أوتيت المعجزات ، أنت الذي أنزل عليك القرآن ، أنت الذي أوتيت جمال الصورة ، أنت الذي أوتيت فصاحة البيان ، لو كنت أنت أنت

(فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

رأسمال الداعية أن يكون محبوباً ليسرع الخطا إلى الله تعالى :

أي في النهاية إنسان متصل بالله ، يمتلئ قلبه رحمة ، تنعكس الرحمة رفقاً ، يلتف الناس حوله ، إنسان منقطع عن الله ، يمتلئ قلبه قسوة ، تنعكس القسوة غلظة ، وفظاظة ينفض الناس من حوله ، وكأنها معادلة رياضية بالتمام والكمال ، اتصال ، رحمة ، لين التفاف ، انقطاع ، قسوة ، غلظة ، انفضاض ،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

لذلك أنا أقول للأخوة الذين يدعون إلى الله : هذا الداعية ليس نبياً ، ولا رسولاً ، ولا يوحى إليه ، ولا معه معجزات ، ولا أوتي الفصاحة التامة ، ولا جمال الخلق ، فكيف يكون فيه غلظة وفظاظة ؟ ينفض الناس من حوله ، رأسمال الداعية أن يكون محبوباً ، لأن الإنسان بالحب يسرع الخطا إلى الله .

سقراط معلم كبير في تاريخ البشرية ، مرة استدعى أحد أولياء طلابه ، وقال : خذ ابنك عني إنه لا يحبني .

إذا ألغي الحب في الإسلام أصبح الإسلام متصحراً ، أصبح كلاماً ، أصبح ثقافة لكن الإيمان هو نظام كامل ، عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك .

الأستاذ عدنان :

يقال في كل إنسان نبعة خير ، إذا ما استطاع الآخرون أن يصلوا إلى هذه النبعة تتغير كثير من صفات الإنسان الجافي ، وشهدنا في سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأشياء والأفعال التي تؤكد هذا الأمر ، في تعامله مع الآخرين ، في تعامله مع أصحابه ومع أعدائه ، كان لين الجانب ، واضحاً جلياً في تصرفاته ، هذا في ميدان التصرفات ، وله في ميدان آخر ميدان الكلام ؛ الحديث النبوي الشريف أيضاً هناك الشيء الكثير ، ممكن أن نتحدث عن هذا الجانب ؟.

الرقة و اللطف أساس منهج الدعوة إلى الله عز وجل :

الدكتور راتب :

النبي عليه الصلاة والسلام ماهر في قلب أعدائه إلى أصدقاء ، مرة جاءه عكرمة ابن أبي جهل مسلماً، وأبوه أبو جهل أعدى أعداء الإسلام ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجرا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن زبير]

كان رفيقاً به ، كان عليه الصلاة والسلام رفيقاً بأصحابه ، كان عليه الصلاة والسلام حريصاً عليهم كحرصه على أولاده .

الحقيقة أن الدعوة إلى الله بين أن تكون إلقاء درس ، وبين أن تكون قلباً كبيراً يسع الناس كلهم ، لذلك رأسمال الداعية ليس لسانه ، ولا فصاحته ، ولا معلوماته ، بقدر ما يكون عليهم بقلب كبير ، يستوعب إخوانه ، ويستوعب الناس جميعاً .

لذلك مرت جنازة فوقف النبي لها ، قيل هذا يهودي ، قال : أليس إنساناً ؟.

كان أعداؤه يدهشون لرقته ، ولطفه ، لذلك

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

المنهج في الدعوة :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

هذه أخلاق الدعاة ، لذلك هذه الآية :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

الأهداف النبيلة لا يمكن إلا أن يكون لها وسائل نبيلة :

إذاً كان عليه الصلاة والسلام في تصرفاته رفيقاً ، الأنصار حينما قال لهم :

((أما إنكم لو شئتم لقلتم ، فلصَدقتم ولصُدقتم به ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، طريداً فآويناك ، عائلاً فأغنيناك ، قال : يا معشر الأنصار ! ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله ؟ ألم تكونوا أعداء فألف بين قلوبكم ؟.))

[رواه أحمد عن العرباض بن سارية]

إذاً كان النبي رفيقاً بأصحابه ، وكان حليماً عليهم ، لكن من أحاديثه الرائعة كما تفضلتم ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيء إلا زَانَهُ ، ولا يُنْزَعُ مِن شيء إلا شانَهُ))

[رواه مسلم عن عائشة]

نعود ونقول دائماً : الأهداف النبيلة لا يمكن إلا أن يكون لها وسائل نبيلة ، أما هدف نبيل عن طريق العنف ، والقهر ، هذا الهدف لا يتحقق ، لذلك النبي كان رحمة للعالمين ، رحمة بالناس ، كان أصحابه لا ينامون الليل من شدة محبتهم له ، إذاً يقول عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيء إلا زَانَهُ ، ولا يُنْزَعُ مِن شيء إلا شانَهُ))

[رواه مسلم عن عائشة]

امتحان إيمان كل إنسان بمقدار رفقه بمن حوله :

أؤكد لكم أستاذ عدنان ، الإنسان موصول ومنقطع ، موصول رفيق ، منقطع عنيف ، موصول رحيم ، الرحمة لين ، اللين التفاف ، مقطوع قسوة ، القسوة غلظة وفظاظة ، والغلظة والفظاظة انفضاض ، هذه حقيقة ثابتة .

فالإنسان يمتحن إيمانه بمقدار رفقه بمن حوله ، وكلما كان أكثر رفقاً كان أكثر محبة ، وأكثر رقياً عند الله وعند الناس .

الأستاذ عدنان :

دكتور أحياناً لو قلنا إن إنساناً في مجتمع ما يتعامل مع الآخرين ، النتائج التي يحصل عليها ، نتائج مرسومة ومخطط لها ، إذا عاملهم بشيء من العنف ، إذا عاملهم بأدنى العنف ، الآن مرحلة ثالثة إذا عاملهم بالرفق ، هل تختلف النتائج ما بين العنف ، وشيء من العنف والرفق ؟.

الرفق يحقق العمل الصالح و العمل الصالح سبب دخولك الجنة :

الدكتور راتب :

الحقيقة ، أنا لا أصدق أن يستطيع الإنسان تحقيق رسالة نبيلة بالعنف ، لأنه في الأصل :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة الآية : 256)

ولأن النفوس البشرية فطرت على حب المحسن ، جاء في الأثر القدسي :

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها))

فالرفق لا يأتي إلا بالخير ، ومن يُحرم الرفق يُحرم الخير ، أنت في الدنيا من أجل عمل صالح يكون سبب دخولك الجنة ، ليس ثمن ، سبب ، فرق كبير بين سبب وبين ثمن البيت ثمنه مئة مليون ، أما سبب دخوله مفتاح ثمنه عشرين ليرة فقط .

فلذلك العمل الصالح هو سبب دخول الجنة ، إذاً الرفق يحقق العمل الصالح ، أما بالعنف لا يحقق شيئاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام عن نفسه :

((إنما أنا رحمة مهداة))

[أخرجه الحاكم عن أبي هريرة]

يعني كل الأهداف الكبيرة ، العظيمة ، النبيلة ، لا تحقق إلا بالرفق ، الرفق لا يأتي إلا بالخير ، ومن حُرم الرفق ، حُرم الخير ، الخير أن تملك قلوب الناس .

الفرق الكبير بين العنف و الرفق :

أستاذ عدنان ، سهل جداً أن تملك رقاب الناس ، تملكها بقوتك ، لكن الأقوياء ملكوا رقاب الناس ، بقوتهم ، بينما الأنبياء ملكوا قلوب الناس برفقهم ، وشتان بين أن تملك القلوب وبين أن تملك الرقاب ، الأقوياء عاش الناس لهم ، والأنبياء عاشوا للناس ، وشتان بين أن يعيش الناس لك ، وأن تعيش لهم ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا وشتان بين أن تعطي ولا تأخذ ، وبين أن تأخذ ولا تعطي ، الأقوياء يمدحون في حضرتهم أما الأنبياء يمدحون في غيبتهم ، فرق كبير بين الرفق وبين العنف ، ويعطى الإنسان على الرفق ما لا يعطى على العنف .

دائماً التصرف الحاد سهل ، الابن أخطأ ضربه سهل ، وتركه سهل ، لكن البطولة أن يرهبك وأن يحبك في وقت معاً ، هذا يحتاج إلى رفق .

الأستاذ عدنان :

ذكرتم دكتور فيما يتصل بأن الخير مطلوب ، وورد عنه في القرآن الكريم نصوص كثيرة ، وكذلك في أفعال وأقوال النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك هو منفعة في المجتمع وخير ، ترى في ميدان الفقه إذا أردنا أن ندخل هذا الباب ، فماذا يمكن أن نجد من الرفق من هذا الميدان ؟.

اعتدال المؤمن في كل علاقاته :

الدكتور راتب :

يقول عليه الصلاة والسلام :

((مِن فقه الرجل رفقه في معيشته))

[أخرجه الإمام عن أبي الدرداء]

الحكمة ، إنفاق معتدل ، علاقات معتدلة .

((أحْبِبْ حبيبَك هَوْنا مَّا ، عسى أن يكونَ بَغِيضَكَ يوماً مَّا ، وأبْغِضْ بغيضَك هَوْنا مَا عسى أن يكونَ حبيبَك يوماً ما))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

دائماً المؤمن رفيق ، أي معتدل ، معتدل في إنفاقه ، معتدل في بذل الوقت ، قد يعمل عملاً مستمراً وينسى عباداته ، وقد ينصرف إلى العبادة وينسى عمله ، رفيق ، أي معتدل في عبادته ، في أعماله ، في أسرته ، ومع أسرته ، ومع الناس ، في البيت ، وفي العمل ، في مطالب الدنيا ، ومطالب الآخرة ، هنا الرفق الاعتدال .

((مِن فقه الرجل رفقه في معيشته))

[أخرجه الإمام عن أبي الدرداء]

((الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

هناك تجارة أساسها المضاربات ، أساسها تلف الأعصاب ، أساسها الحظوظ ، ما في جهد بشري ، ففي تجارات تتلف الأعصاب ، في إنفاق كبير يحتاج إلى جهد كبير ، فلو أنك اعتدلت في إنفاقك لما احتجت إلى هذه الهموم ، خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هماً ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه و هو لا يشعر .

من ثمار الرفق أن تكون أعمال الإنسان معتدلة :

للرفق معنى دقيق هو الاعتدال أحياناً ، يعني معتدل في علاقاته ، معتدل في زياراته ، معتدل في إقامته في بيته ، هناك من يقبع في البيت ولا يخرج منه ، هناك من لا يأتيه إلا عند النوم ، فالاعتدال في علاقته مع أسرته ، في علاقته مع محيطه ، مع جيرانه مع أقربائه ، مع زملائه في العمل ، اعتدال في أكله ، في شربه ، في صحته .

((مِن فقه الرجل رفقه في معيشته))

[رواه أحمد عن أبي الدرداء]

الأستاذ عدنان :

من خلال هذه الناحية دكتور قولك : أن يكون معتدلاً ، هذا هو ما يتصل بالرفق فعلاً ، إذ إنه لو خلط الإنسان من خلال أعماله وعلاقاته مع الآخرين ، لو خلط ما بين الرفق وما بين ما يمكن أن يقال عنه التراخي ، لضاعت الأمور .

لذلك من ثمار الرفق أن تكون أعماله معتدلة ، يعني أعمال الإنسان معتدلة في النطاق السليم ، لتعطي النتائج بعد ذلك ثمارها جيدة صالحة ، حبذا لو بينتم أن الاعتدال هو ميزان الرفق ، وبالتالي تكون ثماره كثيرة .

الرفق كمال في الإيمان و محبة لله :

الدكتور راتب :

أولاً الاعتدال ، أو الرفق دليل كمال الإيمان ، يعني الإيمان في إيمان ، وفي إيمان أعلى ، وفي إيمان أعلى ، وفي إيمان كامل ، من صفات كمال الإيمان أن تكون رفيقاً النبي عليه الصلاة والسلام حينما عقد صلح الحديبية ، هذا سلام ، سماه الله فتحاً مبيناً ، فكأن الله يريد لنا السلام ، يريد لنا الراحة ، يريد لنا أن تنظم حياتنا انتظاماً مريحاً ، فكل أعمال العنف ، والقسوة ، والحروب ، هذه تسبب قلقاً في المجتمعات كثيراً جداً .

فلذلك الأصل أن السلام هو المطلوب ، الأصل أن تعيش حياة هادئة هو المطلوب لأنه بهذه الطريقة تتفرغ لعبادة الله عز وجل ، لذلك يقال : الرفق كمال في الإيمان ، والرفق محبة لله ، الله يحبك إن كنت رفيقاً ، والناس يحبونك ، والمحبة شيء ثمين جداً ، ورأسمال عظيم جداً ، والرفق ينمي المحبة والتعاون ، التعاون من أين يأتي ؟ من الرفق ، العنيف لا ينصح ، العنيف لا تقدم له النصيحة ، العنيف لا يتعاون معه إطلاقاً ، إن أردت تعاون الناس معك ، إن أردت أن تستعير خبرات الناس ، إن أردت أن يكون الناس لك نصحة ، إن أردت أن يفديك الناس بأرواحهم ، كن رفيقاً بهم ، هكذا كان الأنبياء ، نحن نفتقر إلى كمالات كبيرة جداً في حياتنا .

الأستاذ عدنان :

فعلاً كما بينتم دكتور أن الأمر في موضوع الرفق أن يكون في نطاق الاعتدال حتى إنكم قلتم الرفق يساوي الاعتدال في حياة الإنسان وتصرفاته ، إذ إنه إن كان الرفق في ميدان التراخي يمكن أن يستغل هذا التراخي بحيث تكون الثمار سيئة ، بل يمكن أن تكون شوكاً .

إذاً الرفق ضرورة في حياة الإنسان ، في ذاته ، في مجتمعه ، ومن حوله .

الموضوع العلمي :

والآن إن أردنا أن نتابع إعجاز خلق الله تعالى ، وهو الرفيق بعباده ، وبكل مخلوقاته .

عدم استطاعة الإنسان أن يقارن بين تكنولوجيا ودقة أي طائرة بالطيور :

الدكتور راتب :

نتابع موضوع الطير ، في تصميمه الكامل ، يحاول الناس أستاذ عدنان دائماً الوصول إلى الأكمل في صناعة الطائرة ، فالجناح في الطائرة أبرز ما فيه تخفيف الاحتكاك بالهواء ، إلى أقل درجة ، وبقاء الطائرة في الجو بسهولة ، وقد توصل الإنسان إلى تقنية الطائرات تقنية رائعة جداً ، نتيجة بحوث وتجارب متراكمة ، وعلوم مئة سنة ، لكن تصميم أشكال الطائر والجناح ، باعتبار عوامل خاصة كثيرة، بمساعدة الحاسوب (الكومبيوتر) ورغم ذلك ، لا تقارن تكنولوجيا ودقة أي طائرة بالطيور ، رغم التقدم ، مئة عام خبرات استخدام الحاسوب ، استخدام علوم نظرية ، علوم تطبيقية ، رغم كل هذا لا تقارن تكنولوجيا طيران الطائرات بطيران الطائر .

شيء دقيق : تصمم أشكال الطائرة والجناح باعتبار عوامل كثيرة ، إلا أن الناس طوروا وسائط تطير أسرع من الطيور ، ولكن التحكم في طيران الطيور تفوق كثيراً في كل زمان بمثل لا يقارن ، هناك شيء اسمه المناورة ، هناك طائرة تطير ألف كم في الساعة بحجم كبير جداً تقل 800 راكب الآن ، لكن الطير يملك قدرة على المناورة لا تستطيعها أي طائرة مناورة .

التصميم الكامل في الطائر يرجع إلى الخالق سبحانه :

إلى من يرجع هذا التصميم الكامل الموجود في الهياكل ؟ نبدأ في التصميم ، رغم وجود مئات المهندسين ، ورجال العلم وراء تصميم كل طائرة فأثر من قابلية الطيور على الطيران ، وأجسام الطيور التي هي أكمل بكثير من الطائرات ، لا شك أنه لا يمكن أن يكون الطائر هو نفسه صاحب هذا الأثر ، هذا أثر من ؟ الطائر متعلم ؟ درس جامعات ؟ لا شك أن الطائر ليس هو صاحب الأثر ، وليس لدى الطائر أي معلومات عن التصميم ، ولا عن الدينامكية الهوائية ، بل يولد فرخاً بلا شعور ، يستخدم الجناح الذي أوجده له خالقه أثناء وجوده في البيضة ، ولا يستطيع أن يضع جناحاً مختلفاً في نفسه حتى لو أراد ذلك ، مع أنه بالأصل أعطي الجناح بحسب حاجته ، والتفكير في وجود هذا التصميم ، نتيجة مصادفات عمياء نتيجة تفسير أعمى غير منطقي ، قال تعالى :

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة الجاثية)

الطيور واحدة من التجليات الكثيرة لعلم الله وحكمته التي لا حدود لها في الأرض :

من الممكن أن نرى دلائل الخلق عن قرب أكثر ، إذا دققنا في بنية أجسام الطيور وأجنحتها ، ذلك لأن هناك معجزات مهمة مخفية في تفاصيلها ، الآن أجسام الطيور صممت بأخف الأشكال الممكنة ، فالطيور ذات عظام أقل بالنسبة للكائنات البرية بالإضافة إلى أن هذه العظام ليست صلبة ، ولا كثيفة كما في الكائنات البرية ، بل على العكس ، فعظامها مفرغة من الداخل ، والعوارض المتقاطعة المنسقة داخل العظام تجعل هيكل الطائر متيناً جداً الطائرة يجب أن تكون خفيفة ، ويجب أن تتحمل كل الظروف الجوية الصعبة ، ويجب أن تملك طاقة كبيرة ، تصميم الريش في الطائر شيء محير ، بنية ريش الطائر الذي يبدو بسيطاً في الظاهر ، معجزة في تصميمه ، فداخل كل ريشة آلاف الرويشات الصغيرة ، المرتبة بشكل تقاطعي ، هذه الرويشات الصغيرة مرتبط بعضها ببعض بصنارات مجهرية تكوّن بهذا سطحاً أملساً خفيفاً ، فهذا التصميم الذي لا نظير له ذو آلاف التفاصيل المجهرية داخل ريشة واحدة فقط ، لا تعود إلى الطبيعة بلا شك ، ولا إلى المصادفات العمياء ، ولا إلى الطائر نفسه ، بل تعود إلى الله رب العالمين ، هو الذي خلق الطيور بخصائصها كلها ، وهذه الكائنات واحدة من التجليات الكثيرة لعلم الله وحكمته التي لا حدود لها في الأرض .

الطائر الطنان نوع مدهش من الطيور يتميز بـ :

1 ـ أجنحته الدقيقة و الحادة كالسكين تشكل تيار هواء بحركاته السريعة :

تحلق الطيور أحياناً في الجو أثناء طيرانها ، مستفيدة من الرياح ، إلا أن هناك نوعاً مدهشاً من الطيور يطير دون أن يستخدم الرياح أبداً ، إنه الطير الطنان ، أجنحة هذه الطيور معجزة أخرى للخلق ، أنظمة الطيران لديها مختلفة تماماً عن الطيور الأخرى ترفرف بجناحيها 25 مرة في الثانية الواحدة ، بسبب هذا لا تدرك عين الإنسان حركة جناح الطير أبداً ، ولرؤية هذا النظام الرائع يلزمنا إبطاء حركة آلة التصوير ، قد نصور الطائر بفيلم ، ثم نبطئ الحركة ، الأجنحة الدقيقة والحادة كالسكين تشكل تيار هواء بحركاته السريعة نحو الأسفل تماماً ، كما يفعل الإنسان بالمروحية ، فالمروحة في المروحية

تدور حول قضيب معدني ثابت ، تشكل تياراً هوائياً باتجاه الأسفل ، الهواء المدفوع للأسفل يرفع المروحية للأعلى ، مبدأ طيران الطنان يشبه إلى حدّ كبير الطائرة المروحية ، يصنع تياراً نحو الأسفل يستطيع هذا الطائر أن يقف في الجو من دون تيار هوائي إطلاقاً .

2 ـ تقدمه للأعلى و الأسفل و الأمام و الخلف بتغير زاوية جناحيه :

شيء آخر : يستطيع بتغير زاوية جناحيه أن يتقدم للأعلى ، والأسفل ، والأمام والخلف ، رفرفة الطنان بجناحيه 25 مرة في الثانية ، وعدم تضرره منها أبداً يحير جداً ، لا يستطيع الإنسان أن يحرك ساعديه في الثانية إلا مرة واحدة ، فإذا أجري هذا العمل بمساعدة آلة لو ربطنا اليد بآلة وحركنها 25 ثانية لاحترقت العضلات ، أما هذا الطائر 25 رفة بالثانية وعضلاته سليمة .

3 ـ الطنان ذو خلقة رائعة من أعقد آلات الطيران والأكثر تفوقاً في العالم :

شيء آخر : عصفور الطنان ذو خلقة رائعة ، فمع خفق جناحيه ملايين المرات دون توقف لا يحصل أي عطل في عضلاته ، هذا الطائر الصغير واحد من أعقد آلات الطيران والأكثر تفوقاً في العالم ، إنه معجزة وحده ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (15-30) : الأخلاق
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

دكتور في حياتنا الاجتماعية نقول عن فلان: إنه مخلص، بل نزيد ونقول: إنه غاية في الإخلاص، وقد يكون الأمر غير مستبين بأعمال كبيرة، لكن تطلق مع هذا هذه الصفة ترى ما هو السبب؟ هل السبب هو أننا عرفنا أن ما في داخله هو الإخلاص قد يترجم من خلال الأعمال إلى أعمال جيدة، وهل يكون موضع الإخلاص من خلال القلب أم من خلال الجوارح؟مقدمة :

الإخلاص عبادة القلب :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، أستاذ عدنان علة وجود الإنسان أن يعبد الله، لقوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات الآية :56]

والإنسان جوارح وقلب، عبادة الجوارح معروفة؛ الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والعبادات التعاملية، ولكن الإخلاص عبادة القلب:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

[سورة البينة الآية :5]

فلذلك الجوارح علاقتها بالقلب، فالقلب إذا أخلص لله عز وجل قبلت عبادة الجوارح، وإن لم يخلص القلب في عبادته لله لم تجدِ عبادة الجوارح.

الأستاذ عدنان :

إذاً القلب هو مظلة الأعمال.

الإخلاص هو الدين كله :

الدكتور راتب:

الذين يقولون: إن الإخلاص نصف الإيمان، الحقيقة هو الإيمان كله، لأنه إن لم يكن هناك إخلاص فالأعمال لا قيمة لها، من هنا حينما قال الله عز وجل:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية:19]

متى يرضى الله عن العمل الصالح؟ قال بعض العلماء: إذا كان خالصاً وصواباً، صواباً ما وافق السنة، وخالصاً ما ابتغي به وجه الله، فالإخلاص ينفع معه كما تفضلتم كثير العمل وقليله، بينما عدم الإخلاص لا ينفع معه لا كثير العمل ولا قليله، فكأن الإخلاص هو الدين كله.

الأستاذ عدنان :

هل لهذا السبب يقال: نية المؤمن خير من عمله؟

الدكتور راتب :

بل إن الحديث المتواتر الذي يعد أصلاً في هذا الدين:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ]

أي إنما قيمة الأعمال محصورة في نياتها، الأعمال مهما بدت عظيمة قد يجعلها الله هباءً منثوراً:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان الآية:23]

لذلك الإخلاص هو الدين كله.

الأستاذ عدنان :

في هذه الحالة ذكرتني بأشياء كثيرة تتصل بموضوع الإخلاص حينما يكون واضحاً جلياً عند الإنسان المؤمن، إذ إنه عندما يكون على غير ذلك ليقال عنه: إنه عالم، ليقال عنه: إنه جاهل، ليقال عنه: إنه أنفق، وقد قيل: انتهى عمله، أي لا فائدة من عمله على الإطلاق، إذاً نعود لقولكم الواضح البين في هذا الأمر، موضع الإخلاص هو القلب، ويترجم بعد ذلك في كثير العمل أو قليله ويكون مقبولاً، مكان الإخلاص من الإيمان؟

مكانة الإخلاص من الإيمان :

الدكتور راتب :

أنا أضرب مثلاً لو أن إنساناً سأل طبيباً من المتفوقين أن يعلمه فقط كيف يكتب الوصفة، يقول له الطبيب: الوصفة محصلة أربعة وثلاثين عاماً من العلم، ملخصة كلها في كتابة الوصفة، لو أنك سألت ما قيمة العملة في الاقتصاد؟ هي تعبير عن الاقتصاد، قوة البلد، صناعته، تجارته، ربحه، طاقاته، طاقات أبنائه، ثرواته الطبيعية، نظامه الاقتصادي، نظام تكافؤ الفرص، كل العوامل تلخص بسعر العملة، فلذلك الإخلاص يضغط الدين كله:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

[سورة البينة الآية :5]

فمكانة الإخلاص من الدين هي مكانة الرأس من الجسد، فما لم يكن هناك إخلاص ليس هناك ديناً، والأحاديث كثيرة أن الذي قرأ القرآن ليقال عنه قارئ وقد قيل، والذي تعلم العلم ليقال عنه عالم وقد قيل، كل هذه الأعمال التي تبدو كبيرة هي في حقيقتها لا قيمة لها، أضرب مثلاً بنظام البلديات؛ الأرض المشاع لها سعر، أما إذا نظمت إلى محاضر يتضاعف سعرها إلى مئات المرات، لو أن إنساناً يملك آلاف الدونمات، وجاءه من يقول له: لو تبرعت بخمسة دونمات لمسجد، ستنظم عندئذ أرضك ويرتفع سعرها، فتبرع بهذه الدونمات بنية أن يرتفع سعر أراضيه، ويحقق ثروة طائلة، وقد لا يصلي هو بالأساس، ظاهر هذا العمل عمل عظيم، محسن كبير، تبرع بأرض لكن الله يعلم أنه تبرع بهذه الأرض لا حباً بالله، ولا تقرباً إليه، إنما تبرع بها من أجل أن تزداد ثروته، لذلك:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطّاب]

وقد سمى الصحابة رجلاً أنه: مهاجر أم قيس، أم قيس امرأة في المدينة اشترطت على من أحبها وهو في مكة أن يهاجر إليها، فهاجر من مكة إلى المدينة ابتغاء أن يتزوجها، سمي عند الصحابة مهاجر أم قيس، إنما الأعمال بالنيات.

الأستاذ عدنان :

دكتور هنا ينطلق سؤال آخر من خلال هذا الكلام، نحن كثيراً ما نشهد الناس يقومون بأعمال الخير، لكن هذه الأعمال قد تكون مرتبطة كما ضربت مثلاً بقطعة أرض تبرع صاحبها بقسم منها من أجل مسجد، ولكن الغاية كانت من أجل أن يرتفع سعر أرضه، من ناحية ثانية يمكن أن يقول هذا الإنسان: والله سأعمل أعمالاً لله، وفي نفس الوقت أكسب شيئاً من المال، وقد يكون على غير هذا و ذاك، قد

يقول: إن الأرض كلها لله تعالى، أما وإنهم طلبوا قسماً معيناً منها فليكن للمسجد وبقية الأرض لله تعالى، ما نصيب هذا من الأجر والثواب؟

الإخلاص يرفع قيمة العمل إلى أعلى عليين :

الدكتور راتب :

له نصيب بقدر ما بذل، مرة حاجب مدرسة فقير جداً، عنده ثمانية أولاد، ودخله لا يكفيه أياماً، ورث أرضاً، وكانت مناسبة لمسجد، فجاء الذي يشتريها ليكون عمله صالحاً بإنشاء مسجد، أعطاه قسماً من ثمنها، فقال له: أين الباقي؟ قال له: عند التنازل في الأوقاف، فقال: أنا أستحي أن أبيع أرضاً تغدو مسجداً، أنا أهبها لله، يقول هذا المحسن المليونير: والله ما صغرت في حياتي أمام إنسان كما صغرت أمام هذا الإنسان الفقير، الذي قدم لله كل ما عنده مخلصاً بهذا العمل، فالإخلاص يرفع قيمة العمل إلى أعلى عليين، لذلك يقال: رب درهم سبق ألف درهم، رب درهم بإخلاص سبق ألف درهم برياء .

الأستاذ عدنان :

من خلال هذه القصة التي ذكرتها يتبين الإخلاص جلياً في مظاهر متعددة، يمكن أن تكون البسمة القلبية أوضح من البسمة على الشفاه ، ويمكن أن يكون الرضا القلبي أعلى بكثير وأجلب للسعادة من أموال يكسبها الإنسان، مظاهر الإخلاص عندما يكون هذا الإخلاص متمكناً في القلب كيف تكون؟

مظاهر الإخلاص :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان حينما يستوي عملك أمام الناس وفي خلوتك فهذه علامة إخلاص، عباداتك، أعمالك، انضباطك، يجب أن يستوي هذا عندما تكون في بيتك أو عندما تكون مع الناس ، العمل إذا لم يختلف في خلوتك وفي جلوتك فهذه علامة إخلاص طيبة.

شيء آخر: العمل لا يختلف إذا أعقبه ثناء الناس أو ذمّ الناس، لأنك تعمل هذا من أجل الله، فلا تعلق أهمية على مدح الناس، وعلى ذمهم، ومن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به.

إذاً الإخلاص يستوي فيه العمل سراً وجهراً، في الخلوة والجلوة، مع مديح الناس ومع ذمهم، فهذه علامات مؤشرة.

وأنا أقول دائماً هناك أوامر كثيرة في الدين تلتقي مع القوانين، كتحريم السرقة فالذي لا يسرق لا ندري لم يسرق خوفاً من القوانين أم خوفاً من الله؟ لكن هناك أوامر ينفرد بها الدين، منها غضّ البصر، منها

الصيام، تدخل إلى البيت ولا أحد يراقبك، والماء بارد في الثلاجة، وأنت صائم، وأنت تتمنى أن تضع قطرة ماء في فمك، ولا تفعل هذا، هذه عبادة الإخلاص، لا يمكن إلا أن تفسر بالإخلاص، فربنا رحمة بنا أعطانا عبادات نعرف ما إذا كنا مخلصين أو غير مخلصين.

الأستاذ عدنان :

دكتور يمكن أن يقدم الإنسان على عمل خير، وأن يقدمه بإخلاص كامل لله تعالى وبنية متكاملة بالإخلاص، بعد أن يقدمه وليس في نيته شيء من مرائه يأتيه إنسان ويقول له كلاماً جميلاً، أنت أحسنت، أنت عملك جيد، أنت ممتاز، هنا قد يداخل هذا الإنسان المحسن في إخلاصه شيء ما بعد أن تكون نيته في البداية مخلصة لله تعالى، ثوابه في هذه الحالة هل يختلف؟

الفرق بين المؤمن الصادق المخلص و بين المؤمن ضعيف الإيمان :

الدكتور راتب:

((إذا مدح المؤمن الصادق المخلص ربا الإيمان في قلبه))

[أخرجه الطبراني عن أسامة بن زيد]

أما إذا مدح ضعيف الإيمانف يكبر بهذا المديح ويستعلي على من حوله لذلك:

((إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الإيمان في قلبه))

[الطبراني عن خلاد بن السائب رحمه الله]

((إذا لَقِيتم المدَّاحِينَ فاحثوا في وجوهم الترابَ))

[مسلم عن عبد الله بن سخبرة رضي الله عنه]

حديثان يبدوان متناقضين، إذا مدحت إنساناً ضعيف الإيمان يستعلي بهذا المديح ويعلو على الناس ويستكبر، أما إذا مدحت إنساناً مخلصاً يزداد بهذا المديح محبة لله وتواضعاً.

الأستاذ عدنان :

دكتور في هذه الميادين ـ ميادين الإخلاص ـ وكنت قد تحدثت عن موضوع الدعوة في هذا المجال عندما يكون الإنسان مخلصاً وداعية لله تعالى يجب أن تتوفر فيه صفات عديدة، ولا أظن أن الله عز وجل بكرمه ورحمته يترك هذا الداعي إلا ويجلل بالنصر والنجاح في دعوته، موطن الإخلاص في الدعوة وآثاره أيضاً؟

مواطن الإخلاص في الدعوة و آثاره :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن الدعوة يمكن أن تتذبذب بين أن تكون أقدس عمل يرقى إلى صنعة الأنبياء، و بين أن تكون أتفه عمل لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة، بالإخلاص تقترب الدعوة من صنعة الأنبياء، وبالارتزاق بالدعوة تقترب من أتفه الأعمال، لذلك يقول الإمام الشافعي: "والله لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين".

تكون الدعوة قريبة من صنعة الأنبياء إذا رافقها الإخلاص، وتسقط من عين الله ومن عين الناس إذا لم يكن أساسها الإخلاص، فلذلك الإخلاص في الدعوة شيء مهم، لذلك هناك علامة دقيقة، الإنسان حينما يخلص ويرفع هذا العمل بإخلاص يقول الناس: جاءه ثواب، ثاب أي رجع، أنت إذا رفعت عملك إلى الله عاد هذا العمل سكينة في قلبك تشعر بها، فأحد أكبر علامات الإخلاص تلك السكينة التي يشعر بها المؤمن، هو عمل عملاً ابتغى به وجه الله، وأراد رضوان الله، والتقرب إلى الله، ولأنه لا يعبأ بكلام الناس مدحاً أو ذماً، ولا يعبأ بالظرف وحده أو مع الناس، ولأنه رفع هذا العمل لوجه الله عز وجل، الله عز وجل تفضل عليه بأن أعاد عليه من هذا العمل سكينة يسعد بها ولو فقد كل شيء، ويشقى بفقدها ولو ملك كل شيء.

الأستاذ عدنان :

اللهم اجعلنا من المخلصين، ونتابع إخلاص قلوبنا من خلال التطلع إلى عظيم خلق الله في خلقه.

معجزة الهجرة :

الدكتور راتب:

الحقيقة أستاذ عدنان هناك معجزة اسمها معجزة الهجرة، شيء محير، شيء معجز، هذه الطائرات المقاتلة كيف تطير؟ على شكل ثمانية، لماذا؟ يشكل كل طائر في هذا السرب منفذ هواء في تقاطع الجناح للطائر الذي خلفه وهذا يحقق مقاومة الهواء الأقل، عندما يمشي الطائر وراء الطائر هناك منفذ هوائي جاء من حركة الطائر الأول، هذا المنفذ الهوائي يعين الطائر على مزيد من الطيران، ويخفف عليه مقاومة الهواء، ويخفف عليه بذل الطاقة، فقال العلماء: الطائر الذي يأتي من خلفه لمواجهة هواء أقل، واستهلاك طاقة أقل، وهكذا يقتصد في الطاقة بنسبة عشرين بالمئة من مجموع الاستهلاك ، لذلك هذه الطيور العجماوات حينما تهاجر إلى أماكن بعيدة، وتقطع عشرات ألوف الكيلومترات، أحياناً سبعة عشر ألف كيلو متر تقطعها فلابدّ من أن تهاجر على شكل أسراب بشكل ثمانية، والطيران الحربي الآن

يعتمد هذا في الطيران، لأن الطائر خلف الطائر فالمقاومة أقل، وبذل الطاقة أقل، لأن هناك منفذ هوائي، لكن الطائر الأول يضع جهداً كبيراً جداً، لذلك تتناوب الطيور على مقدمة هذا السرب، لأن فيها جهداً كبيراً، بينما الطائر الذي بعده يستفيد من هذا المنفذ الهوائي فيقلل من مقاومة الهواء، ويقلل من بذل الطاقة، هذه قضية مهمة جداً ومعجزة، والحقيقة أن بدراسة قوانين الطيران يستنبط هذه الحقائق، لذلك كل أسراب الطيران تطير على شكل ثمانية، أما أن يأتي حيوان طائر لا عقل له، يستخدم هذه التقنية الرائعة في توفير الطاقة والجهد، عن طريق الطيران على شكل ثمانية، وأن هذا الذي في مقدمة السرب يبذل جهداً كبيراً جداً لذلك لابدّ من التناوب، من علم الطائر هذه التقنية؟ من علم الطائر هذا النظام البديع في الطيران؟ من علم الطائر هذه الحكمة في الطيران؟

الطائرات التي صنعها الإنسان تطير تقريباً أربع عشرة ساعة باستمرار، هناك طيور تطير ستاً وثمانين ساعة بدون توقف، ألم أقل مرات عديدة: إن أعلى طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر، قال تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

[سورة الملك الآية:19]

تزامن رفرفة أجنحة الطيور مع بقية الطيور من آيات الله العظيمة :

الآن هناك شيء آخر؛ رفرفة أجنحة الطيور تتزامن مع بقية الطيور، هناك حركة متناسقة في أجنحة الطيور مع بعضها بعضاً، وهذه تؤمن لها مقاومة هواء أقل، وتوفير طاقة، ليس لأنها تمشي وراءها فقط بل لأن حركة الأجنحة متناغمة مع بعضها البعض، وهذه آية كبرى من آيات الله.

الإنسان بذكائه، وعقله، وتفوقه العلمي، وبعد تجارب عديدة، وبعد مئة عام في خبرات الطيران، يتوصل إلى نموذج في الطيران على غرار ما هو عليه الطائر، فمن علم الطائر؟ من أرشده؟ من جعله بهذه الطريقة العلمية؟

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

[سورة الملك الآية : 19]

اهتداء الطيور إلى أهدافها من آيات الله الدالة على عظمته :

الآن هناك سؤال كبير، الطيور كيف تهتدي إلى أهدافها؟ قد تقطع مسافات طويلة جداً، لو فرضنا طائراً يعشعش في دمشق، وطار في الشتاء إلى جنوب إفريقيا، الآن في عودته إلى دمشق بماذا يهتدي؟ لو أن إنساناً عاقلاً يحمل دكتوراه في الطيران، اختل نظام الطائرة معه، لن يهتدي إذا لم يكن معه أجهزة

واتصالات مع الأرض، وبوصلة، ومئات الأجهزة التي تعينه على تحديد مكانه، وتحديد هدفه، هذا الطائر سينتقل اثني عشر ألف كيلو متر يا ترى هذا الطير كيف يهتدي في النهار ؟

في الحقيقة هناك علماء كثر أجروا تجارب على هذه الظاهرة، قالوا : كيف تهتدي الطيور المهاجرة إلى جهتها عندما تقطع مسافة آلاف الكيلو مترات؟ رجال العلم الباحثين عن جواب هذا السؤال قابلوه بمعجزة أخرى في الخلق، فضلاً عن بنية عظام الطائر، وعن ريشه، وعن أجهزته، وعن...، وعن...، هناك طريقة هدايته إلى هدفه معجزة أخرى، اللقالق مثلاً ترتحل من قارة إفريقيا إلى قارة أوربا مروراً بالبحر المتوسط، يذهب اللقلق بفصل ويعود بفصل، يذهب والأشجار عارية، بنية اللون، ويعود المنطقة خضراء، هناك تباين كبير بالمنظر الجوي، اكتشف بعض الباحثين أن في أجسام اللقالق أجهزة تُعين لها هدفها عن طريق مغناطيسية الأرض، من خلال هذه الأجهزة تتحدد أهدافها، وخطوط سيرها، وهذا شيء مدهش، وشيء من دلائل عظمة الله عز وجل، رحلتها تبلغ آلاف الكيلو مترات من أفريقيا إلى أوربا عبر المتوسط ومع ذلك لا تخطئ طريقها.

تستخدم الطائرة الحربية أجهزةً إلكترونية كثيرة لتعين خطوط الطول والعرض للطيران، ووجهته ، إلا أن إوزات الثلج التي تطير مسافات أطول بكثير من الطائرات الحربية تعرف من بين السحاب إلى أي جهة يجب أن تتجه دون أن تستخدم أي جهاز.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه]

التكنولوجيا والتصميم في أجسام الطيور كاملان إلى حدٍّ يدعو إلى الدهشة :

الأكسجين قليل جداً في علو آلاف الأمتار لهذا السبب يستخدم الطيارون أقنعة أوكسجين، لكن ليس للإوزات حاجة لأقنعة الأكسجين، فقد خلقت رئتاها وخلايا الدم الخاصة بها بتصميم خاص، تستطيع بفضلها التنفس حتى في مثل هذا العلو ، إضافة إلى بنية الأجسام المخلوقة بتنسيق خاص تحميها من برودة تصل إلى خمسة وخمسين درجة تحت الصفر، هيأ الله في أجسامها ما يعينها على التنفس في هذه الأماكن العالية، وما يحميها من البرد الشديد، إضافة إلى بنية أجسام رائعة، التكنولوجيا والتصميم في أجسامها كاملان إلى حدٍّ يدعو إلى الدهشة. هذا صنع الله :

(فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

[سورة لقمان الآية:11]

مرة ثانية وثالثة أؤكد أن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر.

اهتداء الطيور بالنجوم معجزة من معجزات الرحمن سبحانه :

أغرب الخصائص في الطيور المهاجرة أنها تظهر بعد غروب الشمس، تجد الطيور المهاجرة التي تطير في الليل جهتها اهتداءً بالنجوم، هذه معجزة كبيرة بلا شك، لأن هناك ملايين النجوم في السماء، وإيجاد الجهة بالنظر إلى النجوم عمل صعب جداً.

في الحقيقة هذا الأسلوب استخدمه الناس أيضاً في التاريخ، حيث كان البحارون يهتدون إلى جهتهم بحساب زوايا ومواقع النجوم، حتى اخترعوا البوصلة، واستخدموا خرائط النجوم، إضافة إلى ما يملكه الإنسان من عقل وإدراك ، أما الغريب في هذه الطيور الصغيرة فليس في أيديها خرائط للنجوم، ولم تتعلم أماكن أبراجها، وعلى الرغم من ذلك تعرف هذه الطيور بشكل معجز أماكن النجوم، وتجد الجهة بحسبها، وتقطع طريقها في ظلمة الليل دون أن تضيع وجهتها، قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

[سورة النور الآية:41]

الحقيقة أن هذا الكون مدهش، وأن الإنسان كلما زاد في تفكره في خلق السماوات والأرض زاد معرفة بالله، وأصل الدين معرفة الله، والمعرفة التي أساسها التفكر معرفة يقينية تفضي إلى طاعة الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (16-30) : التوبة، الألوان عند الطيور
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:

من منا لا يحتاج إلى التوبة؟ ومن منا لم يقصر حتى يتوب بعد ذلك؟ التوبة في حياة المسلمين ضرورية، وهي تهب التائب نفساً جديداً ـ كما يقال ـ وروحاً جديدة، وأملاً جديداً، ترى ما مكانة التوبة في الدين الإسلامي؟

مكانة التوبة في الدين الإسلامي :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان لأن الإنسان مذنب تواب، لأن:

((كُلُّ بَنِي آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوابونَ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

لأن الإنسان قد يغفل عن الله، وقد تغريه الشهوة، فتزل قدمه، ولهذا كانت التوبة، التوبة صمام أمان، قارب نجاة، حبل نعتصم به، ولا نعرف قيمة التوبة إلا إذا تصورنا أن ديننا ليس فيه توبة، ما الذي يحصل؟ أن الذي يرتكب ذنباً صغيراً، وهو يعلم أن الله لن يتوب عليه يتابعه بذنب أكبر، وذنب أكبر إلى أن يفجر، عندئذ يهلك الناس جميعاً، ولكن الله عز وجل برحمته ما أمرنا أن نتوب إلا ليتوب علينا، وما أمرنا أن نستغفر إلا ليغفر لنا، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا، فالله يريد أن يتوب علينا، يريد:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء الآية: 27]

من أروع ما وصف النبي عليه الصلاة والسلام قيمة التوبة بأن:

((أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم عن أنس بن مالك]

وقد نطق بكلمة الكفر، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "لله أفرح بتوبة عبده من ذاك البدوي بناقته":

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ))

[مسلم عن أنس بن مالك]

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

باب التوبة مفتوح على مصارعه لكل إنسان :

لذلك باب التوبة مفتوح على مصارعه، والله عز وجل يحب التوابين، أي ما من شيء يصيب الإنسان وحلّه في التوبة، أي ذنب يقترفه الإنسان مهما كبر، التوبة تلغي هذا الذنب، التائب من الذنب كمن لا ذنب له:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر الآية: 53]

لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي، لذلك الإنسان بالتوبة ينفذ نفسه من أخطائه، وكأن التوبة فتح صفحة جديدة مع الله، رمضان إلى رمضان:

((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

((من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

[متفق عليه أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((... الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا))

[رواه مسلم عَنْ عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، التوبة أكبر رحمة من الله عز وجل، فالمؤمن مذنب تواب:

((كُلُّ بَنِي آدمَ خطّاءٌ وخيرُ الخَطّائينَ التَّوابونَ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

وأنت بالتوبة تفتح مع الله صفحة جديدة، وتزيل عن كاهلك ذنوباً كالجبال.

الأستاذ عدنان:

دكتور أحياناً كلنا نخطئ ثم نتوب، لكن أحياناً يخطئ الإنسان ثم يتوب ثم يخطئ ثانية، لا من باب أن الإنسان يمكن أن يخطئ، وأنه مشدود بترابيته إلى الأرض فيخطئ ثم يتوب ولكن من باب الإصرار على المعصية فكأنه المستهزئ بربه ـ والعياذ بالله ـ، هذا يشير بشكل ما إلى أن للتوبة شروطاً وأركاناً يجب أن تتبع وإلا فنكون كالمصرين على الذنب.

أركان التوبة :

الدكتور راتب:

الحقيقة أن للتوبة ثلاثة أركان، علم وحال وعمل، قبل ذلك أحد علماء الاجتماع اسمه دورك هايم عمل قانوناً لعلاقة الإنسان بمحيطه، هذا القانون ثلاث كلمات مترابطة؛ إدراك، انفعال، سلوك، أنا أمشي في بستان، رأيت أفعى، إذا صحّ إدراكي أنها أفعى وأن لدغتها قاتلة لا بدّ من أن أضطرب، فإذا صحّ اضطرابي لا بدّ من أن أتحرك، إما لأقتلها أو لأهرب منها، إن رأيت إدراكاً مزعوماً ولا اضطراب معه، فالإدراك كاذب، إنسان قال للثاني على كتفك عقرب، بقي هذا الإنسان هادئاً جداً، متمتعاً بتوازنه، والتفت إلى من قال له هذه الملاحظة وقال له: أنا شاكر لك على هذه الملاحظة، وأسأل الله أن يعينني على أن أكافئك عليها، لم يفهم ما قيل له، لو فهم لقفز ولخرج من جلده، لذلك ما لم يكن الإدراك صحيحاً ليس هناك مع الإدراك اضطراب، وما لم يكن الاضطراب صحيحاً ليس مع الاضطراب سلوك أو حركة، فعلامة أن الإنسان قد أدرك خطأه يضطرب، وعلامة اضطرابه سلوكه.

1 ـ العلم :

لكن الركن الأول في التوبة العلم، الإنسان كيف يعالج ضغطه المرتفع ـ والضغط المرتفع هو القاتل الصامت ـ؟ يعالجه إذا علم أن معه ضغطاً مرتفعاً، لذلك الإنسان حينما يطلب العلم يقيّم نفسه، هذا الدخل فيه حرمة، هذا الإنفاق حرام، هذه العلاقة شائنة، هذا الكلام كذب، هذا الكلام تغرير، هذا الحديث غيبة، الإنسان إذا طلب العلم ولا سيما طلب مفردات منهج الله عز وجل، يقيّم نفسه تقييماً صحيحاً، فما لم يطلب الإنسان العلم قد يرتكب ذنوباً كثيرة و يظن أنها ليست بذنوب، لذلك قال العلماء: كلما كبر الذنب

عند الإنسان صغر عند الله، وكلما صغر عند الإنسان كبر عند الله، بل إن ذنب المنافق كالذبابة، بينما ذنب المؤمن كجبل جاثم على صدره، وكلما عظم الذنب عندك صغر عند الله، وكلما صغر عندك عظم عند الله، لذلك العلم هو الذي يقيّم الإنسان، الإنسان أحياناً يستثمر ماله فرضاً بربح ثابت، يظن أنه استثمار، ما دام الربح ثابتاً و لا يوجد ربح وخسارة، هذا أقرب إلى الربا منه إلى الاستثمار، فالإنسان إذا طلب العلم عرف مكانه الصحيح من هذا الدين عندئذ يتوب، فلا توبة قبل طلب العلم، الإنسان قد يكون الران على قلبه، يرتكب المعاصي والآثام، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[سورة الكهف الآيات: 103-104]

2 ـ الاضطراب أو الندم :

إذاً الركن الأول في التوبة هو العلم، العلم الحقيقي الصحيح الخالص لله، يعقبه اضطراب، يعقبه ندم، يعقبه تمزق، يعقبه أسف، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الندم توبة))

[أحمد عن أنس بن مالك]

وهذا من إيجازه الشريف، لأن الندم لا بدّ من علم سببه ولا بدّ من إقلاع يتبعه، فالتوبة علم وحال وعمل، حال التائب حال النادم، حال الذي يقترف المعصية هو حال النادم، ولأن منهج الله عز وجل متوافق تماماً مع الفطرة السليمة، فأي إنسان يقترف الذنب يشعر بانقباض، يشعر بألم، يشعر بندم، ولولا هذه الفطرة السليمة لما تاب إنسان إطلاقاً، لكن هناك فطرة سليمة أنبأته بأنك مخطئ، والخطأ انعكس كآبة، وضيقاً، وضجراً، فجاءت التوبة فأزاحت عن كاهله هموماً كالجبال، فلذلك العنصر الثاني هو الاضطراب، أو الانفعال، أو الندم، لكن الندم الحقيقي لا بد من أن يفضي إلى عمل:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

[سورة الكهف الآية: 110]

الله ما ربط الفلاح إلا بالعمل، بالحركة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال الآية: 72]

3 ـ العمل :

إذاً الإنسان إذا كان من أركان التوبة العلم الذي يقيّم الأخطاء، بصراحة لو أن إنساناً ضعيفاً باللغة، وقرأ نصاً، وارتكب فيه عشرات الأخطاء، سمع قراءته إنسان أجهل منه يقول له: ما شاء الله على هذه القراءة، لو كان هناك لغوي ومتقن لعمله يكشف له عشرين غلطة في الصفحة الواحدة، فالعلم هو الذي يكشف الخطأ، أما الجهل لا يكشف الخطأ، لذلك طلب معرفة أحكام الشرع فريضة بعد الفريضة، لا بدّ من أن أعرف تفاصيل الشريعة، إذاً التوبة علم، والتوبة حال انفعال، ألم، ندم، والتوبة عمل، العمل ينشطر إلى ثلاثة أشطر، ندم على ما كان، وإقلاع فوري، وعقد عزم على ألا يعود لهذا الذنب، ندم على ما كان، وإقلاع فوري، وعزيمة صادقة على ألا يقع في هذا الذنب ثانية.

أركان التوبة علم، وحال، وعمل، العمل هو الأصل، لأن الله عز وجل في بعض الآيات يقول:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

شيء يحير، بعض العلماء قال: تاب عليهم ليتوبوا، أي ساق لهم من الشدائد ما يحملهم على التوبة:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة الآية: 21]

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: 41]

الإنسان حينما يتوب إلى الله يرجو أن يقبل الله توبته :

التوبة أحياناً تبدأ بشدة من الله يسوقها للإنسان، العلماء قالوا: كل شِدة وراءها شَدة إلى الله، وكل مِحنة وراءها مَنحة من الله عز وجل:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ*أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة الآيات: 155-157]

إذاً التوبة علم، والتوبة حال، والتوبة عمل:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: 118]

أي ساق لهم من الشدائد ما يحملهم بها على التوبة، الآن تابوا فتاب عليهم، أي قبل توبتهم، فلذلك الإنسان حينما يتوب إلى الله يرجو أن يقبل الله توبته.

الأستاذ عدنان:

دكتور قوله تعالى:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة النور الآية: 31]

أولاً: أيها المؤمنون، ثانياً: توبوا جميعاً، هم مؤمنون هل هم مقصرون حتى يحتاجون إلى التوبة؟ ما توضيح هذه الآية؟

الإنسان لا يقطف ثمار هذا الدين العظيم إلا بتوبة جماعية :

الدكتور راتب:

التوضيح معك هاتف، ولك خمسون صديقاً، وليس مع هؤلاء جميعاً هاتف، ما قيمة هاتفك؟ لا قيمة له إطلاقاً، أي التوبة لا تقطف ثمارها إلا إذا تاب المؤمنون جميعاً، إذا تابوا جميعاً سرى بينهم العدل، سرت بينهم الثقة، سرت بينهم المحبة، أما أن تتوب وحدك لك أجر وتنجو، لكن لا تقطف ثمار هذا الدين العظيم إلا بتوبة جماعية، أنت إذا كنت مع أولادك، كلهم يخاف الله، إذا أمرك الله ألا تأخذ مالاً حراماً، أمر المليار والخمسمئة مليون ألا يأخذوا منك مالاً حراماً، إذا أمرك أن تكون صادقاً أمر المليار والخمسمئة مليون أن يصدقوا معك، أنت تظن أن التدين فيه عبء، هؤلاء الذين أمروا مثلك أن يستقيموا معك هو في أوراقك الرابحة، إذاً:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة النور الآية: 31]

كأن الله عز وجل ينتظر منا أن تكون توبتنا جماعية حتى نقطف ثمار هذا الدين، لو أن الباعة جميعاً كانوا منسجمين مع منهج الله، مطبقين له، لا يأكلون مالاً حراماً، لا يغشون أبداً، البيع والشراء فيه راحة كبيرة جداً، لكن الآن البيع قد يكون معركة، تخاف أن تغش، تخاف أن يدلس عليك، تخاف أن تكون هذه العلامة غير صحيحة مزورة، تخاف أن يكون السعر مرتفعاً، تخاف أن يكون هذا الاستيراد من بلد شرقي لا من بلد غربي، مثلاً فهناك أساليب كثيرة يفعلها الناس ليأكلوا مالاً حراماً، إذا كانت التوبة عامة عاش الناس في بحبوحة، وفي يسر، وفي سعادة.

الأستاذ عدنان:

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

[سورة النساء الآية: 17]

تأخير التوبة يولد قسوة في قلب الإنسان :

الدكتور راتب:

الحقيقة الإنسان حينما يؤخر توبته يقسو قلبه، عندئذ تصعب التوبة، الذنب كله خاطرة تظهر في ذهن الإنسان، هذه الخاطرة تنقلب إلى فكرة، هذه الفكرة تنقلب إلى إرادة، هذه الإرادة تنقلب إلى عمل، هذا العمل إذا تابعه الإنسان، ينقلب إلى عادة، فإذا أصبحت العادة محكمة في حياتنا يصعب التوبة منها، فلذلك الخواطر لا تحاسب عليها بالأصل، الإنسان لا يحاسب على خواطره ولكن يحاسب على خواطره التي تابعها فانتقلت من خاطرة إلى فكرة إلى شهوة إلى عمل إلى متابعة إلى عادة، فلذلك:

(يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

أي بين الذنب وبين التوبة يجب أن تكون المسافة قصيرة جداً، والزمن قليل جداً، وإلا ألِف الإنسان هذه المعصية، ومن أصعب العادات أن يعتاد على شيء معين عندئذ لا يستطع تركه، التوبة من قريب تعني أن الإنسان يقظ، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: << تعاهد قلبك >> . والمؤمن دائماً يفكر فيما يفعل، أما الذي انساق وراء شهوته دون أن يحاسب نفسه، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

من أعدّ للموت عدته كان من أسعد الناس :

البطولة أستاذ عدنان لا أن تعيش الماضي، ولا أن تعيش الحاضر، أن تعيش المستقبل، أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا، والإنسان ينتقل من كل شيء إلا لا شيء، إلى قبر، فإذا كان قد أعدّ لهذا الوقت عدته يكون أسعد الناس، لذلك قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر الآيات: 1-3]

ما معنى في خسر؟ أي مضي الزمن يستهلكه، من أدق تعريفات الإنسان أنه: بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، لذلك: ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

إذاً الإنسان حينما يعيش المستقبل يسارع إلى التوبة، أستاذ عدنان لا يستطيع واحد منا أن ينكر حدث الموت، لكن الناس يتفاوتون لا في تصديقه أو عدم تصديقه، يتفاوتون في الاستعداد له، يستعد للموت بالتوبة، يستعد للموت بالعمل الصالح، بإنفاق المال، بتربية الأولاد، بأداء العبادات، لذلك التوبة أحد أكبر المنجيات، لكن التوبة عند الغرغرة:

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

[سورة الأحزاب الآية: 18]

هذه التوبة لا تقبل ولا تجدي نفعاً إطلاقاً.

التوبة أكبر عطاء إلهي :

إذاً الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، والتوبة نواجه بها الحدث الأخير في الحياة الدنيا، إذاً التوبة من قريب تجعلك مهيئاً للقاء الله عز وجل، بل إن بعض الأعراض التي تصيب الإنسان بعد سن الخمسين إنما هي إشارات لطيفة من الله عز وجل أن يا عبدي قد اقترب اللقاء، فهل أنت مستعد له؟ فالتوبة أكبر عطاء إلهي، التائب من الذنب كمن لا ذنب له، الله يحب التوابين:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة النور الآية: 31]

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنعام الآية: 45]

الأستاذ عدنان:

دكتور موضوع أن يكون الإنسان بعد ذنب تائباً، وأن يزمع على التوبة لكنه ينقضها بعد حين قد تكون قليلة في عدد النقض ولكن يمكن أن تكون أيضاً متوالية كثيرة.

من أعاد الذنب صعبت عليه التوبة :

الدكتور راتب:

الحقيقة أن أهون توبة هي أول توبة، بكلمة يا رب لقد تبت، يقول: عبدي وقد قبلت، قيل مرة إذا قال العبد: يا رب وهو راكع، يقول الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو ساجد، يقول الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو عاصٍ يقول الله له: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك، أي أهون توبة هي التوبة الأولى، والله يفرح بهذه التوبة، لكن التوبة الثانية أصعب، والثالث أصعب وأصعب، فكلما أعاد الذنب

صعبت التوبة، ولكن أقول لمن ينقض توبته: لا بدّ من أن تتوب إلى ما لا نهاية، ليس لنا إلا الله، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا))

[أحمد عن عَنْ أبي ذرٍّ]

إنسان كان مخطئاً فتاب إلى الله فقبل الله توبته، ثم إذا هو يقع في الذنب مرة ثانية، الآن ضعفت همته على التوبة، شعر أنه نقض عهده مع الله، الآن يرمم هذا الضعف بصدقة:

((وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

[أحمد عن عَنْ أبي ذرٍّ]

أحياناً الصيام يضاف إلى التوبة، الصدقة تضاف إلى التوبة، على كلٍّ باب التوبة مفتوح على مصراعيه إلى ما قبل الموت، وما دام القلب ينبض فالأمل كبير، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر الآية: 53]

أنا أعجب ممن يقع في الذنب ولا يتوب، لا يكلفه إلا أن يقول: يا رب لقد تبت إليك، يقول: عبدي وأنا قد قبلت، الدنيا ساعة اجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة.

الأستاذ عدنان:

نسأل الله أن نتوب، وأن يقبل توبتنا، وإذا ما استعرضنا معكم شيئاً من إعجاز الله عز وجل، ونرى ونمعن ونفكر فإننا نقول: يا رب قد تبنا إليك.

الإعجاز العلمي :

الألوان عند الطيور :

الدكتور راتب:

الطائر له ألوان أخاذة، وكأن الهندسة الوراثية مبرمجة على هذه الألوان، أحياناً ترى اللون الأحمر الدقيق، أستاذ عدنان مهندسو الألوان من أساتذتهم؟ الطيور والفراشات، الألوان الرائعة جداً أساسها ألوان الطيور، الطير خصه الله بألوان أخاذة، ألوان متناسبة، ألوان معتدلة، ألوان مضبوطة، الآن يقول لك: اللون الأحمر ألف درجة، أثناء استخدام الألوان رقم الدرجة 3380 فرضاً، فالألوان لها درجات، هذا كله في الطيور، لذلك كان دارون الذي جاء بنظرية التطور كلما رأى الطاووس دهش، أن هذه

تتناقض مع نظريته، ما دام الخلق عشوائياً، خُلِق هذا الطائرة صدفة، أين له هذه الألوان الرائعة؟ لو تأملت في جمال الفراشات والطيور بحسب ألوانها لكان الشيء مدهشاً، دائماً وأبداً المؤمن يتلمس جمال كائنات الله عز وجل، لأن غير المؤمن يستمتع بالجمال الصناعي، بينما المؤمن استشرفت نفسه الجمال المطلق، نحن حينما نستمتع بالحياة الدنيا نأخذ مسحة من جمال الله عز وجل، أما لو اتصلنا بالله عز وجل لاتصلنا بالجمال والكمال، فلذلك المؤمن ينطوي على سعادة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، الطيور لها ألوان ولها خطوط متناسقة، والطير محبب، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس الآية: 42]

هناك حيوانات غير محببة، من أجل أن تعلم أن تحبيب الطيور لنا شيء ممكن، بينما أي حيوان قد يكون بحجم الطير، وقد يكون له خطوط انسيابية، لكنك تخرج من جلدك إذا رأيته، لذلك:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس الآية: 42]

الإنسان حينما يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

[سورة الإسراء الآية: 44]

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحشر الآية: 24]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (17-30) : الحب - على الإنسان أن يفتخر بصفة متصلة بما خُلق له

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

دكتور كلمة الحب كلمة جامعة مانعة كما يقال، ولنا أن نذكر فيها أن الله عز وجل وصف المؤمنين أنهم يحبونه ويحبهم، ولنا أن نذكر قصتين أترك شرحهما لكم، الصحابي الذي ما قبّل أحداً من أولاده العشرة، والصحابي الذي كان يحب ابناً له ثم توفي هذا الابن الصغير، وكيف بيّن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يلقاه في الجنة ويفتح له باباً من أبوابها، الحب إذاً ومكانته في كيان الإنسان كيف يكون؟

الإنسان عقل يدرك و قلب يحب و جسم يتحرك :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، العقل غذاؤه العلم، والقلب غذاؤه الحب، والجسم غذاؤه الطعام والشراب، وما لم تلبَ هذه الحاجات الثلاثة، حاجة العقل إلى العلم، وحاجة القلب إلى الحب، وحاجة الجسم إلى الطعام والشراب، يتطرف الإنسان، التفوق شيء والتطرف شيء آخر، التفوق أن تلبى هذه الحاجات مجتمعة، بينما التطرف أن تلبى حاجة من بين هذه الحاجات، عندئذ يكون الخلل في حياة الإنسان، الإنسان عقل يدرك، العقل يحتاج إلى أدلة، وإلى براهين، وإلى وسائل لإقناعه، لكن الإنسان الذي لا يشعر بحاجة إلى أن يُحِب أو لا بحاجة إلى أن يُحَب ليس من بني البشر، جانب كبير من جوانب الإنسان قلبه، والعالم الغربي اعتنى بالجسم عناية يفوق حدّ الخيال لكنه أهمل القلب فكان في الكآبة، والكآبة مرض واسع الانتشار، الكآبة سببها أن الإنسان خرج عن مبادئ فطرته، وكان حبه حسياً، وحبه شهوانياً، فلذلك النقطة الدقيقة جداً أن هذا الكيان متكامل، وأن هذا الكيان له جوانب،

ولكل جانب غذاء خاص ما لم تلبَ هذه الحاجات كلها، وما لم تلبَ هذه الجوانب كلها، نكون في وضع مختل كإنسان أعرج.

الحبّ أساس الإيمان :

إذاً مكان الحب في الإنسان مكان مركزي وأساسي، فحياة بلا حب لا معنى لها، وحياة بلا أهداف لا معنى لها، وحياة بلا علاقات متينة لا معنى لها، الإنسان كائن مكرم عند الله عز وجل، خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرّمه أعظم تكريم، بل إن الله عز وجل حينما قال:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن]

بالآية شيء يلفت النظر، أيعقل أن يعلم الإنسان القرآن قبل أن يُخلق؟ هذا الترتيب رتبي، وليس ترتيباً زمنياً، فلا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه، هذا المنهج فيه جانب انفعالي، وجانب علمي، وجانب سلوكي، وكأن العبادة في أصلها طاعة طوعية؛ جانب سلوكي، تسبقها معرفة يقينية؛ جانب معرفي، تفضي إلى سعادة أبدية؛ جانب انفعالي، الانفعال والحب مركزهما كبير في حياة الإنسان، الناجحون والمتفوقون والذي قادوا العالم إلى جادة الخير، وإلى شاطئ السلامة، تمتعوا بقلب كبير وبحب كبير، فالحب أساس الإيمان.

الأستاذ عدنان :

عندما يحب الإنسان شيئاً ما وكان هذا الحب كبيراً هل يعد الإنسان ناجحاً من خلال حبه؟

النجاح الشمولي أساسه أربع كتل كبيرة :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان هناك قضية خطيرة ألخصها بهذا العنوان، النجاح شمولي ولا يعد النجاح الجزئي في حياة الإنسان نجاحاً، النجاح شمولي أي اجتهاد، هناك في حياة الإنسان أربع كتل كبيرة، علاقته بربه، وعلاقته بأهله، وعلاقته بعمله، وعلاقته بجسمه، وأي خلل في العلاقات ينعكس على بقية الأجزاء، فما لم تكن علاقة الإنسان بربه علاقة طيبة، ومستقرة، ومتنامية، فإن ضياعه مع ربه، فإن خجله من ربه، فإن شعوره بالذنب الدائم، شعوره أنه بنى مجده على أنقاض الناس، هذا الخلل في علاقته بربه ينعكس على علاقته بأهله، فيكون قاسياً في تصرفاته، وهذا الخلل في علاقته بربه ينعكس على جسمه، فإذا به يصاب بالوهن والضعف، وأمراض تعود في أسبابها الكثيرة إلى الناحية النفسية، وهذا الإنسان الذي

عنده خلل في علاقته مع ربه ينعكس هذا على عمله، فلا يوفق في عمله، أما حينما تكون علاقة الإنسان بربه متينة تنعكس على علاقته بأهله، وعلى علاقته بعمله، وعلى علاقته بصحته، الشيء العجيب أن هذه الكتل الكبيرة، أن هذه المواقع الكبيرة في حياة الإنسان المحطات الأساسية، هذه متناسقة فيما بينها، أي خلل في واحدة ينعكس على بقية هذه النواحي، فالإنسان العاقل هو الذي يوفق بين هذه الأساسيات في حياته، إذا استطاع أن يصطلح مع الله، واستطاع أن يحبه، وأن يحب خلقه، وأن يأتمر بما أمر الله، وأن ينتهي عما نهى عنه الله، إذا هو زوج ناجح، إذا هو في حرفته متفوق، إذا هو مع صحته وفق ما ينبغي، لكن حينما تسوء علاقته بربه تنعكس هذه على بقية الأقسام.

الآن لو ساءت علاقته بأهله، أقرب الناس إلى الإنسان أهله وأولاده، هم لحمته، هم جزء منه، فلذلك الخطأ والخلل في علاقته بأهله ينعكس على علاقته بربه، وعلى علاقته بصحته، وعلى علاقته بعمله، لأن النجاح كلٌّ لا يتجزأ، والبطولة أن نحقق نجاحات متناسقة فيما بينها، تعود في النهاية إلى النجاح الأكبر، لأن الإنسان له فصول في حياته، لكن أعظم هذه الفصول هذه الاتجاهات الأربع التي ينبغي أن ننجح فيها فيغدو النجاح شمولياً وعاماً، هذه نقطة مهمة جداً.

الإنسان يحبّ الكمال والجمال والنوال :

لكن الإنسان ماذا يحب؟ يحب الكمال، ويحب الجمال، ويحب النوال، يحب الكمال أي عمل بطولي، أي عمل فيه شجاعة، فيه إنصاف، فيه تواضع، فيه رحمة، فيه إنكار للذات تحبه، وتعجب به، ويلهج لسانك بحمد صاحبه، دون أن تكون لك علاقه به إطلاقاً، الإنسان يحب الكمال وهذا من فطرته ، فطرته أن يحب الكمال، ويحب الجمال، طبعاً قد يفهم الناس الجمال هو جمال المرأة، لا، يحب الجمال مطلقاً، هناك كلام جميل، موقف جميل، عناية بالثياب جميلة، تصرف جميل، حركة جميلة، الله عز وجل جميل يحب الجمال، وحاجة الناس إلى الجمال حاجة أساسية، لكن الناس اختصروا الجمال في جمال محرم، الحاجة إلى الجمال أساسية وما لم تكن البيوت جميلة، ومراكز العمل جميلة، فيها أناقة، فيها مسحة جمال، فيها نبات، فيها لوحة، فيها ثياب أنيقة، الحياة تغدو متعبة وشاقة، لذلك انتبه الغربيون إلى هذه الناحية، فلما حسنوا المدن، والطرقات، والحدائق، والأماكن العامة، حتى أماكن العمل، نحن عندما ندخل إلى مكان عمل نظن أن هذا مكان عمل ينبغي أن يكون جميلاً، فالإنسان يحب الكمال والجمال والنوال، يحب العطاء: "يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حبّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها".

من اتصل بالله عز وجل استغنى به عن كل شيء :

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

[سورة البقرة الآية : 165]

بهذه الآية ملمح دقيق جداً، أن الإنسان لماذا عصى الله؟ لأنه آثر أن يستمتع بشيء جميل، هذا الاستمتاع لا يرضي الله، لماذا نافق؟ لأنه نال عطاءً كبيراً من هذا الذي نافق له، فالإنسان حينما يعصي الله يكون قد استهدف شيئاً جميلاً يستمتع به، الله يخبره:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

بعض العلماء حملوا القوة هنا على قوة الجمال، الإنسان إذا اتصل بالله استغنى به عن كل شيء.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

* * *

ولو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقربنا

فما حبنا سهل وكل من ادعى سهولته قلنا له قد جهلتنا

فأيسر ما في الحب بالصب قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

* * *

في جنة أساسها القرب من الله، وقد قال بعض العلماء: "في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة". "ماذا يفعل أعدائي بي؟ بستاني في صدري، إن حبسوني فحبسي خلوة، إن أبعدوني فإبعادي سياحة"، المؤمن جنته في صدره، وأنه أحب ربه.

جمال القرب من الله تعالى يفوق كل جمال :

لكن الإنسان حينما يعصي الله ليستمتع بشيء لو علم أن استمتاعه وسعادته بالاتصال بربه تفوق أضعافاً مضاعفة بهذا الشيء الذي لا يرضي الله لكان في حال آخر، أنت إذا مررت أمام ملهى لماذا يقبل الناس عليه؟ يتوهمون أنهم بهذا الطعام وهذه المعاصي والآثام يستمتعون، لكن لو علم هذا الإنسان أنه إذا أقبل على ربه، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: "أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني". نحن حينما نلغي من الدين الجانب العاطفي الانفعالي، جانب الحب، يغدو الدين تكاليف وثقافة ليس غير، لكن حينما يستقيم الإنسان على أمر الله يلقي الله في قلبه سعادة، يلقي الله في قلبه سكينة، يلقي في قلبه رضا.

جمال القرب من الله يفوق كل جمال، أنا أقول: إن أهل الدنيا يتوهمون أن المؤمن ما ذاق أطيب ما فيها، بل هو يرى أن هؤلاء الذين غفلوا عن الله ما ذاقوا أطيب ما فيها، لقول بعض الملوك الذين أصبحوا عارفين بالله: "لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف".

الإنسان يحب الله، الله يحبه وهو يحب الله، لأنه خلقه هو يحبه، لأنه منحه نعمة الإيجاد هو يحبه، لأنه منحه نعمة الإمداد هو يحبه، لأنه منحه نعمة الهدى والرشاد إذاً هو يحبه، هو سخر له الكون تسخير تعريف وتسخير تكريم، ردّ فعل التعريف أن تؤمن، وتسخير التكريم ردّ فعله أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك.

الأستاذ عدنان :

دكتور العقل يمكن أن يسمو ويمكن أن يطغى، والفطرة يمكن أن تسمو أيضاً ويمكن أن تنطمس من خلال الجهل، والحب عندما يكون منطلقه فطرياً أو عقلياً يكون لكلٍّ اتجاه، ولكن المستوى مستوى الحب يختلف ما بين ما كان حباً من عقل، أو حباً من فطرة، ولكن قد تجتمع محبة الشيء من خلال العقل ومن خلال الفطرة أيضاً، فيغدو الكمال في مثل هذه الناحية وما أحلاه حينما يكون ذلك في الله عز وجل.

كلما ارتقى الإنسان أحبّ بعقله وكلما هبط مستواه أحبّ بحسه :

الدكتور راتب :

أريد أن أوضح أن هناك حباً عقلياً، وأن هناك حباً حسياً، وكلما ارتقى الإنسان أصبحت محبته عقلية، وكلما هبط مستواه أصبحت محبته حسية، مثلاً: أرأيت إلى طالب ينام طول النهار مرتاح، النوم مريح والاسترخاء مريح، لكن هذا الطالب الذي أراد أن يكون شيئاً مذكوراً في أمته لا ينام الليل، هو يحب السهر، يحب الدراسة، يحب القراءة، يحب أداء الوظائف بتفوق، يحب المدرسة، يحب المطالعة، يحب المسابقات، هو يحبها بعقله لأنها تحقق له في المستقبل نجاحاً كبيراً، فالإنسان إما أن يحب بحسه فيؤثر النوم والراحة، أحياناً هناك أكلات لها مذاق طيب لكنها مؤذية، المؤمن العاقل قد يأكل أكلة تعينه على العبادات، بينما آخر قد يأكل طعاماً يثبط عزيمته على أن يطيع الله عز وجل، الطعام الطيب يبغضه بعقله ويحب الطعام الخفيف، فكلما ارتقى الإنسان أحبّ بعقله وكلما هبط مستواه أحبّ بحسه.

مرة التقيت مع جراح قلب، وقُدم له طعام نفيس، ويحبه كثيراً، فاعتذر، فسألناه قال: لكثرة ما أرى من شرايين مسدودة أكره هذا الطعام، أكرهه بعقلي وأحبه بأحاسيسي، فالعقل أصل في التكليف، والعقل أحياناً يزهدك في شيء ويحببك بشيء آخر، مرة قلت: لو أن إنساناً راكباً دراجة، وصل إلى مفترق

طرق، الطريق الهابط كل شيء يدعوه إلى أن يسلكه، والصاعد متعب، لكن لمجرد أن يقرأ لافتة أن الطريق الهابطة على أنها مريحة، وعلى أن فيها أشجار وأزهار، لكنها تنتهي بحفرة ليس لها من قرار، والطريق الصاعدة فيها غبار، وأكمات، وحفر، تنتهي بقصر منيف، هذه اللوحة الصغيرة عند مفترق الطرق تعكس قراره، فيحب هذه الطرق المتعبة لأنها تنتهي بقصر، ويكره الطرق المريحة لأنها تنتهي بالهلاك، الإنسان العاقل يتعامل مع النص بينما غير العاقل يتعامل مع شيء آخر.

مثلاً أنت لك مبلغ ضخم في مكان، وركبت مركبة خرجت من المدينة فإذا كتب على ظاهر المدينة أن الطريق إلى هذه البلدة مقطوعة بسبب تراكم الثلوج طبعاً ترجع، لوحة صغيرة غيرت مسارك، نص صغير أربع كلمات، بينما لو أن دابة تمشي على هذا الطريق تقف في منتصفه عند الثلج، ما الذي حكم الدابة؟ الواقع، ما الذي حكم العاقل؟ النص، أوضح من ذلك إنسان أدمن على التدخين، لو أنه قرأ بحثاً علمياً، أو قرأ حكماً شرعياً، لكف عن التدخين قبل أن يصاب بمرض خبيث، أما عند المرض الخبيث يمتنع عن التدخين، لأنه أحبّ الدخان بأحاسيسه ولم يبغضه بعقله، بينما الإنسان العاقل يبغض التدخين بعقله، مع أنه فيما يتوهم يريح أحاسيسه، إذاً قضية الحب العقلي والحب الحسي مهمة جداً، الأبطال العظماء أحبوا بعقولهم وأبغضوا بعقولهم، والطبقة الدنيا من الناس أحبوا بأحاسيسهم وأبغضوا بأحاسيسهم، يستمتعون باللذائذ من دون إدراك للعواقب، ومن عقل الإنسان وتمام عقله أنه يتدبر الأمر قبل أن يقع فيه وينظر إلى عواقبه.

الأستاذ عدنان :

دكتور أحياناً يقال: فلان أحب فلاناً لله، وفلان أحب فلاناً مع الله، فارق كبير بينهما لكن النتائج تختلف هل لكم أن توضحوا؟

الحب في الله و الحب مع الله :

الدكتور راتب :

الحقيقة هناك حب في الله هو عين التوحيد، وهناك حب مع الله هو عين الشرك، أما الحب في الله أن تحب الله لأنه منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، الآن أنت تحب الله هذا حب أصلي، من فروع هذه المحبة أن تحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من فروع هذه المحبة أن تحب الصحابة الكرام جميعاً، من فروع هذه المحبة أن تحب التابعين وتابعي التابعين والعلماء، من فروع هذه المحبة أن تحب بيوت الله، من فروع هذه المحبة أن تحب القرآن الكريم وتلاوته، تتغنى به، من فروع هذه المحبة أن تحب أهلك الذين هم أقرب الناس إليك، فيمكن أن يتفرع عن محبتك لله آلاف الأنواع كلها

حب في الله، حب أخوانك المؤمنين، أن تتمنى للمؤمنين النصر، أن تتمنى لهم القوة، أن يؤلمك ما يؤلمهم، أن يفرحك ما يفرحهم، هذا حب في الله، هو عين التوحيد، محبة الله هي الأصل، يتفرع عنها أنواع لا تعد ولا تحصى من فروع المحبة، لكن الحب مع الله عين الشرك، إنسان بعيد عن الله يبني مجده على أنقاض الآخرين، تحبه طمعاً لما عنده، ولا تعبأ بأخطائه، ولا بانحرافه، ولا باستهزائه بالدين، هذا حب مع الله، حب دنيا، حب مصلحة، فلذلك المؤمن يداري بينما المنافق يداهن، وفرق كبير بين المداراة والمداهنة، الحب مع الله عين الشرك، أنا حينما أحب جهة لا يحبها الله، أحب جهة لا تنفع عباد الله، أحب جهة تبني مجدها على أنقاض الآخرين، أحب جهة لكنها قوية، لكنني أطمع أن أنال فيما عندها، لكنني أطمع أن آخذ مما في أيديها، لكنني أطمع أن أتقي شرها، هذا حب مع الله وهو عين الشرك، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لذلك قال تعالى :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآيات : 55-56]

أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيثما كان :

هؤلاء الأقوياء الذين يعبدهم الناس من دون الله خوفاً من بطشهم، أو طمعاً في نوالهم، هؤلاء لو علم المؤمنون أنهم بيد الله، وأن الله يحدد حركتهم، و أنه:

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر الآية : 62]

لَمَا أحبوهم محبة مع الله، فلذلك ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير، ولا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

الحب مع الله عين الشرك، أن تحب قوياً تطمع فيما عنده، أو تخشى أن يبطش بك، وتنسى أن الله بيده كل الأمور :

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة القصص الآيات : 45-46]

لذلك أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، هذا هو الحب مع الله، هو عين الشرك، وكلما ارتقى توحيد الإنسان كان حراً، وكلما ضعف توحيده أصبح تابعاً، لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، لا يليق بالإنسان أن يجير لغير الله، لا يليق بالإنسان أن يكون سيئة من سيئات عباد الله، هذا هو الحب

في الله والحب مع الله، لذلك المؤمن يحب المؤمنين، يحب كل عمل ينفع المؤمنين، يحمل همّ المؤمنين، يتألم لألمهم، يفرح لفرحهم، يفرح لانتصارهم، هكذا ينبغي أن نكون.

الأستاذ عدنان :

نسمع كلمتين المحبة والمودة هل من فارق بين الكلمتين؟

المودة سلوك يعبر به عن الحب :

الدكتور راتب :

حينما قال الله عز وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم الآية : 21]

العلماء قالوا: المودة سلوك يعبر به عن الحب، الحب شعور داخلي، ميل، المودة ابتسامة، المودة هدية، المودة اعتذار، المودة مصالحة، ما دام هناك حب الحب يعبر به بالود، فلذلك الود بين الزوجين أساس علاقة الزوجين، والمودة بين المؤمنين أساس العلاقة بين المؤمنين، بل إن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم الآية : 69]

إما أن يكون الود بينهم وبين الله، أو يجعل الله لهم فيما بينهم وداً.

الأستاذ عدنان :

الحقيقة الحديث عن موضوع الحب غني كبير في هذا النطاق، والله تعالى حينما خلق مخلوقاته خلقهم، وأحبهم، وجعل فيهم من الإعجاز الشيء الكثير، فإن تابعنا معكم موضوع الإعجاز لنستطلع شيئاً جديداً فماذا تقدمون لنا؟

الإعجاز العلمي :

على الإنسان أن يفتخر لا بصفة مادية هي فيه و بغيره بل بما خُلق له :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان الإنسان يظن أنه المخلوق الأول، هو في الحقيقة المخلوق الأول، لكن ما من صفة مادية في الإنسان إلا وفي الحيوان ما يفوقه بها، فلذلك الطيور ولنأخذ عليها مثل النعامة، هذه النعامة إذا

دخلت بسباق مع الإنسان، وإذا كان بمقدور بطل الأولمبيات أن يعدو بسرعة تسعة وثلاثين كيلو متراً في الساعة فإن سرعة النعامة تصل إلى ستين كيلو متراً في الساعة، النقطة الدقيقة أن قيمة الإنسان بإيمانه، قيمة الإنسان بعقله، قيمة الإنسان باستقامته، قيمة الإنسان بعمله، فإذا افتخر بصفة مادية فيه، ما من صفة مادية في الإنسان إلا وفي الحيوان ما يسبقه بها، فهذه النعامة سرعتها ستين كيلو متراً في الساعة، تقطع النعامة بساقيها الطويلتين مسافة ثلاثة أمتار في الخطوة الواحدة، فينبغي أن يزهو الإنسان بما خلق له.

هناك شيء آخر؛ البطريق هذا الطائر القطبي يمشي على رجلين، وقد يزحف على بطنه، لكنه إذا دخل في البحر سرعته تفوق سرعة أكبر عدّاء في السباحة ثلاثة أضعاف الرقم الأولمبي للسابحين، إذاً التعريف الدقيق أنه ما من صفة مادية في الإنسان إلا وفي بقية المخلوقات ما يفوقه بها، مثلاً الكلب شمه مليون ضعف عن شم الإنسان، الصقر يرى طعامه وهو في أعالي الجو، قوة إبصاره ثمانية أضعاف:

(قَالَ رَبُّنَا أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه الآية : 50]

الإنسان عليه أن يفتخر لا بصفة مادية هي فيه وفي بقية المخلوقات ما يفوقه بها، عليه أن يفتخر بما خُلق له، هو خلق لإعمار الأرض، خلق لإحقاق الحق، خلق لإبطال الباطل، خلق لخدمة الخلق، خلق ليعرف الله، ليتبع أمره، فلذلك قضية الافتخار بصفات مادية في الحياة هذه لا تقدم ولا تؤخر، ينبغي أن تفتخر بصفة متصلة بما خلقت له.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (18-30) : مكانة الحكمة وأثرها في المجتمع والفرد ـ تناقض نظرية التطور مع منهج الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:

دكتور يقول الله عز وجل في كتابه العزيز :

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية : 269]

وقالت العرب: "أرسل حكيماً ولا توصف"، إذاً الحكمة لها في الميدان الاجتماعي تعاملاً وصلة أثر كبير في حياة الإنسان فرداً، أو في حياته ضمن المجتمع، إذا أردنا أن نتحدث عن مكانة الحكمة وأثرها في المجتمع والفرد، فماذا يمكن أن نقول؟

لا يستقيم في عقيدة المؤمن أن يقع في ملك الله ما لا يريد :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان هناك مقولة رائعة هي: كلُّ شيء وقعَ أرادهُ الله، وكلُّ شيء أراده الله وقعَ، لأنه لا يستقيم في عقيدة المؤمن أن يقع في ملك الله ما لا يريد، كلُّ شيء وقعَ أرادهُ الله، وكلُّ شيء أراده الله وقعَ، أما معنى أراده أي سمح به، الله عز وجل يريد أن يسمح ولكن لم يرضَ إن كان الشيء غير صحيح ولم يأمر، أراد ولم يأمر، أراد ولم يرض، هذه النكبات التي تقع، وقعت وسمح الله لها أن تقع، لكنه لم يأمر بها، ولم يرضَ بها، وإرادةُ الله متعلّقةٌ بالحكمة المطلقة، هنا الشاهد، ما الحكمة المطلقة؟ أن الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، أن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، كلُّ شيء وقعَ أرادهُ الله، وكلُّ شيء أراده الله وقعَ، وإرادةُ الله متعلّقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمتُه المطلقةُ متعلقةٌ بالخير المطلق، ليس في الكون شر مطلق، الشر المطلق يتناقض مع وجود الله، هناك شر نسبي موظف للخير المطلق،

فالحكيم هو الله، وحكمته مطلقة، والذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، والذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، والدليل:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47))

[سورة القصص الآية : 47]

يوجد آية أخرى :

(مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134))

[سورة طه الآية : 134]

على الإنسان أن يفهم حكمة الله فيما يجري :

إذاً الله عز وجل هو الحكيم، وكل الكون ينطق بحكمته، لكن هذه الحكمة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها، وقد نعرفها بعد حين، فهذا يدعو إلى التفاؤل، ويبتعد بنا عن الحقد، يبتعد بنا عن اليأس، عن الإحباط، لهذا الكون إله عظيم، لا يقع شيء إلا بحكمته، وبإرادته، وبعلمه، ولذلك ينبغي أن نرد الكرة إلى ملعبنا، أن نقول: لماذا حصل الذي حصل؟ أستاذ عدنان أحياناً يتألق ضوء في لوحة البيانات في مركبتك، والعبرة أن تفهم لماذا تألق، قد نفهمه تألقاً تزيينياً فيحترق المحرك، أما إذا فهمناه تألقاً تحذيرياً نوقف المركبة، نصب الزيت، يسلم المحرك، نتابع الرحلة، إذاً ينبغي أن نفهم حكمة الله فيما يجري.

أكبر عطاء من الله لعبده المؤمن هو الحكمة :

ولكن هذا المؤمن الذي آمن بالله، واستقام على أمر الله، ما هي الثمرات لإيمانه؟ أنت قد تجد إنساناً مؤمناً يأكل، ويشرب، ويعمل، وإنساناً آخر لا يؤمن بشيء، يأكل، ويشرب، ويعمل، لابدّ من فرق جوهري بين الرجلين، الله عز وجل يمنح المؤمن الحكمة كما تفضلت:

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية : 269]

مثلاً: " إنّ بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمّارها، فطُوبى لِعَبْدٍ تطهّر في بيته ثمّ زارني، وحُقّ على المزور أن يُكْرِم الزائر" . أنا أريد أن أفهم ما معنى أن يكرم الله عبداً؟ الأغنياء غارقون في النعم، الأغنياء غير المؤمنين غارقون في النعم، ما معنى أن يكرم الله عبده المؤمن، إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال، للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدره لأصفيائه المؤمنين، المؤمن أولى ثمار إيمانه الحكمة:

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية : 269]

الإنسان بالحكمة يسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، ومن دون حكمة يشقى بزوجة من الدرجة الأولى، بالحكمة يجمع حوله الأصدقاء، ومن دون حكمة ينفر من حوله، بالحكمة يدبر أمره بدخل محدود، ومن دون حكمة يكون المال وبالاً عليه، لذلك أنا أرى أن أكبر عطاء من الله عز وجل من دون استثناء لعبده المؤمن هو الحكمة، بالحكمة يتعرف إلى الله، بالحكمة يؤثر طاعة الله، بالحكمة يطبق منهج الله في حياته الزوجية، بالحكمة يطبق منهج الله في كسب ماله، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق]

قال بعض العلماء: من يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي، من يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم، من يتق الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من الغنى المطغي أو من الفقر المنسي، من يتق الله في معرفة ربه يجعل الله في قلبه سعادة متنامية إلى ما شاء الله، إذاً أنت حينما تتعرف إلى الله، وتتقي أن تعصيه، بل تبادر إلى عمل صالح يقربك إليه تكون حكيماً، فالحكمة ضالة المؤمن، والحكمة يتميز بها المؤمن.

الحكمة من المكافآت الكبرى للمؤمن من الله تعالى :

أستاذ عدنان أذكى البشر إذا انقطعوا عن خالقهم يرتكبون حماقات لا يرتكبها الحمقى، الدليل:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

[سورة محمد الآية : 1]

والله المنقطعون عن الله، الشاردون عن الله، لهم أعمال في منتهى الحماقة، في منتهى الخطأ، يخربون بيوتهم بأيديهم، يحفرون قبورهم بأيديهم، يبددون سعادتهم بأيديهم، فلذلك أكبر عطاء إلهي لهذا المؤمن أن يهبه الحكمة، والحكمة تؤتى ولا تؤخذ:

(وَمَن يُؤْتَ)

أي إذا انقطع الإنسان عن الله لا سبيل إلى أن يكون حكيماً، والله يجعل هذه الحكمة من المكافآت الكبرى للمؤمن، هي الحكمة أن تفعل ما ينبغي، إذا دخلنا في تعريف الحكمة: أن تفعل ما ينبغي بالقدر الذي ينبغي وبالوقت الذي ينبغي ومع من ينبغي، من الصعب أن نعطي تعريفاً جامعاً للحكمة ومانعاً، لكن مثلاً لو أردت أن أضع مفتاحاً للمصباح الكهربائي لو وضعته بمستوى سطح الأرض شيء متعب أن أنحني ليتألق المصباح، لو وضعته في أعلى الحائط شيء متعب أحتاج إلى سلم، لكن مكانه الطبيعي

بارتفاع كتف الإنسان، يستخدم يده لتألق المصباح وهو واقف، لذلك كل شيء له حكمة، لو وسعنا هذا المثل بالإنفاق هناك حكمة، بتناول الطعام والشراب هناك حكمة، بالعلاقات بالآخرين هناك حكمة، بالتوازن بين العمل وبين الراحة هناك حكمة.

الأستاذ عدنان:

يمكن أن تتناقض الحكمة أحياناً في بعض ظواهرها، مثال: إنسان يريد أن ينفق في سبيل الله، ينفق ويجعل لنفسه قسماً من أمواله يصرفه على نفسه وعياله وأولاده، لكن إنساناً آخر يقول: من الحكمة أن أجعل كل شيء في سبيل الله، فينفق كل أمواله في سبيل الله، مظهران متغايران والحكمة هي المطلوبة.

الإسلام وسط في الدنيا والآخرة :

الدكتور راتب:

لكن نحن لنا مرجع هو القرآن الكريم، قال تعالى :

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة الآية : 195]

إن لم تنفقوا، معنى معاكس:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

إن أنفقتم مالكم كله، معنى ذلك :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (67))

[سورة الفرقان الآية : 67]

نحن معنا مرجع دائماً الكتاب والسنة يدلنا على الصواب، الإنسان باجتهاده الشخصي قد يخطئ، لكن الله عز وجل أكرم وأجل من ألا يقبل اجتهاد مؤمن أراد القربى منه، ولكن دائماً الحق أحق أن يتبع، أنا لا أستطيع أن أنفق مالي كله ثم أجعل أهلي بحاجة إلى أشياء أساسية، مستحيل فلابدّ من أن أكون حكيماً في حركتي في الحياة، بل إن الإسلام وسطي أساسه، الإسلام وسط في الدنيا والآخرة، في الحاجات والقيم، في المبادئ والمثل العليا، فأنا حينما أتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي الكريم هو الإنسان الكامل، وقد خلق الناس ليكونوا على شاكلة هذا النبي:

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أنا لا أريد لإنسان أن يزايد على الدين، الدين منهج قويم، والنبي أعطى كل شيء حقه:

((إن لربك عليك حقاً، و لنفسك عليك حقاً، و لأهلك عليك حقاً، فأعطِ لكل ذي حق حقه))

[أخرجه البخاري عن عون بن أبي جحيفة]

الحكيم من أعطى كلّ ذي حقٍ حقه :

الحكمة أن تعطي كل ذي حق حقه، النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده بينما أمته معصومة بمجموعها، فنحن نرجو ألا نجتمع على خطأ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام وحده معصوم بمنهجه، فأي إنسان قلد النبي في حياته تألق،وأي إنسان خالف منهج الله عز وجل، ومنهج النبي أثار حوله جدلاً طويلاً، فلذلك قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية : 33]

أي ما دامت سنة النبي عليه الصلاة والسلام قائمة في أعمالنا، في أفراحنا، في أتراحنا، في حلنا، في ترحالنا، في علاقاتنا، في كسب أموالنا، في إنفاق أموالنا، لن نعذب أبداً:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

الإنسان الحكيم إنسان يتحرك وفق منهج الله عز وجل :

التطرف شيء خطير جداً، التطرف في الإنفاق، في اقتناص الشهوات، كل شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فالحكمة أن تتحرك وفق منهج الله، الحكمة أن تستخدم عقلك كمقود، ومحرك المركبة كقوة دافعة، والطريق كمنهج، هذه الحكمة، أي أن تحقق الهدف من وجودك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق الآية : 12]

عندما تؤمن أن علم الله يطولك، وأن قدرته تطولك، تكون حكيماً، أي تطبق منهج الله عز وجل .

الأستاذ عدنان:

دكتور من الناس من يقول: أنا أود أن أقول كلمتي ولكن بحكمة، لم أرَ الوقت مناسباً، لم أجتمع بالأشخاص المناسبين، وما إلى ذلك، في القرآن الكريم:

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

هنا أمر أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام قد وضح كل شيء بشكل علني وواضح، وأن يُعرض أيضاً عن المشركين، كيف نوفق بين هذين المشهدين إن صحّ القول في أمر الحكمة حيث إنها يجب أن تكون في ميدان الحق؟

النظام الإسلامي نظام الضرورات والحاجات والمحسنات :

الدكتور راتب:

سيدنا عمر يقول: "ليس بخيركم من عرف الخير، ولا من عرف الشر، ولكن من عرف الشرين، وفرق بينهما، واختار أهونهما".

أحياناً يقتضي أن تسكت، الحكمة تقتضي أن تسكت، وأحياناً الحكمة تقتضي أن تعلن رأيك، هناك قاعدة: "إذا ظهر من إنكار المنكر فتنة أشد من الذي تنكره ينبغي آلا تنكر"، هنا نعود إلى المقاصد الشرعية، والمقاصد الشرعية رائعة جداً، عندنا ضرورات وحاجات ومحسنات، فهي مرتبة ضرورات، حاجات، محسنات، الآن هناك قوائم، هناك خطوط عرضية، عندنا الدين، الحياة، العِرض، العقل، المال، أنا دائماً أضحي بالدنيا من أجل العليا، وأضحي بالتي على اليسار من أجل التي على اليمين، أنا أضحي بتحسين في حياتي من أجل حاجة، بل أضحي بحاجة من أجل ضرورة، الحياة ضرورة وينبغي أن أعرض زوجتي على طبيب، الأولى أن تكون طبيبة، لكن لو أن الطبيب وحده مختص بهذا المرض أنا أضحي بحاجتي إلى أن ألتزم بأحكام إبداء العورة، وأعرضها على طبيب، فأنا دائماً أضحي بالعمود الأيسر من أجل العمود الأيمن، وأضحي بالخط السفلي من أجل الخط العلوي، أي أضحي بالمال من أجل عِرضي، أضحي بالمال من أجل عقلي، أضحي بحياتي من أجل ديني، فهذا النظام نظام الضرورات والحاجات والمحسنات، ونظام مقاصد الشريعة الكبرى؛ الدين، والحياة، والعِرض، والعقل، والمال، أتحرك، لذلك يقول سيدنا عمر: "ليس بخيركم من عرف الخير، ولا من عرف الشر، ولكن من عرف الشرين وفرق بينهما واختار أهونهما".

هذه إجابة سؤالكم.

الأستاذ عدنان:

دكتور هذا يدخل ضمن نطاق أيضاً الحكمة أنها معرفة وتطبيق.

الحكمة أن يطبق الإنسان ما يعلم :

الدكتور راتب:

هذا الموضوع كان عند الفلاسفة، أي سهل جداً أن يمتلئ الذهن بالمعلومات، ولكن هذه المعلومات ليست هدفاً بذاتها، والأصل أن العلم بالأصل ليس هدفاً بذاته، العلم وسيلة، وحينما يغدو هدفاً بذاته نقع في خطأ كبير، العلم ما عُمل به، فإن لم يعمل به كان الجهل أولى، كيف؟ لو أن إنساناً مصاباً بمرض جلدي، وعلاجه الوحيد التعرض لأشعة الشمس، جلس في غرفة قميئة مظلمة، فيها رطوبة، أشاد بأشعة الشمس قال: يا لها من شمس ساطعة! ما أروعها من شمس! ما أفضلها في معالجة الأمراض! ما لم يخرج من هذه الغرفة القميئة ويتعرض لأشعة الشمس فمديحه للشمس لا قيمة له إطلاقاً، هذه مشكلتنا، العلم ما عُمل به فإن لم يعمل به كان الجهل أولى، لذلك حال واحد في ألف أبلغ من قول ألف في واحد، فالإنسان حينما يطبق هذا المنهج يكون في حال آخر، لذلك الدين العلاقة معه علاقة تمجيد سهلة، علاقة إعجاب سلبي سهلة، علاقة ثناء سهلة، علاقة أن تقول: نحن من أمة النبي عليه الصلاة والسلام القضية سهلة، أن تقول في خطاب: كنتم خير أمة أخرجت للناس سهلة، أما أن تعيش أحكام هذا الدين، هذا الذي ينشر الإسلام، وأنا أقسم بالله لو أن الصحابة الكرام فهموا الإسلام كما نفهمه نحن لما خرج من مكة، الإسلام وحي السماء، الإسلام معه تأييد الله، معه نصر الله، الآيات واضحة:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)

[سورة النور الآية : 55]

هل نحن آمنون ؟ والله لسنا مستخلفين، ولسنا ممكنين، ولسنا آمنين، لأنه:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم الآية : 59]

وقد لقي المسلمون ذلك الغي. إذاً الحكمة أن تطبق ما تعلم.

الأستاذ عدنان:

في الكتاب والسنة يوجد أشياء كثيرة لنسير من خلالها.

الحكمة عطاء كبير من الله لا يمكن أن نأخذه من دون اتصال به :

الدكتور راتب: قال تعالى :

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

[سورة الجمعة الآية : 2]

الحكمة هي السنة، القرآن فيه إجمالي في كليات الدين، لو أن القرآن الكريم فيه تفاصيل الدين لكان عشرين ألف صفحة، أما القرآن الكريم فيه كليات الدين، وجاءت سنة النبي عليه الصلاة والسلام لتبين تفاصيل الشريعة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (44))

[سورة النحل الآية : 44]

إذا جاءت الحكمة مع الكتاب فهي السنة، وإذا جاءت مع العلم فهي التطبيق، وإن جاءت مع عطاء الله أن تفعل ما ينبغي بالقدر الذي ينبغي، مع من ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي، أي أن تضع الشيء في نصابه، أن تعطي كل شيء حقه، وهي عطاء كبير من الله لا يمكن أن تأخذه من دون اتصال بالله:

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية : 269]

والشواهد أن الذين شردوا عن الله عز وجل، وارتكبوا حماقات لا تعد ولا تحصى، شواهد كثيرة جداً، أنا مؤمن إيماناً يقينياً أن المنقطع عن الله يحفر قبره بيده، ويخرب بيته بيده، ويجعل حياته الزوجية شقية بيده، ودائماً البعيد عن الله يشقى ويشقي، يرتكب حماقة ويحمل على ارتكاب حماقة، لذلك نفتقد الحكمة، الحكمة تقابلها السعادة، يقابلها التأييد، يقابلها النصر.

الأستاذ عدنان:

دكتور الحكمة لها ثمار كثيرة إذا أجملنا القول في آثارها.

آثار الحكمة :

الدكتور راتب:

أستاذ عدنان الحكمة دليل كمال العقل، العقل يطغى أحياناً، كمال العقل أن تنطق بالحكمة، كمال العقل أن تتصرف بالحكمة، الحكمة تاج الكرامة، الحكيم مكرم والأحمق مهان، الحكيم يمدح والأحمق يذم، الحكيم يحب والأحمق يبغض، الحكمة تاج الكرامة، الحكمة كمال العقل، وبالحكمة تدرأ أخطاراً لا تعد ولا تحصى، كم من خطأ كبير بدأ بكلمة نابية؟ بدأ بموقف أرعن؟ بدأ بموقف غير حكيم؟ فلذلك المؤمن محفوظ، والله عز وجل يقول:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال الآية : 19]

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة الآية : 153]

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ)

[سورة النحل الآية : 128]

هذه المعية الخاصة تعني الحفظ، والتأييد، والنصر، والتوفيق، لذلك الحكمة يدرأ بها الإنسان أخطار كثيرة، قلت قبل قليل: بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، وبغير الحكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، بالحكمة تربي أولادك، بغير الحكمة يكون الأولاد أعداءً لك، فهذه نتائج دقيقة جداً، لكن بالنهاية الحكمة سمة الأنبياء والصالحين، الله عز وجل أعطى الملك لمن يحب، ولمن لا يحب، إذاً ليست مقياساً، أعطى المال لمن يحب، ولمن لا يحب، لكنه ما أعطى الحكمة إلا لمن يحب:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة القصص الآية : 14]

هي مكافأة من الله أن تكون حكيماً.

الأستاذ عدنان:

دكتور ومن الحكمة أن نتابع معكم موضوع إعجاز الله في خلقه، هذا الإعجاز يجعلنا نتحرق من أجل الحكمة التي توصلنا إلى الله عز وجل.

الإعجاز العلمي :

تناقض نظرية التطور مع منهج الله عز وجل :

الدكتور راتب:

لكن أريد أن أبين حقيقة خطيرة أن الإنسان أحياناً يعتقد بشيء غير صحيح كلياً لأنه يريحه، ويرفض حقيقة صادقة يقينية لأنها تزعجه، فاعتقاد الناس لا علاقة له بمصداقية ما يعتقدون. أضرب مثلاً، إنسانان أرادا شراء سيارة، أحدهما اشترى والثاني لم يشترِ، سرت إشاعة في البلد، أن هناك قانون يخفض الرسوم إلى النصف، الذي اشترى يكذب هذه الإشاعة من دون تحقيق، لأن تكذيبها يريحه، مع أن نظرية دارون سقطت في الوحل لكن معظم الناس متمسك بها لأنها تريحه من المسؤولية، الذين يؤمنون بهذه النظرية والحديث عن الطيور أن هذه الكائنات تتوالد بعضها من بعض بمحض المصادفات، وهذه الألوان، وهذا الإبداع في هيكلها، وهذا الإبداع في خصائصها، وطيرانها، وهجرتها، هذا كله ليس داخلاً في حسابات التطوريين، فلذلك قضية أن نؤمن بنظرية التطور يتناقض مع منهج الله عز وجل، وهذا يُحدث انفصاماً عند الإنسان، يفتح القرآن يجد أن البشرية بدأت بآدم وحواء، يفتح بعض الكتب العلمية فإذا نظرية التطور تتصدر هذه الكتب، لذلك في موضوع الطيور يعتقد من يؤمن بهذه النظرية أن الطيور كانت زواحف، الزواحف فيها حراشف، الزواحف لها أيد وأرجل وذنب طويل،

الطيور لها نوع آخر، أين هذا المخلوق الانتقالي؟ هناك مستحاثات منذ ثلاثمئة وخمسين مليون عام، الطير قبل ثلاثمئة مليون عام كالطير الحالي، لذلك أحياناً أردت من هذه الملاحظة العابرة أن نعتقد أنه قد نصدق شيئاً غير صحيح لكنه يريح الإنسان راحة ظاهرية، وقد نكذب حقيقة صارخة لأنها تزعج الإنسان، فالبطولة ألا ننساق في تصرفاتنا مع ما ينقل إلينا من دون تمحيص، دائماً العوام يأخذون ما يأتيهم عفو الخاطر، بينما الأذكياء والموفقون هؤلاء لا يتصورون إلا تصوراً مطابقاً للواقع، ومن أدق تعريفات العلم: الوصف المطابق للواقع مع الدليل، أو علاقة مقطوع بصحتها، أي ليست شكاً، ولا ظناً، ولا وهماً، تُطابق الواقع، عليها دليل، فإذا ألغي الدليل أصبح العلم تقليداً، وإذا ألغي الواقع أصبح العلم جهلاً، وإذا ألغي القطع أصبح العلم ظناً، أو وهماً، أو شكاً.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (19-30) : السكينة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

اللهم يا رب هب لنا السكينة ، موضوعنا السكينة ، فالسكينة هدوء في النفس والأعصاب وارتياح ، وكل ما في هذه الكلمات من معنى ، وحتى لا أقول عن السكينة كلمات مترابطة أترك تعريفها ضمن المعنى الاصطلاحي لكم.

طريق السكينة طريق واحد وهو ذكر الله والإقبال عليه :

الدكتور راتب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، أستاذ عدنان على وجه الأرض ستة آلاف مليون من بني البشر ، ما منهم واحد إلا ويبحث عن سلامته وسعادته ، والسعادة محلها القلب ، فالقلب قد يشعر بسعادة يطير من خلالها ، وقد يشعر بضيق يدفع نفسه إلى الموت انتحاراً من شدة الضيق ، فهذا القلب موطن السعادة والشقاء ، موطن الرضا والسخط ، موطن الحب والكراهية ، السكينة مصطلح قرآني في أدق تعاريفها ما يجده القلب من طمأنينة ، قال تعالى :

(أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية : 28)

أي طريق السكينة طريق واحد ، أن تذكر الله ، أن تقبل عليه ، أن تتوكل عليه ، لأنه وحده المعطي ، المانع ، الرافع ، الخافض ، المعز ، المذل ، مصدر السكينة اتصالك بالله:

(أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية : 28)

السكينة أحد أكبر ثمرات الإيمان بالله عز وجل :

الحقيقة الإنسان إذا أعرض عن الله ضاق قلبه ، وشعر بالاضطراب ، وشعر بالقلق ، وشعر بالخوف ، وأصبح وضعه مرضياً ، الصحة النفسية أن تتصل بالله ، فلذلك بين المؤمن الذي اتصل بالله وهو يشعر

بالسكينة ، وبين الذي شرد عن الله وانقطع عنه فامتلأ قلبه قلقاً ، و ضيقاً ، وإحباطاً ، مسافة كبيرة جداً، الحقيقة السكينة ـ وهذا من أخطر ما يقال فيها ـ يسعد بها الإنسان ولو فقد كل شيء ، وجدها أهل الكهف بالكهف ، كانوا في القصور ، وجدها سيدنا يونس في بطن الحوت ، وجدها النبي عليه الصلاة والسلام في الغار :

(ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

(سورة التوبة)

قد يجدها الإنسان في أصعب ظروف حياته ، وقد يفتقدها وهو في قمة الدنيا ، في قمة البحبوحة ، في قمة المال ، في قمة القوة ، شيء عجيب كما أن الحكمة أحد أكبر ثمرات الإيمان كذلك السكينة أحد أكبر ثمرات الإيمان ، هي سعادة الإنسان بربه ، هي شعوره أنه في حمى الله عز وجل ، في عين الله عز وجل .

الإنسان يسعد بالسكينة ولو فقد كل شيء ويشقى بفقدها ولو ملك كل شيء :

النقطة الدقيقة قد يجد الإنسان السكينة وهو في السجن ، كما وجدها سيدنا يوسف، وفي الغار كما وجدها النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي النار كما وجدها إبراهيم عليه السلام:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء الآية : 69)

وقد يفتقدها وهو في أفخر بيت ، وفي أرفه مركبة ، وفي أجمل حديقة ، إذاً يسعد بها الإنسان ولو فقد كل شيء ، ويشقى بفقدها ولو ملك كل شيء ، هذا الذي قاله بعض العارفين بالله : "لو يعلم الملوك ما نحن عليه من السعادة والسكينة لقاتلونا عليها" .

عطاء الله قد يكون مرئياً ، وقد يكون غير مرئي ، الله عز وجل يعطي الصحة ، يعطي زواجاً سعيداً ، يعطي مالاً تشتري به بيتاً ، يعطيك أحياناً شيئاً لا يرى بالعين ، يعطيك طمأنينة ، يعطيك توازناً ، يعطيك حكمة ، السكينة أحد ثمرات الإيمان الكبيرة التي يهبها الله لعبده المؤمن ، لأنها جزاء استقامته ، وإقباله ، وإحسانه للخلق .

الأستاذ عدنان :

دكتور لعل تعريف السكينة من خلال اللغة يعطينا شيئاً يترافق مع هذا المعنى الاصطلاحي الذي ذكرتموه ، فمثلاً كلمة مسكناً ، كلمة بيت ، منزل ، مقطن ، وما إلى ذلك ، كان العرب في القديم يطلقون كلمة بيت على المكان الذي يكون للمبيت ، الدار هي التي في شكلها الخارجي مدورة ، مسكن

للذي يسكن فيجد الراحة الكاملة فيه ، منزل للذي ينزل في مكان من سفر ، إذاً موضوع السكينة موضوع يدل على خصوصية في الراحة الكاملة لهذا الإنسان .

السكينة من السكون والسكون من الطمأنينة والطمأنينة من السعادة :

الدكتور راتب :

يدل على السكون ، الإنسان حينما يضطرب يتحرك ، يتحرك حركة عشوائية ، أما حينما يسعد يسكن، فكأن السكينة والسكون من أصل واحد ، الحقيقة أن السكينة شيء يمكن أن يذوقه المؤمن لمجرد أنه اصطلح مع الله ، إذا رجع العبد إلى الله ، نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

بل إن الله عز وجل ذكر في معرض آياته الدالة على عظمته في الزواج قال تعالى :

(وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى الآية : 29)

(وَمِنْ آَيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت الآية : 37)

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

فكيف يسكن الرجل إلى زوجته ؟ لأنه يكمل نقصه بها ، يكمل نقصه العاطفي بها، وكيف تسكن هي إلى زوجها لأنها تكمل نقصها القيادي به ، إذاً الزوجان يحسان بالسكينة لأن كل طرف مفتقر إلى ما عند الطرف الآخر ، إذاً السكينة من السكون ، والسكون من الطمأنينة ، والطمأنينة من السعادة ، ولا سعادة إلا بالاتصال بالله ، والدليل قول الله عز وجل:

(أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية : 28)

والسكينة طمأنينة القلب .

الأستاذ عدنان :

دكتور في قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

(سورة الفتح الآية : 4)

إلى جانب :

(أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية : 28)

هذا يشير إلى أن الإيمان وذكر الله يزيد سكينة في قلوب المؤمنين ، إذاً للسكينة درجات يمكن أن نتابعها مع شرح الآية الكريمة .

أنواع الهداية :

الدكتور راتب :

بادئ ذي بدء ، هداية الله أنواع عديدة ، من أنواعها هداية المصالح ، أعطانا الله عز وجل سمعاً ، وبصراً ، وفكراً ، وتوازناً ، وآليات معقدة جداً من أجل ضمان سلامتنا ، هذه الهداية الأولى لكل الخلق، تشمل الكائنات كلها ، لكن هناك هداية الوحي ، الله عز وجل أوحى إلى أنبيائه كتباً من أجل هداية الخلق، الهداية الثالثة : هداية التوفيق ، الإنسان حينما يختار منهج الله ، حينما يختار طاعة الله ، يعنيه الله على اختياره ، هذه :

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13))

(سورة الكهف)

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت الآية : 69)

السكينة تزيد الإيمان قوة :

لمجرد أن تتخذ قراراً بالتوبة ، أو بالصلح مع الله بالتعبير المعاصر ، أو بطاعة الله ، أو باتباع منهج الله ، تأتي عناية الله فتسهل لك تنفيذ هذا القرار ، تحبب الإيمان إلى قلب المؤمن ، تبغض إليه الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، هذه معاونة الله عز وجل ، إنهم فتية اتخذوا قراراً بالإيمان ، هذا من عندهم ، من عند الله وزدناهم هدى ، فلذلك السكينة من نتائجها الدقيقة أنها تزيد الإيمان قوة ، الحقيقة الذي يشد الإنسان إلى الدين ليس أن الدين قدم للإنسان تصوراً دقيقاً ، وعميقاً ، ومتناسقاً للكون ، والحياة ، والإنسان ، ليس أن الدين قدم تفسيراً لكل ما تقع عليه العين ، الدين فوق ذلك يعطي الإنسان شحنة روحية ، الإنسان حينما يتصل بالله يأخذ قوة روحية ، ويرى أن الله يعامله معاملة من نوع آخر :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور الآية : 48)

يعامله بالحفظ ، يعامله بالتأييد ، يعامله بالنصر ، إذاً هذا الذي يزيد الإيمان إيماناً، أنك حينما اتصلت بالله رأيت معاونة من الله ، أو بتعبير آخر معاملة جديدة ، هو الذي يزيد الإيمان وقد قيل : إن الدعاء المستجاب يزيد الإيمان ، أنت حينما تدعو الله ، وتعلم أن استجابة الدعاء لا تكون إلا بفعل من الله عز وجل ، ويستجيب الله لك ، تزداد ثقة بعظمة الله، وبأنه يحبك ، وبأنه يسمعك ، وبأنه ينفذ الذي ترنو إليه.

درجات السكينة :

1 ـ الخشوع :

على كلٍّ درجات السكينة درجات كثيرة ، أحد هذه الدرجات درجة الخشوع في الصلاة ، الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها بل من فرائضها :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون الآية : 2)

أنك تقف بين يدي الله عز وجل ، لكن الذي له معاص وآثام محجوب عن الله ولو توضأ ، ووقف ، وركع ، وسجد ، إذا سبق الصلاة استقامة ، وانضباطاً ، وإحسان لخلق ، عندئذ يستطيع إذا وقف بين يدي الله عز وجل أن يتصل به ، وأن تتنزل على قلبه السكينة في أثناء هذا الاتصال ، وهذا هو الخشوع في الصلاة أحد درجات السكينة .

2 ـ الطمأنينة :

هناك درجة أخرى عند الاضطراب ، عند الفزع ، عند الاجتياحات ، عند الحروب ، عند المقلقات ، عند المصائب الكبيرة ، عند النوازل ، الناس ينهارون ، يفقدون وعيهم ، الآية الكريمة :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

(سورة الحج الآية :2)

والله أعرف أستاذ عدنان امرأة أصاب بلدتها زلزال ، فحملت وليدها الرضيع وانطلقت خارج البيت من شدة فزعها ، فلما وصلت إلى الطريق لم يكن الذي حملته وليدها .

الأستاذ عدنان :

هل كانت وسادة ؟

الدكتور راتب :

لا ، حذاء زوجها :

(وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

فالمؤمن عند الشدائد ، عند الأزمات ، عند النوازل ، تأتي السكينة فتثبته ، يكون هادئاً مطمئناً هذه الدرجة الثانية ، درجة في الصلاة هي الخشوع ، ودرجة في النوازل والنكبات هي الطمأنينة .

3 ـ الرضا بما قسم الله لك :

ولها مرتبة أخرى الإنسان أعطاه الله وجوداً ، أعطاه الله لهذا الوجود خصائص وصفة ، فالإنسان له شكل معين ، له إمكانات معينة ، ولد من أسرة معينة ، في بيت معين ، في مكان معين ، في زمان معين ، في مستوى طبقي معين ، قد يولد فقيراً ، قد يولد غنياً ، هذا واقع الإنسان ، السكينة حيال هذا الواقع الرضا بما قسمه الله لك ، ليس معنى الرضا أن تقعد عن طلب المزيد ، لا ، أما حينما تبذل قصارى جهدك لكي ترقى بمستواك ثم لا تستطيع ارضَ عن الله ، فالسكينة إحدى درجاتها الخشوع في الصلاة ، وإحدى درجاتها الطمأنينة في أثناء النوازل والنكبات ، وإحدى درجاتها حينما ترضى بما قسم الله لك .

إنسان كان يطوف حول الكعبة يقول : يا رب ، هل أنت راضٍ عني ؟ كان الإمام الشافعي يمشي وراءه، قال له : " يا هذا ، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال له: سبحان الله ! من أنت ؟ قال : أنا محمد بن إدريس ، قال : كيف أرضى عن الله وأنا أتمنى رضاه ؟! قال : إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله " .

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين . فلذلك درجات السكينة كما ذكر .

الأستاذ عدنان :

دكتور ما شرح الآية الكريمة :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ)

السكينة محلها القلب :

الدكتور راتب : الحقيقة أن الله عز وجل من قوله :

(هُوَ)

أي أن السكينة بيد الله وحده ، يعطيها لعباده المؤمنين :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)

إذاً السكينة محلها القلب ، يوجد بقلب المؤمن من الطمأنينة صدق ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

هو مؤمن بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله ، وأنه خالق هذه الأكوان ، ورب العالمين ، والمسير ، وأسماؤه حسنى ، وصفاته فضلى ، لكن كلما ألقى الله في قلب المؤمن هذه السكينة ازداد سعادة بالله ، وازداد معرفة به ، وازداد قرباً منه ، وازداد طاعة له :

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

الأستاذ عدنان :

دكتور من الممكن في بعض الأحيان أن يسعى الإنسان في هذه الدنيا لتأمين حاجاته الدنيوية ، إذ يشعر بأنه لو أدى وحصل على الحاجة الفلانية سعد بها ، وأسعد أهل بيته ، هل يمكن أن تكون هذه هي السعادة فعلاً ؟

الفرق بين السكينة واللذة :

الدكتور راتب :

هي جزء ، ولكن السعادة المثلى كما بينتم أنها من عند الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ)

وليست الحاجات الدنيوية ، لكن كما قلت : يمكن أن يقول قائل : أنا عندما أؤمن حاجاتي يمكن أن أصل إلى شيء من السعادة ، هذا الكلام التعليق عليه أن هناك فرق بين السكينة أي السعادة ، وبين اللذة ، أي تأمين الحاجات المادية تحقق لذائذ للإنسان ، أما تأمين اتصاله بالله ورضاه عن الله يحقق له السعادة التي هي ترادف السكينة ، فرق بين السكينة وبين اللذة ، الحاجات المادية ؛ الطعام ، والشراب ، والكساء ، والأجهزة ، والأدوات، والسيارة ، وكل وسائل الراحة في الحياة الدنيا هذه تحقق اللذائذ ، يستمتع بها الجسد ، أما هذه النفس التي بين جنبي الإنسان سعادتها بقربها من الله :

(أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية : 28)

هناك حديث شريف رائع يقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ))

[أبو داود عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

الإنسان عندما يحضر مجلس علم قد يكون الجلوس على الأرض وليس هناك ضيافة إطلاقاً .

الأستاذ عدنان :

ضيافة قلبية .

الرحمة مطلق عطاء الله تبدأ من الصحة وتنتهي بالرفعة :

الدكتور راتب :

نعم لكن الله عز وجل يكافئ هؤلاء الذين تجشموا ، وحضروا مجلس العلم ، وجلسوا على ركبهم ، يعطيهم عطاءً قد لا يرى بالعين ، هذا العطاء كما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ))

يقول لك : والله سعدنا بهذا اللقاء ، سعدنا بهذا الدرس ، نحن في قمة السعادة :

((وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ))

الرحمة مطلق عطاء الله ، تبدأ من الصحة وتنتهي بالرفعة ، مطلق عطاء الله :

((وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ))

أي ألهمتهم الخير واستجابوا لهذه الإلهامات ،

((وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

أنت حينما تذكر الله بين الناس يذكرك الله فيمن عنده أي :

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح الآية : 4)

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح الآيات : 1-4)

كل مؤمن بحسب إيمانه ، واستقامته ، وإخلاصه له من هذه الآية نصيب .

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[أبو داود عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

المؤمن متفائل يرى أن الله لا يتخلى عن عباده :

لذلك :

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ))

[أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أحاديث الدنيا ، والحسد ، والبغضاء ، و رد التهم ، والغمز ، واللمز ، والغيبة، والنميمة ، هذه مجالس الشيطان ، لذلك لا يستطيع الجالسون أن يقفوا على أقدامهم من شدة القلق ، والخوف ، واليأس ، أنت تجلس مع إنسان يملأ قلبك تفاؤلاً ، وثقة بالله ، وتجلس مع إنسان يريك المستقبل أسود اللون ، مظلماً ، لا أمل بذلك ، لذلك المؤمن متفائل ، المؤمن يرى أن الله لا يتخلى عن عباده ، ولو ضاقت بهم السبل ، لكن فرج الله قريب ، والمؤمن لا ييئس ولا يقنط من رحمة الله .

الأستاذ عدنان :

الحقيقة هذه من ثمار السكينة ، و ثمار الإيمان ، يمكن أن يجده في كل ما يدل على خلق الله عز وجل أيضاً ، تسمعوننا ونشاهد معكم في نهاية كل حلقة شيئاً من الإعجاز العلمي الذي يتصل بمخلوقات الله عز وجل .

عجائب القندس :

الدكتور راتب :

نحن أمام بحيرة هذه كانت شيئاً آخر قبل أن تكون بحيرة ، كانت جدول ماء ، بل لم يكن هناك بحيرة أصلاً ، كانت حصى مفروشة على التراب الجاف ، إلا أن عمالاً نشيطين عملوا كثيراً ، وبذلوا جهداً كبيراً حتى أنشؤوا هذه البحيرة ، العمال النشيطون هؤلاء هم هذه الحيوانات المحببة التي تسمى القنادس، مفردها قندس .

تبني القنادس بيوتها إلى جانب هذه البحيرة التي أنشأتها ، تبدأ حكاية القنادس برحلة ذكرٍ وأنثى لبناء مأوى جديد لهما .

سيبني زوجا القنادس هذان بيتهما على الماء الجاري ، إلا أنهما قبل هذا العمل يجب عليهما إيقاف جريان هذا الماء ، ولقطع هذا الجريان يستخدمان الأسلوب نفسه الذي استخدمه الناس منذ مئات السنين في إنشاء السدود ، نحن الآن نرى حيواناً هو وأنثاه يبنيان سداً ، ليجعلا هذا الجدول بحيرة ، تمهيداً لبناء بيت في هذه البحيرة .

يلزم للبدء في إنشاء السد أولاً إيجاد المواد اللازمة ، إنها جذوع الأشجار وأغصانها ، تبدأ القنادس عملها بذهابها إلى غابة الأشجار قرب الماء الجاري ، وتأكل قليلاً من أوراق الأشجار التي تجدها في طريقها أولاً ، أما عملها الأساسي فهو قطع الأشجار وإسقاطها ، وتفعل هذا بقضم جذع الشجرة بمهارة، لها أنياب حادة تقضم جذع الشجرة إلى أن تسقطها على الأرض ، ثم تجرها إلى جدول الماء وتضعها عرضاً .

الجانب المحير في الأمر أنها تقضم الأشجار بحيث أن الشجرة التي تنتهي من العمل بها تقع في اتجاه الماء ، أي آخر قضمة من مكان معين بحيث تنهار إلى جهة الماء حصراً ، فقضم الأشجار وإسقاطها في هذه المرحلة للإنشاء ، كما تقوم القنادس بعد ذلك بفرز أغصانها واحدة واحدة ، وترتيبها أمام أكبر جذعٍ أسقطته ، وتبدأ ببناء السد أمام الماء الجاري، تسحب هذه الشجرة وتسحب أغصانها ، تضعها عرضاً أمام الماء الجاري .

جميع ما استخدمته أثناء هذا العمل فمها فقط وأيديها ، بل إن أسنانها أحياناً حينما تنبري من شدة القضم تنمو لها أسنان جديدة ، لأن سلاحها الوحيد في إنشاء السد أسنانها .

تدأب على هذا العمل بصبر عجيب ، يسقط زوج القنادس في السنة أربعمئة شجرة ، أما الأشجار البعيدة عن الماء فتنسق أغصانها واحدةً واحدة ثم تجرها إلى السد الذي أنشأته .

بنية القنادس من آيات الله الدالة على عظمته :

تستخدم القنادس أثناء قضم الشجرة أسنانها الأمامية ، تتآكل هذه الأسنان بسبب استخدامها الدائم وتتكسر أحياناً مع مرور الزمن ، غير أن فك القندس خلق بشكلٍ متناسبٍ مع هذا العمل ، الأسنان الأمامية الحادة كأظافر الإنسان تماماً ، تطول باستمرار وكأنها أظافر الإنسان .

الأستاذ عدنان :

أي مطلوب منها بشكل دائم أن تعمل .

الدكتور راتب :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه الآيات : 49-50)

الله تعالى خالق هذا الحيوان أوجد لها أسناناً متناسبة مع العمل الذي تقوم به ، بفضل هذا تستطيع دفع الماء بسهولة ، أما أجسام القنادس فقد خلقت بتصميمٍ خاص يسهل عليها السباحة في الماء ، لأن بيتها في الماء ، و ما بين أصابعها مغطى ، وبفضل هذا تستطيع دفع الماء بسهولة ، كأرجل البطة ، لتكون أرجلها مجدافاً ، أما ذيلها الخلفي كمجداف ضخمٍ ، وبفضل هذا تسبح في الماء بسهولة تامة .

تقعر السّد الذي تنشئه القنادس نحو الداخل مهارة خلقت مع القندس بقدرة الله عز وجل :

تستمر القنادس في إنشائها بعملٍ دؤوب ، وتنسق القنادس جذوع الأشجار وقطع الأغصان الصغيرة بمهارة ، وتعمل على توسيع السد مع الوقت ، وكلما ارتفع السد ترتفع معه بركة الماء ، وبعد نشاطٍ يدوم أشهراً عديدة تتكون بحيرةٌ كبيرة من خلال هذا السد ، إلا أنه كلما كبرت البركة يجب على القنادس تثبيت وتصليح شقوق السد ، في صيانة دائمة ، هي تضع الأشجار عرضاً ، والأغصان بين الأشجار ، والأغصان مع الأوراق ، فإذا كان هناك تسرباً للماء أو شقوق تصلحها ، وتقوم بهذه المهمة الصعبة بصبر وجَلَد ، المنظر الذي يظهر نتاج تعبٍ ، تعب أشهرٍ عديدةٍ وبكلمةٍ واحدة هو إنجاز رائع ، يظهر سدٌ حقيقيٌ شبيهٌ بما يصنعه الإنسان ، إذا دققنا بصنع القنادس سدها على شكل قوسٍ مقعر إلى الداخل ، من أجل تحمل ضغط الماء ، هذا ليس شكلاً عشوائياً لأن أكثر السدود تحملاً لضغط الماء هو السد المقام بشكلٍ مقعرٍ إلى الداخل .

الأستاذ عدنان :

والآن لو صورنا سدود من الجو لوجدناها مقعرة نحو الداخل .

الدكتور راتب :

وباختصار القنادس ملهمة منذ ولادتها إلى هذا الإنشاء الذي لم يصل إليه البشر إلا بعد زمنٍ طويل ، من لقنها هذه المعلومات ؟ بلا شك لا يمكن أن يكتسب كائنٌ خبرة إنشاء سدٍ كهذا مصادفة ، ولا يمكن أن نرى سداً صمم بأفضل السبل لمقاومة الماء مصادفةً ، ولا تستطيع القنادس نقل هذه الخبرات إلى الجيل التالي لها . لا يوجد تعليم عندهم ، يولد القندس مع هذه الخبرات ، الله تعالى هو الذي وهب القنادس هذه الخبرات ، هو خالق الكائنات كلها والذي ألهمها أعمالها ، الحقيقة شيء مدهش أن الإنسان بعد التقدم ، والرقي ، والحضارة ، والجامعات ، وكليات الهندسة ، يكتشف أنه لا بدّ من سدٍّ مقعر نحو الداخل ، ويأتي حيوان أعجم معه خبرات من الله مباشرة يبني سداً بأحدث ما توصل الإنسان إليه .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (20-30) : التوكل على الله ـ أسرار النحل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:

دكتور في موضوع التوكل نشهد أقوالاً ترتبط بثلاث حالات؛ أولاً: من الناس من يقول: نحن نتوكل على الله، هذا كلام عام لا معنى له قط، إنهم يتوكلون على الله لا يؤدون الأسباب، إذ إن الله عز وجل قادر على كل شيء.

نوع ثان: يعملون ويؤدون الأسباب كاملة ويقولون: لا داعي للتوكل على الله، فالأسباب ستأتي بالنتائج حتماً، قد تعترضها اعتراضات لكنها لا قيمة لها، النتائج يجب أن تكون مواتية و مناسبة لأسباب المقدمة، الثالث من الأقسام يقول: نحن نؤدي الأسباب كاملة وبعد ذلك نقول: يا رب هذه وسيلتنا قد أديناها والباقي من عندك، نتوكل عليك حقّ التوكل، التوكل إذاً يدخل في الناحية العقدية بالنسبة للإنسان المؤمن المسلم، ترى ما هذه الناحية العقدية بالنسبة للتوكل عند المسلم؟

العقل البشري لا يفهم شيئاً بلا سبب :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان جزاك الله خيراً، الله عز وجل خلق هذا الكون على نظام السببية، هكذا شاءت حكمته أن يكون لكل شيء سبباً، وهذا النظام له أصل في عقل الإنسان، فالعقل البشري لا يفهم شيئاً بلا سبب، وكما أن هذا العقل لا يفهم شيئاً بلا سبب، فالكون في نظامه مطابق للعقل، فكل شيء له سبب:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف الآية :83-85]

ولكن علماء العقيدة يرون أن السبب يأتي قبل النتيجة، وليس سبباً كافياً لخلق النتيجة، النتيجة من خلق الله عز وجل، ولكن ضماناً لاستقرار الحياة، وللوصول إلى النتائج عن طريق الأسباب، جعل الله لكل شيء سبباً، لذلك قال بعض علماء العقيدة: " عندها لا بها ". أي عند إرادة الله أن يقع هذا الشيء لا بالأسباب التي تأتي قبل الشيء.

على كلٍّ الله عز وجل قادر أن يلغي الأسباب، أو يعطلها.

الأستاذ عدنان:

هو خالقها أصلاً.

التوحيد أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم تعتمد على الله وكأنها ليست بشيء :

الدكتور راتب:

سيدنا آدم خلق من دون أب أو أم، إذاً ألغيت الأسباب، وقد تجد شابين في ريعان الشباب يتزوجان فلا ينجبان، هنا عطلت الأسباب، فالأسباب تلغى أو تعطل، لذلك هناك من يأخذ بالأسباب، ويعتمد عليها، وينسى ربه، هذا الإنسان وقع في الشرك، وهناك من لا يأخذ بها جهلاً وسذاجة، فيقع في المعصية، لذلك قد يغلب على الغرب أنه أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، وقد يغلب على الشرق أنه لم يأخذ بها.

على كلٍّ الموقف الأمثل، طريق على يمينه واد سحيق، وعلى يساره واد سحيق، إن أخذ الإنسان بالأسباب واعتمد عليها وقع في وادي الشرك، وإن لم يأخذ بها وقع في وادي المعصية، الكمال في هذا الموضوع منطلق من التوحيد أن تأخذ بالأسباب و كأنها كل شيء، وأن تعتمد على الله و كأنها ليست بشيء:

((إن الله يَلُومُ على العَجْز، ولكن عليكَ بالكَيْس، فإذا غَلَبَك أمر، فقل حَسبيَ الله ونعم الوكيل))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

إن الله يلوم الإنسان إن لم يأخذ بالأسباب، وعليه بالكيس أي أن يأخذ بها،

((فإذا غَلَبَك أمر، فقل حَسبيَ الله ونعم الوكيل))

ولا يصح أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل ولم تأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى النتائج.

المؤمنون نسوا الأخذ بالأسباب فكانوا في مؤخرة الأمم :

إذاً الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب و كأنها كل شيء، وأن تعتمد على الله و كأنها ليست بشيء، أستاذ عدنان من السهل جداً أن نأخذ بالأسباب، وأن نعتمد عليها، ومن السهل أيضاً ألا نأخذ بها، وندعو ربنا

أن ينصرنا من دون أخذ بالأسباب، لكن البطولة هذا الموقف الذي يجمع بين الأخذ بها وبين الاعتماد على الله، هنا البطولة، دائماً التطرف سهل، أما أن تجمع بين النقيضين هذا شيء يحتاج إلى كياسة، وإلى علم، لذلك المؤمن الصادق الكامل يأخذ بالأسباب و كأنها كل شيء، أما إذا اتجه إلى الله فيعتمد على الله و كأنها ليست بشيء.

مثلاً عندك سفر طويل يجب أن تراجع المركبة مراجعة دقيقة جداً، أن تفحص فيها كل شيء، وأن تصلح كل شيء، وأن تجهز كل شيء، وفي أعماق أعماقك تقول: يا رب أنت الحافظ، أنت المُسلّم، يا رب اعتمدت عليك، هذا الموقف الإيماني الرائع، لذلك حينما نسي المؤمنون الأخذ بالأسباب كانوا في مؤخرة الأمم، وحينما أخذ أعداؤهم الأسباب ونسوا ربهم أحبط عملهم أحياناً، فالبطولة أن تأخذ بالأسباب و كأنها كل شيء، وأن تعتمد على الله و كأنها ليست بشيء.

الأستاذ عدنان:

دكتور هذا يقودنا إلى التعرف على حقيقة التوكل.

حقيقة التوكل :

الدكتور راتب:

صِدْقُ اعتماد القلب على الله، هناك من يدعي أنه متوكل لكنه لا يتوكل، التوكل من عمل القلب، صدق اعتماد القلب على الله، كيف لو أن لك صديقاً قوياً جداً، وهو أقرب الناس إليك، فإذا أردت أن تفعل عملاً تشعر أنه بأية لحظة تتصل به فيلبيك، هذا للتقريب، لكن المؤمن يرى أن الله هو الفعال، بيده كل شيء:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية: 123]

لا تنشأ عزتك إلا إذا آمنت أن أمرك بيد الله:

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

((وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه))

[أخرجه أحمد في مسنده والطبراني، عن أبي الدرداء رضي الله عنه]

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لذلك التوكل في حقيقته أن تعتمد بصدق على الله، هناك حالات ليست لنا، للأنبياء الكبار، سيدنا إبراهيم ترك زوجته وابنه في واد غير ذي زرع، سألته زوجته إلى من تركتنا؟ آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لن يضيعنا الله عز وجل، نحن حينما نسافر نؤمن لأهلنا كل

شيء، لكن الأكمل أن تؤمن لهم كل شيء، وأن تقول: يا ربي أنت الرفيق في السفر، والخليفة في الأهل، والمال، والولد، هذه هي حقيقة التوكل، صدْق اعتمادك على الله.

النصر يحتاج إلى إيمان بالله أولاً و إعداد له ثانياً :

ثم تعتمد عليه في شيئين، في استجلاب المصالح، وفي درء الأخطار، هذا هو التوكل في حقيقته يحتاج إلى إيمان، يحتاج إلى فهم بالأسباب، أنا لا أتصور أن يستطيع إنسان لم يفعل شيئاً أن ينتصر على أعدائه، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

النصر يحتاج إلى إيمان بالله يحملك على طاعته، وإعداد لما أتيح لك، وعلى الله الباقي.

الأستاذ عدنان:

إذا أردنا أن نجمل ما سبق من توضيح في تعريف للتوكل ليكون راسخاً في أذهان الأخوة المشاهدين.

التوكل هو الثقة بما عند الله و اليأس بما في أيدي الناس :

الدكتور راتب:

الحقيقة أدق ما في التوكل الثقة بما عند الله، واليأس بما في أيدي الناس، سُئل بعض كبار العلماء ـ الحسن البصري ـ بمَ نلت هذا المقام؟ فقال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.

لا تسألن بني آدم حــاجة واسأل الذي أبوابه لا تغلقُ

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضبُ

* * *

عظمة التوكل أنك تستغني عما في أيدي الناس، إن استغنيت عما في أيدي الناس أحبك الناس، وإن طمعت بما عند الله أحبك الله، لكن بعض الناس يستغنون بما عند الله ويطمعون بما عند الناس، لذلك يخيب ظنهم ويحبطون في أعمالهم.

الأستاذ عدنان:

نسمع كلمتي التوكل والتواكل، لا شك أن الفارق كبير بينهما كيف نوضح هذا الفارق؟

التوكل و التواكل :

الدكتور راتب:

سيدنا عمر رأى أناساً يتكففون الناس في الحج، سألهم: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: كذبتم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض، ثم توكل على الله.

أن تأخذ بالأسباب أولاً، مثلاً: طالب يقول: أنا متوكل على الله في النجاح، هذا أحمق، يدرس ثم يتوكل، تجري مراجعة لمركبتك ثم تتوكل، تأخذ ابنك إلى الطبيب وتطبق الأدوية بدقة ثم تتوكل، ما من عمل أصاب المسلمين بالشلل كالتواكل، هم يتوقعون معجزات من الله، هم لا يعملون، لا يقدمون الأسباب، ينتظرون النصر بلا أسباب، فيخيب ظنهم أحياناً، لذلك التواكل خطير جداً، التوكل أن تأخذ بالأسباب، والتواكل ألا تأخذ بها، وأن تستعين بالله بشكل ساذج، بشكل ليس ينطلق من علم التوحيد.

لكن هناك نقطة ثانية، مرَّ سيدنا عمر برجل معه جمل أجرب، قال له: يا أخا العرب، ما تفعل به؟ قال: أدعُ الله أن يشفيه، قال له: هلا جعلت مع الدعاء قطراناً؟ أنا أضع يدي الآن على أخطر مشكلة في حياة المسلمين، يجب أن يعدوا العدة، يجب أن يقووا أنفسهم، وبعدئذٍ يقولون: يا رب نصرك الذي وعدتنا، أما نصرك الذي وعدتنا وهم قاعدون ولا يحركون ساكناً هذا هو التواكل.

الأستاذ عدنان:

دكتور موضوع التواكل وموضوع التوكل في الأصل الإنسان المؤمن يؤدي ما عليه، وبعد ذلك إن كانت هذه الأسباب التي أداها لا تكفي للوصول إلى النتائج يأتي مدد الله عز وجل لإيصال يرممها، لعل هذه الناحية جعلت في نفوس بعض الناس شيئاً من الدخول إلى موضوع التواكل، لكن أن ينسوا أن عليهم أن يؤدوا الأسباب هذا مرفوض جملة وتفصيلاً، لذلك موطن التوكل كيف يكون ومتى يكون؟

التوكل مكانه القلب و مكان العمل هو الجوارح والعكس مشكلة كبيرة :

الدكتور راتب:

التوكل مكانه القلب، والجوارح مكان للأخذ بالأسباب، الخطورة في هذا الموضوع أن بعض المسلمين عكسوا الآية فجعلوا جوارحهم مكاناً للتوكل عليه، ما فعلوا شيئاً، وجعلوا قلبهم الذي هو مكان للتوكل في يأس من رحمة الله، التوكل مكانه القلب، والجوارح مكان السعي لذلك، الآية الكريمة دقيقة جداً:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية: 110]

لذلك الله عز وجل ما سمح لأحد أن يسأله شيئاً إلا بالعمل:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

[سورة القصص الآية : 105]

فلذلك مكان التوكل هو القلب، ومكان العمل هو الجوارح، فإذا عكست الآية كنا في مشكلة كبيرة، مثلاً الشيء بالشيء، يذكر الله عز وجل من خلال نبيه الكريم أمرنا أن نحسن حياتنا، أن نجدد في حياتنا، وأمرنا أن نحافظ على عقائدنا، وعلى عبادتنا، فنحن ماذا فعلنا؟ قلدنا في دنيانا، وابتدعنا في عقائدنا، هنا الخطر، العقيدة والعبادات توقيفيات لا يجوز أن يضاف عليها أو أن يحذف منها، نحن تطورنا في عقائدنا، وفي فهمنا لبعض المستجدات فهماً بعيداً عن فهم الصحابة الكرام بهذا القرآن الكريم، وفي حياتنا قلدنا، فالأولى أن نطور في حياتنا، وأن نحل مشكلاتنا، ونهيئ فرص عمل لشبابنا، نهيئ مساكن لشبابنا، ثم بعدئذ نقلد في عقائدنا، وفي ديننا، حينما تتبدل الأوراق مشكلة كبيرة.

الأستاذ عدنان:

من خلال ما ذكرتم في موضوع التوكل إن طبقه الإنسان حيث أخذ بالأسباب قدر طاقته واستطاعته ثم ترك الباقي على الله عز وجل، لا شك أن النتائج ستكون خيرة، يجد سكينتها في نفسه و قلبه، ويجد نتائجها في جوارحه وأمام عينيه، فلذلك ما ثمار هذا التوكل؟

من ثمار التوكل :

1 ـ كمال إيمان المؤمن أن يتوكل على الله وان يأخذ بالأسباب :

الدكتور راتب:

هو من كمال الإيمان، هناك إيمان وهناك كمال إيمان، كمال إيمان المؤمن أن يتوكل على الله في قلبه، وان يأخذ بالأسباب بجوارحه.

2 ـ التوكل يجلب محبة الله للإنسان :

شيء آخر: التوكل يجلب محبة الله للإنسان:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ)

[سورة إبراهيم الآية : 12]

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة المائدة الآية : 23]

يجلب التوكل محبة الله.

3 ـ يحفظ التوكل المؤمن من الشيطان :

شيء آخر: يحفظ التوكل المؤمن من الشيطان، الشيطان حينما لا يأخذ الإنسان بالأسباب يقول له: الله خذلك ولم يستجب لك، لم ينصرك، فأصبح المؤمن عرضة لوساوس الشيطان، أما إذا أخذ بالأسباب واعتمد على الله حقق النصر، عندئذ أغلق على نفسه باب الشيطان، التوكل يوقف الإنسان عند الحدود الشرعية فلا يتجاوزها، لا يوجد عنده لأهداف نبيلة وسائل غير نبيلة، أخذ بالأسباب ثم توكل على الله.

4 ـ التوكل على الله يقطع الناس عن الطمع بالإنسان :

شيء آخر: أنت حينما تتوكل حق التوكل أي أن تأخذ بالأسباب تقطع الناس عن الطمع بك، يرونك إنساناً ملء السمع والبصر، تعرف ما ينبغي أن تفعل، أما حينما يرى الناس مؤمناً ساذجاً يطمعون فيه، يطمعون أن يأخذوا ما عنده، يظنونه أبلهاً، أما إذا أخذ بالأسباب قطع أطماع الناس عنه، التوكل يعطي راحة للبال، الذي لا يأخذ بالأسباب ويتوكل يبقى خائفاً، أما الذي يأخذ بالأسباب، ويتوكل على الله، أدى الذي عليه وبقي الذي له، ومن أسباب سعة الرزق الأخذ بالأسباب، ومن أسباب تمام المعرفة أن تتوكل التوكل الذي أراده الله عز وجل.

الأستاذ عدنان:

الحقيقة هذا توضيح كامل في موضوع التوكل ليكون الإنسان معتمداً على الله عز وجل كلياً، بعد أن يؤدي الأسباب التي يقدر عليها كلية، وحتى لا تضيع الأمور بين التوكل والتواكل كانت هذه الفسحة القولية منكم لتوضيح حقيقة الأمر في التوكل والتواكل.

التوكل أحد أسباب قوة الإنسان :

الدكتور راتب:

نقطة واحدة ضرورية، النبي عليه الصلاة والسلام قبيل معركة بدر رفع يديه ودعا الله بحرارة، إلى أن سقط الرداء عن كتفيه، قال له الصديق: بعد مناشدتك ربك إن الله ناصرك، هناك من يحلل هذا الدعاء الحار، النبي عليه الصلاة والسلام واثق أن الله قوي، وأنه هو الذي ينصر، ولكن كان يخاف أن يكون قد قصر بالأخذ في الأسباب، والله أستاذ عدنان لو تتبعنا تاريخ المسلمين لوجدت أن أخذهم بالأسباب شيء مدهش، يأخذون بالأسباب وكأنها كل شيء ويتوكلون على الله وكأنها ليست بشيء، لذلك التوكل أحد أسباب قوة الإنسان، لكن التوكل مع أنه أحد أسباب قوته هو أحد أسباب مظهره القوي أمام الطرف

الآخر.

الأستاذ عدنان:

دكتور إذا تابعنا موضوع ما يتصل باعتماد الإنسان على ربه في كل شيء، بعد أن يأتي بالأسباب يمكن من خلال هذه الناحية أن نتطلع إلى إعجاز الله عز وجل الذي يأتي للإنسان بما يريد رغم أنه قدم قليلاً أو كثيراً، مع هذا فإن الله عز وجل يعطيه ويسعده بإعجازات إلهية، ومتابعة للإعجازات الإلهية في خلقه نتابع معكم موضوعاً من الموضوعات.

أسرار النحل :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، نحن أمام سرّ من أسرار النحل الذي يدهش العقول، عند خروجنا إلى المروج في يوم مشمس يشد انتباهنا الجمال الأخاذ للأزهار، وحين ندقق في هذه الأزهار عن قرب أكثر نشاهد كائناً عجيباً آخر هو النحل، والنحل أمهر المعماريين نظاماً في الطبيعة، وتعيش النحل على شكل مستعمراتٍ، وتنتج العسل الذي هو واحدٌ من أكبر الأغذية على وجه الأرض، أما العسل الذي تنتجه فتخبئه في الخلايا التي تبنيها بنفسها بأشكال سداسية، هل فكرنا لماذا أنشأ الله النحل وهذه الخلايا السداسية حصراً؟ بحث علماء الرياضيات عن جوابٍ لهذا السؤال، ووصلوا إلى نهايةٍ عجيبةٍ بعد حساباتٍ طويلة، الطريقة المثلى لإنشاء خزانٍ يستهلك أقل المواد، ويستوعب أكبر حجمٍ تخزيني، هو أن تبنى جدرانه بشكلٍ سداسي، لنقارن بالأشكال الأخرى، لو أنشأت النحل خلاياها بدل السداسي بشكل أسطواني أو خماسي مثلاً لظهرت في الأطراف فراغاتٌ بينية لا تستخدم، وبهذا لا تستعمل النحلة كل الأمكنة للتخزين.

الأستاذ عدنان:

دكتور بالمناسبة كما أرى أن هذا الشكل السداسي يزيد الخلية قوة، إذ إنه لو كان رباعياً لم نجد فراغات ولكن قوته تختلف.

الدكتور راتب:

وهذا سيأتي، أما تخزين العسل في أقراص مثلثة أو مربعة، فيمكن دون أن يبقى فراغ بينها كما نرى، ولكن هناك مغزى أدركه علماء الرياضيات، فالشكل المسدس أقصر محيطاً من بين الأشكال الهندسية المختلفة، لذلك على الرغم من كون هذه الأشكال بالأحجام نفسها ستكون المواد الأساسية المطلوبة في الأقراص المسدسة أقل من المطلوب في المثلث والمربع، أي تقديم أقل التكلفة بأكبر النتائج، كأن لها

عقلاً.

وباختصارٍ الخلية السداسية تؤمن أكبر مكانٍ للتخزين، وبأقل شمعٍ ممكن، فالنحلة تستقدم أمثل شكلٍ ممكن.

من علمها؟ من ألهمها وهي ليس لها عقل؟

الخصائص المحيرة للنحلات :

أما الخصائص المحيرة الأخرى للنحلات فتتجسد في ذلك التعاون الرائع في أثناء بناء الخلايا، عندما يرى الإنسان خليةً أنهي بناؤها يظن أنها أنشئت كقطعة واحدة، هل تستطيع أن تكلف إنساناً يعمل في التبليط أن يبدأ من طرف وإنساناً من طرف آخر وأن يجتمعان على حجم مثالي؟ مستحيل، هكذا تفعل النحلات.

أما الخصائص الأخرى، تبدأ النحل بناء الخلايا من زوايا مختلفة، تبدأ مئات النحل من ثلاثةٍ أو أربعة أماكن متفرقة لإنشاء الخلايا، وباستمرار بناء الخلية تجتمع في النهاية في الوسط، ليس هناك أي خطأً أو عدم تناسقٍ في نقطة الالتقاء.

تحسب النحل أثناء نسج الخلية الزوايا بين فتحات الخلية أيضاً، فتحات الخلية التي تبقى ظهراً لظهرٍ، تنشأ حتماً بزاوية مائلةٍ ـ ثلاث عشرة درجة نحو الأرض ـ هذا الميل يمنع سيلان العسل وانزلاقه على الأرض، مع أن هذه الخلايا تبنى غالباً في أماكن مظلمة لا يدخل إليها ضوء الشمس إطلاقاً، هناك حقيقة مدهشة جداً.

النحل آية من آيات الله الدالة على عظمته :

تظهر النحل هذه الخصائص الفائقة اعتباراً من ولادتها، لا تتعلم صنع الخلية، أو تعيين الجهة تدريجياً، بل تكون على استعداد للقيام بهذه الأعمال المعجزة بمجرد ولادتها، من علم النحلة هذه الهندسة المعمارية؟ لقد ورد جواب هذا السؤال في القرآن الكريم، يبين الله تعالى سرّ هذه المملكة المدهشة للنحل، قال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة النحل الآية :68-69]

إلهام الله تعالى للكائنات هو سرّ تصرفاتها الفائقة، هذا ليس للنحل فحسب بل تدخل فيه كل الكائنات جميعاً، هذا من آيات الله الدالة على عظمة الله عز وجل.

الأستاذ عدنان:

دكتور كما ترون الله عز وجل خلق هذه المخلوقات، وقدر لها أسلوب حياتها، وتعايشت معه، وابتكرت، وألهمها الله عز وجل فيما ابتكرت، فكان إعجازاً علمياً واضحاً، الآن إذا عدنا إلى موضوع التوكل ونحن نتحدث فيه، ترى هل يمكن للإنسان عندما يتوكل على الله عز وجل، وقد أدى الأسباب، أن تبتكر في ذاكرته وفي مخيلته أمور لم يكن حسب لها حساباً، إذ إن التوكل قاده إلى انفتاح أمام مخيلته وعقله ليرى أشياء لم يكن يحسب حسابها.

على كل إنسان أن يؤدي الذي عليه ويطلب من الله الذي له :

الدكتور راتب:

الحقيقة أن الإنسان إذا أدى ما عليه رمم الله له ما بقي من جهده، الحقيقة مطبقة في كل الاتجاهات، أدِّ الذي عليك واطلب من الله الذي لك، أنت حينما تأخذ بالأسباب المتاحة لك، الآن ما نقص من قدرة الأسباب على تحقيق الإنجاز يأتي الله به من عنده معونة لك، فلذلك عليك أن تأخذ بالأسباب، عليك أن تتوكل، أما الذي يأخذ بالأسباب من دون توكل قد تكون أسبابه غير كافية لتحقيق النتائج فيصاب بالإحباط، نحن مع الأعداء مع الأقوياء مطالبون أن نأخذ بالأسباب المتاحة فقط، والدليل:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 60]

لكن الله يتولى بحكمته، وتأييده، وتوفيقه، وحفظه، ونصره، ما تبقى من أسباب من أجل تحقيق النتائج، هذا الذي يعد جواباً لتساؤلكم.

الأستاذ عدنان:

دكتور موضوع التوكل على الله عز وجل عند المسلمين كما بينتم يهبهم أن الله عز وجل يتمم لهم الأشياء الناقصة التي ما كان بمقدورهم أن يؤدوها، ويأتوا عليها، ترى هل هذه الناحية بحدِّ ذاتها هي التي أدت إلى التواكل، فإن كان هذا هو السبب الذي يؤدي عند المسلمين إلى التواكل فكيف نقطع دابر هذا الأمر؟

العلم هو الخطوة الأولى كي يصح العمل وتتحقق النتائج :

الدكتور راتب:

الحقيقة لابدّ من العلم، إذا أردت الدنيا فعلك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل.

أستاذ عدنان، أزمة أهل النار في النار أزمة علم، الدليل:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك الآية : 10]

لذلك مزيد من العلم، مزيد من المعرفة، مزيد من التفقه بالدين، نحن كلما ازداد علمنا صحّ سلوكنا، ما من حركة غير صحيحة إلا وراءها جهل، لذلك العلم هو الخطوة الأولى كي يصح العمل، وكي تتحقق النتائج.

الأستاذ عدنان:

عندما يتوكل الإنسان على الله نحن نعلم أن في الحياة أسباباً، ترى هل يمكن أن تخرق الأسباب، فالله هو خالقها، وهل يمكن أن تأتي النجدة الإلهية من حيث لا أسباب ولا شيء.

من يأخذ بالأسباب المتاحة له يتولى الله الباقي يقيناً :

الدكتور راتب:

من حيث لا أسباب مطلقة لا أظن ذلك، لكن لو أخذت بالأسباب قدر الإمكان، تأتي النجدة الإلهية، الدليل:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة الآية : 249]

سيدنا خالد طلب مدداً ليواجه عدواً، أُرسل له رجل واحد ، اسمه القعقاع بن عمرو، فلما وصل إليه قال أين المدد؟ قال له: أنا المدد، قال له: أنت؟ قال له: أنا، معه كتاب، قرأ الكتاب، يقول سيدنا أبو بكر: فو الذي بعث محمداً بالحق، إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم.

وانتصروا، أحياناً حينما تأخذ بالأسباب المتاحة لك يتولى الله الباقي يقيناً.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (21-30) : خُلق البر ـ النمل الأبيض
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان:

دكتور ما بين البر بكسر الباء، والبَر والبُر، معان متعددة، ونقف عند البر بكسر الباء، معنى هذه الكلمة من الناحية الاصطلاحية يمكن أن نبدأ بها حلقة اليوم.

تعريف البر :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، هذه اللغة العربية لغة معجزة، حركة واحدة نقلت المعنى من حقل إلى حقل، فالبر هو الإحسان، والبَر هو اليابسة، والبُر هو القمح، فحركة واحدة أعطت معان مختلفة، وكطرفة إنسان ضعيف في اللغة قال:

ولست أبالي حين أقتُل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

***

هذا إلى النار، الصواب:

ولست أبالي حين أقتَل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

***

حركة نقلته من الجنة إلى النار، على كلٍّ: البر هو الصلاح، الصلاح المطلق، والفطر السليمة تعرف الصلاح المطلق، البر هو الصلاح، وحينما قال الله عز وجل:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية:2]

قال علماء التفسير: "البر صلاح الدنيا والتعاون على التقوى صلاح الآخرة."

فإذا ذكرت كلمة البر وحدها تعني صلاح الدنيا والآخرة معاً، وحدها صلاح الدنيا والآخرة، إذا انفردت شملت الدنيا والآخرة، وإذا جاء معها التقوى تعني صلاح الدنيا.

على كلٍّ البر هو الصلاح، أو هو الخير المطلق، أو هو التقوى، طاعة الله عز وجل، وطاعة الله عز وجل سبب كل عطاء، أو خير الدنيا والآخرة مجتمعين، هذه بعض التعريفات الاصطلاحية لكلمة البر.

الأستاذ عدنان:

دكتور البر بر الوالدين مثلاً، وأن يكون الإنسان باراً من خلال صلة الرحم، وأن يكون في كرمه وعطائه، بمعنىً آخر للبر أنواع يمكن أن نأتي عليها؟

أنواع البر :

1 ـ العطاء :

الدكتور راتب:

الحقيقة أن البر أنواع، أحد هذه الأنواع الكبرى هي الصلة؛ الإحسان، فالإنسان حينما يعطي من ماله، من فضل ماله، من فضل خبرته، حينما يبني حياته على العطاء، فهو البار:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

[سورة الانفطار الآية :13]

نعيم العطاء، الإنسان كلما تقدم في الإيمان جعل سعادته في العطاء لا في الأخذ، وكلما ضعف إيمانه توهم أن سعادته في الأخذ لا في العطاء، أحد أكبر أنواع البر العطاء، الله عز وجل قال:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

[سورة البقرة]

الإنسان يعطي من علمه، وقد يعطي من ماله، وقد يعطي من خبرته، وقد يعطي من جاهه، المؤمن حينما أيقن أنه مخلوق للجنة، وأن الجنة منتهى آماله ومحط رحاله، لذلك يدفع في الدنيا ثمن الجنة، وثمن الجنة أن تعطي مما أعطاك الله، هناك صفة صارخة في المؤمن أن حياته بنيت على العطاء، وهناك صفة صارخة في حياة غير المؤمن أن حياته بنيت على الأخذ، وأن الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، وأن الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، فلذلك المعنى الأول للبر هو العطاء، مطلق العطاء، لأنه أصل في حياة المؤمن، هو يسعد في العطاء بينما غير المؤمن يسعد في الأخذ، أو يتوهم سعادته في الأخذ:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

لأنه صدق أنه مخلوق للجنة اتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، لذلك المعطي محبوب، المعطي برئ من شح نفسه، والمعطي جعل من حوله يبرؤون من الحقد عليه، والمعطي جعل الناس يلهجون بحمده وثنائه.

أيّ عمل صالح تجاه أي مخلوق هو قرض لله تعالى :

لذلك البر في معناه الكبير هو العطاء والعطاء منوع، بل حتى الفقير له حديث يخصه:

((إنكم لن تَسَعوا الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بَسْط الوجه وحسنُ الخلق))

[أخرجه أبو يعلى وابن أبي شيبة عن أبي هريرة]

أحياناً الإنسان يقدم خدمة، متفوق في الرياضيات، يعلم طالباً ضعيفاً في هذه المادة بعض الدروس لوجه الله، أنواع العطاء لا تعد ولا تحصى بل إن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة الآية: 245]

إن أي عمل صالح تجاه أي مخلوق يعد قرضاً لله، إن أي عمل صالح بالفطرة تجاه أي مخلوق يعد قرضاً لله، هذا نوع كبير من أنواع البر.

2 - برّ القول :

هناك أنواع أخرى في القول، بر القول، ألا تقسو على الناس، أن تكون بهم رفيقاً، أن تلتمس لهم الأعذار، أن تسلم عليهم، أن تسألهم عن أحوالهم، أن تتودد إليهم، ألا تغتابهم، ألا تسخر منهم، ألا تسيء إليهم، ألا تسلمهم إلى أعدائهم، القول عمل كبير، ومن عدّ كلامه من عمله فقد نجا:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

وقد عدّ بعض العلماء آفات اللسان تزيد عن عشرين آفة:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

إحدى زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، السيدة عائشة وصفت أختها صفية بأنها قصيرة فقال عليه الصلاة والسلام:

((يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

[أبو داود عن عائشة]

((وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم))

[أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم عن معاذ]

لذلك المؤمن يعد كلامه جزءاً من عمله، يضبط لسانه، فبكلمة قد ترقى عند الله إلى أعلى عليين، وبكلمة واحدة قد يسقط الإنسان بها على أسفل سافلين، إذاً من معاني البر القول الحسن، قال تعالى:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

[سورة البقرة الآية: 83]

3 ـ بر العمل :

هناك معنى ثالثاً، وهو العمل، أحياناً أن تبتسم في وجه الضعيف، أن ترحم الصغير، أن تعفو عمن أخطأ وندم على خطئه في معاملتك هذا عمل.

4 ـ بر السلوك :

أنواع الأعمال المتعلقة بالبر لا تعد ولا تحصى، أن تتواضع لمن يصغر أمامك، أن تأخذ بيد من يحتاج إليك، أن تعين أخاك الضعيف، مثلاً النبي عليه الصلاة والسلام فيما روي عنه عن حق الجار:" إن استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن مرض عدته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهدِ له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها" هكذا أمر النبي أن يكون باراً بجيرانه، البر كلمة واسعة جداً، هناك بر في العطاء، بر في الكلام، بر في السلوك، هذه بعض أنواع البر.

الأستاذ عدنان:

هنا يمكن أن تتوضح الفكرة التالية: البر ليس قولاً محجوباً عن النية، وليس عملاً محجوباً عن النية، بالتالي يمكن أن تكون هناك أفعال ولكنها لا يمكن أن تدخل في نطاق البر، يكفينا أن نستعرض قوله تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

[سورة البقرة الآية: 177]

يمكن أن نشرحها معاً.

الآية التالية أصل في موضوع البر :

الدكتور راتب:

هذه الآية أصل في موضوع البر، الله عز وجل يقول:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

[سورة البقرة الآية: 177]

أي في الأديان الأرضية هناك طقوس، طقس لا معنى له، حركات، وسكنات، وتمتمات، وإيماءات، لا تقدم ولا تؤخر، ليس لها معنى إطلاقاً، لكن في الدين هناك عبادات، والإمام الشافعي يقول: "العبادات في الإسلام معللة بمصالح الخلق". لكن مع تأخر الزمان تفقد العبادات معناها، تفقد لبها، تفقد جوهرها، تفقد الحكمة منها، تفقد ثمرتها، تصبح حركات وسكنات تؤدى بلا معنى، حركات وسكنات تؤدى ولا نقطف ثمارها، إن الصلاة عند الله:

(تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

إن الصيام امتناع عن كل معصية، إن الحج صلح مع الله، العبادات في الإسلام معللة بمصالح الخلق لكن مع تخلف المسلمين في فهم دينهم يتوهمون أن العبادة التي فُرضت عليهم لمجرد أن تؤدى شكلياتها فقد أعفو من تبعة تركها وانتهى الأمر، فالله عز وجل يريد أن ينبه الناس:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

[سورة البقرة الآية: 177]

((تَرْكُ دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

[ورد في الأثر]

سيدنا ابن عباس حينما كان معتكفاً في مسجد رسول الله ورأى رجلاً كئيباً، فسأله: مالك كئيباً؟ قال: ديون لزمتني ما أطيق سدادها، قال: لمن؟ قال: لفلان، قال: أتحب أن أكلمه لك؟ قال: إذا شئت، الآن ابن عباس الصحابي الجليل، قريب النبي عليه الصلاة والسلام، الذي أوتي فهم الكتاب، قام من معتكفه، الآن سيقطع معتكفه، الاعتكاف عبادة كبيرة جداً، فقال له أحدهم: يا بن عباس، أنسيت أنك معتكف؟ قال: لا والله، ولكنني سمعت صاحب هذا القبر، والعهد به قريب، ودمعت عيناه، "والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجدي هذا".

من لم يطبق منهج الدين بكل تفاصيله فلن يقطف ثماره :

كأني أفهم الآية ـ وأرجو الله أن أكون مصيباً في فهمها ـ العبادات إذا فرغت من مضمونها، فرغ الحج من الصلح مع الله، والاستقامة على أمره، فرغ الصيام من طاعة الله، فرغت الصلاة من النهي عن

الفحشاء والمنكر، إذا بقيت العبادات أشكالاً تؤدى بلا مضمون، بلا حكم، ليس هذا هو البر، ليس البر أن تؤدي العبادات ونظام حياتك لا ينطبق على منهج الله، ليس البر أن تؤدي العبادات أداءً شكلياً وكسب المال ليس حلالاً، وإنفاقه ليس حلالاً، والعلاقات النسائية ليست مشروعة، والسفر ليس مباحاً، الإنسان حينما يؤدي العبادات متوهماً أنه أدى الذي عليه وانتهى الأمر، والله ما انتهى شيء ما لم يكن المنهج كاملاً وما لم يطبق المنهج بكل تفاصيله لن نقطف ثماره، لذلك:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

[سورة البقرة الآية: 177]

مثلاً لو أن طالباً سأل والده سؤالاً: أن يا أبتِ كيف تحب أن يكون بعد الكتاب عن حرف الطاولة؟ ما هذا السؤال؟ قال له: سنتمتر، كيف تحب أن يكون ميل الكتاب نحوي بأية زاوية؟ قال له: ادرس، اقرأ، هناك تفاصيل: هناك شكليات: هناك قشور: وهناك لباب: لبّ هذا الدين أن تطيع الله، لبّ هذا الدين أن تعمل وفق منهج رسوله، لبّ هذا الدين أن تكون محسناً

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ)

هل عرفت الله؟ هل عرفت أنه خالق ورب ومسير؟ أنه موجود وواحد وكامل؟ هل تعرفت إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى؟ هل عرفت شيئاً من رحمته؟ من حكمته؟ من عدله؟ من قوته؟ من غناه؟ أسماء الله الحسنى يقول الله عز وجل:

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[سورة الأعراف الآية: 180]

لذلك:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ)

هل من الممكن أن تتصور إنساناً ما بذل دقيقة واحدة وقال: أنا دكتور وهي أعلى شهادة؟ الدكتوراه تحتاج إلى دراسة ثلاثين سنة تقريباً بدءاً من الابتدائي، والإعدادي، والثانوي، والليسانس، والدبلوم العام والخاص، والماجستير، والدكتوراه، وهناك تأليف، وهناك أطروحات، وهناك كتب، وهناك إبداع، يمكن أن يأتي الإيمان هكذا بلا جهد؟ نحن ما على نحن عليه:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ)

الإيمان يحتاج إلى بحث، قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد الآية: 19]

يحتاج إلى بحث، وإلى درس، وإلى جهد:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

الإيمان يحتاج إلى بحث و درس و جهد :

ما اقترن ركنان من أركان الإيمان كما اقترن الإيمان بالله واليوم الآخر، الله موجود ولكن في اليوم الآخر سيحاسب وسيعاقب:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: 74]

أنا أعتقد يقيناً أن الإنسان لن يستقيم الاستقامة التي أرادها الله إلا إذا آمن باليوم الآخر، هناك تسوى الحسابات، هناك يؤخذ للضعيف من القوي، للمظلوم من الظالم:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآيات: 92-93]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم الآية: 42]

من هو الغبي؟ عندي الغبي الذي لا يدخل اليوم الآخر في حساباته، هذا أغبى الأغبياء، فلذلك:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ)

عظمة الإيمان أنه يجعل المؤمن أخلاقياً إذا قال فعل وإذا وعد أنجز :

الله عز وجل أخبرنا في القرآن الكريم أن الملائكة يكتبون علينا كل حركاتنا وسكناتنا، الإنسان إذا توهم أنه مراقب، يضبط كلامه، يضبط حركته، إذا توهم أنه مراقب من إنسان قوي، فكيف إذا أخبره الله أنه مراقب مراقبة تامة من ملكين يكتبان عليه كل شيء:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ)

هذا المنهج القويم، أنت بالكون تعرفه، و بالشرع تعبده، بهذا الكتاب القويم يمكن أن تصل إلى مرضاة الله عز وجل، هناك منهج، ما من آلة غالية، بالغة التعقيد، عظيمة النفع، إلا معها نشرة افعل ولا تفعل، تعليمات الصانع مهمة جداً، إذاً هو الكتاب، وبالنبيين الذين فصلوا هذه الكتب هناك منهج كلي، وهناك تفصيلات جاء بها النبيون:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

لا يكفي أن تؤمن، لا يكفي أن تعجب إعجاباً سلبياً بهذا الدين، لابدّ من حركة، لابدّ من التزام، لابدّ من بذل:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

الله عز وجل بيّن لنا حب المال، آتى المال على حب المال أو على حب الله، والمعنيان صالحان، دفع، إنفاق المال اسمه صدقة، والصدقة تؤكد صدق الإنسان،

(وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى)

الأقربون أولى بالمعروف،

(وَالْيَتَامَى)

الضعاف،

(وَالْمَسَاكِينَ)

الذين ضعفوا عن العمل،

(وَابْنَ السَّبِيلِ)

المنقطع:

((مَنْ جَهّزَ غازياً في سَبيلِ الله فقد غَزَا))

[متفق عليه عن زيد بن خالد الجهني]

((مَنْ خَلفَ غازياً في أهْلِهِ بخير فقدْ غزَا))

[البخاري و مسلم عن زيد بن خالد الجهني]

ومن لم يجاهد أو يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق،

(وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ)

بعد هذه المعرفة، وهذا التدقيق، وهذا الإيمان، وهذا العمل، وهذا العطاء، وهذه التضحية، الآن يستطيع أن يقيم الصلاة، وأن يؤتي الزكاة، كفريضة تحقق التكافل الاجتماعي،

(وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)

أي عظمة الإيمان أنه يجعل المؤمن أخلاقياً، إذا قال فعل، إذا وعد أنجز، إذا تعهد وفى بما تعهد به، لذلك المؤمن يصعب عليه أن يخالف تعهده، أما غير المؤمن يسهل عليه ذلك:

(وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)

وقد تأتيه المصائب امتحاناً له، وقد تأتيه المصائب ترقية له:

(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

إذاً البر كل هذه الأشياء بآية جامعة مانعة هي أصل في موضوع البر.

الأستاذ عدنان:

دكتور أحياناً الفطرة في ذات الإنسان تنطمس، وأحياناً تكون سليمة، في حال سلامتها تجعل الإنسان في موضع أن يحسن ويبر الآخرين، وهو أيضاً بالمقابل أن يُحسَن إليه وأن يُبر إليه، إذا ما كانت

الفطرة سليمة يكون البر معها متوائماً، فإذا انطمس شيء من الفطرة أدى ذلك إلى سلبية في البر، هذه العلاقة ما بين البر والفطرة السليمة.

علاقة البر بالفطرة :

الدكتور راتب:

النبي عليه الصلاة والسلام بحديث جامع وصف البر بأنه الفطرة، فقال:

((البر ما اطمأنت إليه النفس))

[أحمد عن وابصة بن معبد]

هل يستطيع إنسان أن يغش الحليب أمام الشاري؟ مستحيل، لأن الفطرة تمنعه من ذلك:

((البر ما اطمأنت إليه النفس))

[أحمد عن وابصة بن معبد]

لو أن إنساناً كسب مالاً حلالاً، واشترى به طعاماً، وأكله هو وأولاده، هل يمكن أن يسأل هذا الإنسان عالماً عن حكم تناول طعام بمال حلال؟ مستحيل:

((البر ما طمأنت إليه النفس))

الذي يسأل دائماً عنده قلق، لأن فطرته أنبته، لأن فطرته لم تكن مرتاحة لهذا العمل، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام بيّن أن البر الذي أراده الله بهذه الآية منطبق على الفطرة تماماً، ومن أكبر نِعم الله علينا أن فطرنا النفسية تتوافق توافقاً تاماً مع منهج الله:

((البر ما طمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس))

[أحمد عن وابصة بن معبد]

لذلك:

((وإياك وما يعتذر منه))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر]

حديث جامع مانع، أي عمل تضطر إلى أن تعتذر منه هو عمل فيه إشكال:

((وإياك وما يعتذر منه))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر]

فالبر هو الفطرة، والمؤمن يعمل تحت ضوء الشمس، سريرته كعلانيته، خلوته كجلوته، تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال.

الأستاذ عدنان:

هذه علاقة البر بالفطرة، علاقة البر بالتقوى؟

علاقة البر بالتقوى :

الدكتور راتب:

التقوى طاعة الله عز وجل، أنت حينما تطيع الله عز وجل في منهجه التفصيلي الذي جاء به القرآن الكريم، وجاءت به السنة، فأنت من أهل البر، كأن هناك تلازم بين أن تطيع الله وبين أن تكون باراً، لأن طاعة الله تفضي إلى الصلاح، إلى العطاء، إلى الخير، فالخير أحياناً يأخذ ألواناً لكنه في حقيقته شيء واحد.

الأستاذ عدنان:

البر كما أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام وكما في آيات له ثمار كثيرة وواسعة يمكن أن نستخلص شيئاً منها.

ثمار البر :

الدكتور راتب:

أولاً: البر كمال الإيمان كأية فضيلة أخرى جاءت في الكتاب والسنة، ثانياً: طريق سالك إلى الجنة، ثالثاً: البر فيه زيادة في العمر لا في المدة الزمنية بل في المضمون، إنسان فتح محلاً تجارياً العبرة لا في الدوام بل في الغلة، زيادة في العمر بمعنى المضمون الكبير الذي يسعده في الآخرة، وبركة في المال والنسل، البر يزيد المال بركة، ويزيد النسل صلاحاً، والبر أحد أسباب السعادة الكبرى، والبر سبب محبة الخلق للإنسان، والبر طريق سالك إلى الجنة.

الأستاذ عدنان:

الحقيقة شيء رائع أن يلزم الإنسان موضوع البر في نتائجه وثماره ما ذكرتم وبينتم، ومن البر أيضاً كما في الآية الكريمة:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ)

إلى أن وصل:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

هذا الإيمان يمكن أن نجد له من جملة الطرائق ما يتصل بإعجاز الله تعالى في مخلوقاته.

الإعجاز العلمي :

النمل الأبيض :

الدكتور راتب:

أستاذ عدنان، هناك آية كبيرة جداً تدل على عظمة الله هي النمل الأبيض.

ما هو النمل الأبيض ؟

النمل الأبيض حشرات صغيرة تعيش على شكل مستعمرات، وتقيم المساكن الضخمة.

كيف ينشئ النمل الأبيض مساكنه ؟

من لوازم إنشاء المسكن القرميد الذي جهزته النملات العاملات من الطين المتكون من التراب، وإفرازات أفواهها، تصل مساحة مسكن النمل البيض إلى ثلاثة أو أربعة أمتار أحياناً، وعند مقارنة حجم هذا البناء مع حجم النملة يبدو لنا المسكن كناطحة سحاب ضخمة جداً، مساكن النملة هذه مليئة بالممرات العميقة، وعلى طول هذه الممرات يعمل مليون نملة بتناسق تام.

شيء آخر: وعند التدقيق في مقطع عرضي لهذا المسكن يبدو داخل هذه الممرات بهو خاص للملكة، وأقسام زراعية، ومخازن، وأقنية تهوية، بناة مهرة.

الجانب الأمني و الصحي في مساكن النمل الأبيض :

يقوم النمل الأبيض ببناء مسكنة وإصلاحه من جهة، ويتهيأ لصد أي عدوان محتمل من جهة أخرى، هذه سنة الله في خلقه، يقوم بزراعة الفطر داخله من جهة ثانية، وحياة السكان المزدحمين إلى هذا الحد متوقف على شرط مهم جداً هو تأمين التوازن بين الرطوبة والحرارة داخل المسكن، ولدى النمل الأبيض حلّ رائع لهذه المشكلة، فهناك في سقف المسكن هذه نوافذ موازية لبعضها، هذه النوافذ المصنوعة من الطين تمتص الرطوبة الخارجة من النمل، وتتبخر هذه الرطوبة بحرارة جو المكان، وتعلو عبر أقنية التهوية، مما يؤدي إلى تخفيض حرارة المسكن من جهة، وتأمين جريان الهواء الدائم من جهة أخرى، فهذه النوافذ تقوم بمهمة التكييف الطبيعي بشكل تام.

بناء النمل الأبيض مساكنها حسب الظروف :

للنمل أمثلة محيرة في علم الإنشاءات، نوع آخر من النمل يعيش في سهول استراليا الشمالية، تبنى مساكنها هناك بعرض واسع جداً، إلا أن جوانبها رفيعة كالخنجر، سرّ هذه المساكن في زاويتها التي تواجه الشمس، تبني هذه النمل مساكنها بزاوية إلى حدّ أنها عندما تكون الشمس مستوية وقت الظهيرة تدخل بقسم صغير من سطح هذا المسكن فقط، وهكذا تخفف الحرارة إلى أقل ما يمكن، هذا النوع من النمل جميعه يستخدم الزاوية نفسها دون أي تحيز، أما الجانب المثير في الأمر فهو أن هذه النملة القائمة بجميع هذه الإنشاءات عمياء، هذه الكائنات الصغيرة التي لا ترى أمامها قدر سنتمتر واحد، كيف تنشئ هذا البرج الضخم مستندة إلى الحسابات الهندسية الدقيقة؟ هذه الخطة الكبيرة لم يستوعبها الإنسان، بل كل نملة هُديت دون أي قيد أو شرط إلى إلهام الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (22-30) : فوائد الخوف من الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

دكتور من خاف من شيء هرب منه ، ومن خاف الله عز وجل أقبل عليه ، إذاً يمكن أن يكون من نتائج الخوف أمور وتصرفات متعددة وبالتالي يكون في قلب الإنسان أمر ما من هذا الخوف ، إذا أردنا أن نقول التعرف الاصطلاحي للخوف فماذا يمكن أن نقول في مجمع القول ؟

التعريف الاصطلاحي للخوف :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، أستاذ عدنان الخوف أحد خصائص الإنسان الأساسية ، الأنبياء يخافون :

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (21))

(سورة القصص)

والضعاف يخافون والأقوياء يخافون والأغنياء يخافون والفقراء يخافون ، صفة ثابتة في الجنس البشري ، لكن هو في التعريف الاصطلاحي توقع المكروه أو خوف فوات المحبوب ، ذلك أن الإنسان هو فقر إذا كان في خوف الفقر ، أنت من خوف الفقر في فقر ، ومن خوف المرض في مرض ، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها ، يقابل الخوف الأمن ، جنس الإنسان يخاف لكن المؤمن إذا اتصل بالله عز وجل انتقل إلى حالة أخرى :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

صار توقع المصيبة مصيبة ، وخوف المرض مرض ، وخوف الفقر فقر ، لكن الإنسان إذا اعتصم بالله وأقبل عليه أصبح من منجاة من هذا الخوف ، الذي يجعل حياته جحيماً ، على كل الخوف له فوائد

كبيرة جداً ، فوائد إيجابية وحينما يبلغ حداً مرضياً يغدو أحد الأمراض النفسية في الإنسان .

على كل هناك نقطة دقيقة جداً أن الخوف يوظف في الخير .

الأستاذ عدنان :

كيف ؟

توظيف الخوف في الخير :

الدكتور راتب :

قال تعالى :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

كلمة الإنسان المعرفة بأل في القرآن الكريم تعني جنس الإنسان في أصل حلقه قبل أن يؤمن :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

الحقيقة أنني أستطيع أن أوضح للأخوة المشاهدين معنى الخوف بهذا المثل الدقيق كومبيوتر صناعي سعره فلكي صناعي في وصلة ضعيفة تسمى عند أهل الاختصاص فيوز ، هذه الوصلة لو جاء تيار قوي يمكن أن يحرق هذا الكومبيوتر وأن يتلفه ، هذه الوصلة الضعيفة تسيح فإذا ساحت انقطع التيار ، إذاً هذه الوصلة لصالح الآلة ، فالإنسان خُلق ضعيفاً ، خُلق هلوعاً ، خُلق عجولاً ، ثلاث نقاط ضعيفة في أصل خلقه لصالحه .

ثلاث نقاط ضعيفة في أصل خلق الإنسان و لكن لصالحه هي :

1 – الهلع :

نبدأ بالأولى :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

شديد الخوف لولا أنه شديد الخوف لما تاب إلى الله ، قد يأتيه تقرير طبي أن فيه ورم ، هذا الورم يدفعه إلى التوبة ، يدفعه إلى العمل الصالح ، يدفعه إلى طلب العلم ، يدفعه إلى إنفاق ماله ، لولا أن الإنسان يخاف لا يتوب إلى الله عز وجل :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

هذا ليس ضعفاً فيه ، هو نقطة ضعف في أصل خلقه أرادها الله عز وجل .

الهلع نقطة ضعف في أصل الإنسان ليعود إلى الله و يصطلح معه :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

ما معنى هلوع ؟ فسرها القرآن نفسه :

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا *)

يعني أي خبر سيء ، أي شبح مصيبة ، أي تقرير طبي مخيف ، أي تقرير طبي متعلق بالقلب أو بنمو الخلايا أو بسيولة الدم ، أي شبح مصيبة في دخله ، ألغيت وكالته لهذه الشركة ، توقف دخله ، نقل من عمله إلى عمل آخر ، أي شبح مصيبة يخلق فيه جزعاً شديداً

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ)

الآن إذا أصاب مالاً هو حريص عليه يتمنى ألا ينفق ، يتمنى أن يبقى عنده ، يتمنى أن يحافظ عليه ، ولولا هذا الحرص على المال لما ارتقى الإنسان في إنفاق المال ، لولا هذا الحرص على المكتسبات لما ارتقى الإنسان في التضحية بها من أجل نفعه ، قد يكون في منصب وقد يكلف في عمل لا يرضي الله يتخلى عن هذا المنصب يرقى لأن المنصب محبب إليه وتخليه عن هذا المنصب تضحية كبيرة ترتقي بها عند الله ، فلذلك قضية :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ)

هي نقطة الضعف في أصل هذا الإنسان وهذه النقطة ضرورية جداً ليعود إلى الله ليرجع إليه ، ليتوب إليه ليصطلح معه ، ما كان له أن يتوب لو كان قوياً :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6)أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

هناك أربع قراءات هذه القراءات الأربع في مطلع سورة واحدة :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))

(سورة العلق)

هناك قراءة بحث وإيمان ، وهناك قراءة شكر وعرفان ، وهناك قراءة وحي وإذعان ، وهناك قراءة رابعة نعوذ بالله منها :

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6)أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

بالعلم ، يستخدم العلم للسيطرة على الآخرين ، لنهب ثرواتهم ، لإيقاع الأذى بهم ، فالطغيان أساسه الشعور بالقوة ، فلولا أن الإنسان يشعر بالضعف لما تاب إلى الله ، ولما أقبل عليه .

الله عز وجل يعالج الإنسان معالجة حكيمة ليعود إليه :

هناك من يأتي الله عز وجل وهو في خير ، وهو في بحبوحة ، هذا مستوى عالٍ جداً ، لكن لو أخذنا ألف مؤمن أنا يغلب على ظني أن قسماً كبيراً منهم عاد إلى الله على أثر معالجة إلهية حكيمة بسبب هذه النقطة الدقيقة في أصل خلقه .

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

(سورة المعارج)

هو يخاف أن يأتيه مكروه وحريص على ما في يديه ، بخوفه من أن يأتيه مكروه يتوب إلى الله ، وبإنفاقه مما يحرص عليه يرقى إلى الله ، الواحدة يتوب بها إلى الله والثانية يتوقى منها أن يصل إلى رضوان الله عز وجل .

الأستاذ عدنان :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ (40))

(سورة النازعات)

هنا آية الكريمة تشير إلى الذي يخاف الله عز وجل ، يخافه في كل شيء ، في تصرفاته ، في أعماله ، في نواياه ، في كل شيء في حياته ، له أجر وله مكافأة يمكن أن نتابع فيما ورد .

من اتصل بالله عز وجل أذهب عنه الخوف :

الدكتور راتب :

الآية الأولى لها تتمة دقيقة جداً اسمح لي أن أتابع الأولى :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

المتصل بالله ذهب عنه الخوف :

(إنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت الآية : 20)

جاء تطمين الله لهم :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (48))

(سورة الطور)

أكبر ثمرة يجنيها المؤمن من إيمانه أن الله يلقي في قلبه الأمن مكان الخوف :

(قالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

يعني أكبر ثمرة يجنيها المؤمن من إيمانه أن الله يلقي في قلبه مكان الخوف الأمن والآية الدقيقة :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

يوجد ملمح بالصياغة لو أن الله قال أولئك الأمن لهم ، أي ولغيرهم ، أما أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ ، وحدهم ، أنا موقن أن المؤمن وحده وليس أي إنسان آخر هو الذي يملأ الله قلبه بالأمن :

(أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

من أشرك بالله ألقى الله في قلبه شركاً جلياً أو شركاً خفياً :

لكن :

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

أي أن المؤمن يمكن أن تزل قدمه وأن يظلم ، فإذا ظلم فقد الأمن ، القاعدة أن الله يلقي في قلب الإنسان الذي أشرك شركاً جلياً أو شركاً خفياً ، الشرك الجلي أن تعبد غير الله أن تعبد صنماً لكن الخفي خطير جداً .

أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوة خفية وأعمال لغير الله . الشرك الخفي من لوازمه القطعية ، أن يلقي الله في قلب هذا المشرك شركاً خفياً ، الخوف :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ)

(سورة آل عمران الراية : 151)

والباء باء السبب .

المصلون في أمن من الله عز وجل لكن بشروط :

إذاً :

(إنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إلاّ الْمُصَلّينَ)

(سورة المعارج)

المصلون في أمن من الله عز وجل :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

ولكن نحن حينما نقول المصلون يقفز إلى الذهن أن الإنسان توضأ وصلى وانتهى الأمر ، لكن ورد في بعض الآثار القدسية :

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي وكف شهواته عن محارمي ، ولم يصر على معصيتي ، وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المصاب وآوى الغريب ، كل ذلك لي ، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس ، على أن أجعل الجهالة له حلما ، والظلمة نورا ، يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه ، ويقسم عليّ فأبره ، أكلأه بقربي ، وأستحفظه ملائكتي ، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ، ولا يتغير حالها))

[رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

من هم المصلون ؟

عندنا قاعدة منطقية لو أنك قلت إنساناً ، هذه الكلمة تغطي كم ؟ تغطي البشر كلهم تغطي ستة آلاف مليون ، لو أضفت لكلمة إنسان مسلم ، هذه الدائرة الواسعة انحسرت إلى مليار ونصف ، كانت ستة آلاف مليون الآن مليار ونصف ، إذا أضفت إنساناً مسلماً عربياً ، ثلاثمئة مليون ، مثقف فرضاً ، لا أدري بالضبط ، مئتا مليون ، طبيب مئتا ألف ، طبيب قلب ، ألف ، طبيب قلب مثلاً جراح ، خمسمئة ، طبيب قلب جراح مقيم في دمشق مثلاً خمسة ، فكلما أضيفت صفة ضاقت الدائرة ، هذه قاعدة منطقية ، قالوا الصفة قيد .

(إنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إلاّ الْمُصَلّينَ)

(سورة المعارج)

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

ضاقت ،

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

الآية طويلة ، كل صفة تضيق بها الدائرة .

من تواضع لعظمة الله عز وجل في صلاته ألقى الله في قلبه النور :

لذلك :

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي ، تفكر في خلق السماوات والأرض وقدر الله حق قدره فأطاعه))

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي وكف شهواته عن محارمي
(استقام على أمر الله) ولم يصر على معصيتي (تاب من حين لآخر)وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المصاب (كان له عمل صالح)وآوى الغريب ، كل ذلك لي (إخلاصاً ، دخل فيها الاستقامة والعمل الصالح والإخلاص وأداء العبادات والتفكر في ملكوت السماوات والأرض)وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس (يعني ألقى الله في قلبه النور ، رأى الحق حقاً والباطل باطلاً، ألقى الله في قلبه البصيرة رأى بها الخير والشر)على أن أجعل الجهالة له حلما (هناك تبدل جذري في حياة المؤمن بين أن يكون منقطعاً عن الله فيه جهالة وجاهلية وانحراف بعد الاتصال بالله أصبح فيه حلم والحلم سيد الأخلاق)والظلمة نورا (ألقى الله في قلبه نورا))).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ((28)

(سورة الحديد)

((وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس ، على أن أجعل الجهالة له حلما ، والظلمة نورا ، يدعوني فألبيه (أصبح مستجاب الدعوة)، ويسألني فأعطيه ، ويقسم علي فأبره ، أكلأه بقربي ، وأستحفظه ملائكتي ، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ، ولا يتغير حالها))

[رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

2 – الضعف :

الآن هناك نقطة ضعف أخرى :

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28))

(سورة النساء)

لو خلقه الله قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه ، خلقه ضعيفاً ليفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره ، إذاً نقطة ضعف أخرى لصالح المؤمن كالفيوز في الآلة الغالية .

3 ـ العجلة :

الشيء الآخر :

(وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11))

(سورة الإسراء)

هو ليس يحب الشيء العاجل ، يحب الشيء الذي أمامه ، يحب أن يقتنص المكاسب مباشرة ، فإذا اختار الآخرة ، اختار هدفاً بعيداً ، معنى ذلك تناقض مع نقطة ضعفه العجلة ، إذاً عندها يرتقي ، لما الإنسان يختار الآخرة تأتيه الدنيا وهي راغمة ، تأتيه أموالها من طريق مشروع ، تأتيه مناصبها من طريق لا يرضي الله مثلاً ؟ يأتيه عزها وسلطانها من طرق لا ترضي الله عز وجل ؟ لذلك يختار المؤمن ما عند الله بعد الموت ، لأنه خالف أصل فطرته وهي أنه عجول يرتقي عند الله عز وجل ، معنى ذلك أنه فكر بالمستقبل .

لا يرقى الإنسان عند الله عز وجل إلا عندما يختار الآخرة :

لذلك الإنسان كلما كان عاقلاً يعيش المستقبل ، وكلما كان أقل عقلاً يعيش الحاضر ، فإذا كان غبياً يعيش الماضي فقط ، أن تعيش المستقبل أخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا فلذلك الإنسان خلق عجولاً ، فإذا اختار هدفاً بعيداً يتجاوز الحياة كلها يرقى عند الله عز وجل ، هذه نقاط الضعف الأساسية في حياته .

الأستاذ عدنان :

دكتور بعضهم يقول ألا يكتفي الدعاة إلى الله عز وجل بأن يقولوا أمامنا الأقوال في الترهيب ويتركون الترغيب ، علماً بأنه كما وضحتم للترهيب فائدة في ذات الإنسان ليصل إلى الترغيب في النهاية ورضا الله عز وجل ، ومن منطوق هذه الناحية يأتي قوله تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ (40))

(سورة النازعات)

نتابع معاً شرحها .

التناقض بين الطبع والتكليف ثمن الجنة :

الدكتور راتب :

الحقيقة مرة ذكرت أن في الإنسان طبع ومعه تكليف ، وهناك تناقض بين الطبع والتكليف ، طبع الإنسان أن يأخذ المال ، التكليف أن ينفقها ، طبع الإنسان أن يخوض في فضائح الآخرين والتكليف أن يصمت ، طبع الإنسان أن يملأ عينيه من محاسن النساء ، التكليف أن يغض البصر ، طبع الإنسان فردي التكليف تعاوني ، هذا التناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنة ، بما ندخل الجنة ؟ لولا أن هناك طبع يميل للنوم والتكليف قم واستيقظ وصلِّ الفجر في وقته ، لولا هذا التكليف يأمرك أن تعاكس طبعك ، أن تغض بصرك لما ارتقى الإنسان إلى الله عز وجل ، لذلك ثم الجنة هذه المخالفة لقواعد الطبع والائتمار بأمر الله عز وجل :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات)

لا يرقى المؤمن عند ربه إلا عندما يخاف أن تنقطع صلته بالله :

أستاذ عدنان يوجد معنى دقيق جداً : فرق كبير بين أن تخاف من عقاب الله وبين أن تخاف من أن تنقطع صلتك به ، فرق كبير جداً ، فرق المحب والخائف ، المؤمن يخاف لكن لا يخاف من عقاب الله بقدر ما يخاف أن تنقطع صلته بالله ، ورد في بعض الآثار ، شاب سمع من شيخه أن لكل معصية عقاباً، يبدو أن قدمه زلت ، فارتكب معصية صغيرة ، بحسب كلام شيخه هو ينتظر العقاب من الله ، مضى أسبوع ، أسبوعان ، ثلاثة أسابيع ، في أثناء المناجاة قال : يا رب ، لقد عصيتك ولم تعاقبني ؟ قال : وقع في قلب هذا الشاب : أن يا عبدي ، قد عاقبتك ولم تدر ، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ أحياناً الإنسان لا يعاقب بمصيبة يعاقب ببعده عن الله ، هذه نقطة دقيقة جداً ، كلما ارتقى المؤمن يخاف أن تنقطع صلته بالله ، هو يحرص عليها .

الأستاذ عدنان :

آية أخرى أيضاً دكتور في هذا الموضوع .

علاقة كل إنسان مع خالقه فينبغي أن يخاف منه وحده :

الدكتور راتب :

(مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

هذه الآية أستاذ عدنان أنا أقربها لأذهان الأخوة المشاهدين بهذا المثل ، تصور وحوشاً مفترسة جائعة يمكن أن تلتهم الإنسان بثوان معدودة ، لكنها مربوطة بأزمَّة محكمة ، بيد جهة قوية ، رحيمة ، عادلة ، أنت كإنسان أمامك وحوش مخيفة لكن علاقتك الحقيقية ليست مع الوحوش ولكن مع من يملكها ، فإن أرضيته أبعدها عنك وإن لم تكن كما ينبغي أن تكون معه أرخى هذه الأزمة فوصلت إليك ، فالبطولة ألا أخاف من هذه الوحوش ينبغي أن أخاف من الله ، هذا معنى قوله تعالى :

(مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

من يتبع منهج الله عز وجل لا يضل عقله ولا تشقى نفسه :

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

بيده الخلق والأمر ، هذا التوحيد يريح الأعصاب ، هذا التوحيد يبعد عن الحقد ، هذا التوحيد يملأ القلب طمأنينة ، أنا علاقتي بالله ، أنا عليّ أن أطيعه ، النبي الكريم سأل سيدنا معاذ قال :

((يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ فَقَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[متفق عليه عن معاذ]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت الآية : 30)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

(فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

لنجمع الآيتين من يتبع منهج الله عز وجل لا يضل عقله ولا تشقى نفسه ولا يندم على ما فات ولا يخشى مما هو آت ، هذه الحقيقة الدقيقة .

الأستاذ عدنان :

و هذه حقيقة رائعة ، من بعض ثمار الخوف من الله عز وجل .

على كل إنسان ألا يخاف من قوي أو طاغية إنما من ذنبه الذي يجلب له الأخطار :

الدكتور راتب :

هناك حديث شريف دقيق جداً قبل أن نأخذ الثمار :

((لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه))

[مسند الفردوس عن علي بن أبي طالب]

لا تخاف من قوي ولا من طاغية ولا من مرض خبيث لا تخف إلا من ذنبك لأن الذنب هو الذي يجلب كل هذه الأخطار ،

((لا يخافن إلا ذنبه))

وإذا وقع المصاب لا سمح الله

((لا يرجو عبد إلا ربه))

هذا الحديث جامع مانع ينبغي أن نخاف من الله وحده ولاسيما إذا خفنا من ذنوبنا ، أنا أخاف أن أستحق عقاب الله ، أنا أخاف أن أقترف ذنباً أستحق معه عقاب الله ، وإذا وقعت في مصيبة أو في مشكلة ليس إلا الله هو المرجو إزاحتها عن كاهله ، هذا موضوع دقيق .

ثمار الخوف من الله عز وجل :

1 ـ الخوف طريق الإنسان للفوز بالجنة :

أما ثمار الخوف أنها طريق للفوز بالجنة ، لأنه من خاف من شيء هرب منه ، لكنه من خاف من الله أقبل عليه ، فإذا أقبلت عليه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فالخوف طريق إلى الجنة ، والخوف أمن من الفزع الأكبر ، هناك خوفان وهناك أمنان ، من خاف الله في الدنيا أمنه يوم القيامة ومن أمنه في الدنيا خوفه يوم القيامة ، فالخوف في الدنيا طريق إلى الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة ، شيء آخر هو كمال الإيمان أن تخاف من الله ، رأس الحكمة المخافة من الله ، ومرة ثانية أخاف على أن تنقطع صلتي به .

2 ـ الخوف من الله يثمر محبة له :

شيء آخر أن تخاف من الله هذا يثمر محبته ، أما إذا إنسان أمره بيد الله وخاف من إنسان الله عز وجل لا يرضى عنه ، الأمر بيدي يا عبدي يجب أن تخاف مني أتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ؟

3 ـ الخوف يؤدي إلى الطاعة و الإخلاص :

شيء آخر الخوف من لوازمه الطبيعية الطاعة لله ، الخوف يؤدي إلى الطاعة والخوف يؤدي إلى الإخلاص لله عز وجل ، هذه بعض ثمار الخوف .

الأستاذ عدنان :

هذه الثمار الذين وضحتم بعضها من خلال الإخلاص ، والإقبال على الله عز وجل ، عندما يكون الإنسان ضمن الخوف يتقرب بشكل ما إلى الجنة وإلى رضا الله عز والشيء الهام فعلاً والذي يعرفه من يذوق حلاوة أن البعد عن الله عز وجل فيه خوف حتى لا يحدثه الإنسان في نفسه يجب أن يكون متقرباً إلى الله عز وجل .

الخوف نوعان إيجابي و مرضي :

الدكتور راتب : إذاً هناك خوف إيجابي الذي يسبق الصلح مع الله وهناك خوف مرضي الذي يعقب المعصية لله عز وجل .

الأستاذ عدنان :

نرجو الله تعالى أن نكون مع الخوف الذي يوصلنا إلى أن نكون مرتبطين دائماً بالله تعالى ، هذا الارتباط الذي نجده في وجوه متعددة منها ما يتصل بالإعجاز في خلق الله ومنها ما نجده في الآثار الموجودة حولنا ، نتابع من هذه الآثار الموجودة حولنا فيما يكون من ضمن إعجازات الله تعالى في خلقه .

من إعجازات الله تعالى في خلقه طائر النساج :

الدكتور راتب :

من الآيات الدالة على عظمة الله الطائر النساج ، ينسج بيته ، يعدّ الطائر النساج معمارياً ماهراً من بين المعماريين في الطبيعة ، يبني أعشاشه بنسج الأعواد مع بعضها ، قبل أن يبني الطائر النسّاج عشه يصنع له سقفاً مثلث الشكل أولاً ، ثم يعقد على كل زاوية عقدة مختلفة عن الأخرى ، فلكل عش سقف متين ، جدران ومدخل .

هناك في الكون عقل أول هو الله تعالى الذي ألهم طائر النساج ببناء عشه المتقن :

أول مرحلة في إنشاء العش : ربط فرعة عشب رفيعة طويلة بغصن رفيع ، وهذه العملية ليست بهذه السهولة ، فربط عقدة واحدة فقط يحتاج من الطائر إلى محاولات كثيرة ، ربط العقدة الأولى بالشكل الصحيح مهم جداً وبالعكس ، فإذا كانت العقدة الأولى غير صحيحة فلا يبقى أي معنى لمتابعة بناء العش لأن الخطوات التالية تتبع الخطوات الأولى في الخطأ ، تزداد العقد باستمرار وتأخذ شكلاً دائرياً ، يجب على الطائر أن يحسب حجم الحلقات التي شكّلها بدقة ، فيجب أن تكون كبيرة إلى حدّ يستطيع الدخول من خلالها ومع ذلك يجب أن تكون صغيرة حتى لا تسمح للطيور الأكبر منها بالدخول إلى العش . يعني حساب دقيق جداً .

يلتزم الطائر دائماً الحجم الأمثل اللازم للحلقة ، وهكذا بعدما نسج الحلقة الأساسية للعش ، وأطراف هيكله تبدأ مرحلة بناء العش ، التقنية التي تستخدمها الطيور النساجة في بناء أعشاشها هي التقنية نفسها التي يستخدمها الناس في النسج ، تخيط الأعشاب ببعضها بالترتيب قفزاً من الأعلى ومن الأسفل و في النهاية تنشأ الأعشاش الرائعة حقيقة بتنسيق هذه التقنية العالية بصبر ، عند النظر إلى الأشجار التي تعيش فيها الطيور النساجة لا يبدو عش واحد فقط بل يبدو مشهد لمدينة ضخمة مؤلفة من مئات البيوت، ينشئ كل طائر نساج عشه بتنفيذ الخطة المرسومة له دائماً .

الحقيقة أستاذ عدنان نحن أمام مشاهد من عظمة الله عز وجل التي جعلها ظاهرة في بعض خلقه ، فطائر أعجم ، طائر بهيمة ، طائر لا يعقل يقوم بأعمال ذكية جداً ، إذاً هناك في الكون عقل أول هو الله عز وجل ، هو الملهم ، هو المصمم ، فنحن حينما نرى دقة خلق الله عز وجل نزداد به معرفة ، و إذا زدنا به معرفة ازددنا له طاعة ، و كأن طريق طاعة الله أن تعرفه ، إذا عرفنا الآمر تفانينا في طاعة الآمر ، أما إذا عرفنا الأمر و لم نعرف الآمر تفننا في التفلت من الأمر .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (23-30) : الأدب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :
كلمة الأدب ما أجملها وما أروع وقعها عندما يسمعها الإنسان ، الأدب خصلة من الخصال الرائعة التي يتحلى بها الإنسان المؤمن فتزيده قوة ، ومحبة ، ورفعة في عيون الآخرين وعند الله عز وجل ، والأدب مطلوب ، ومن منا لا يحبه ، وبالمقابل من منا لا ينفر من سوء الأدب ، لكن الأدب في جملته يمكن أن تكون له صفات ، من خلال هذه الصفات يمكن أن يكون له تعريف ، هل نطلع على ذلك ؟

الأدب سلوك راق جداً يؤدب النفس و يهذبها :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ عدنان قبل أن نعرف الأدب إذا تصورنا أن الإسلام شكل مثلث له أربعة أقسام ، في قسمه الأول العقائد ، وفي القسم الذي يليه العبادات ، وفي القسم الثالث المعاملات ، وفي القسم الرابع الآداب ، هناك عقيدة وهناك عبادة وهناك حكم شرعي في التعامل وهناك آداب إسلامية .
أولاً كيف أن الإنسان يجري تمارين رياضية ليقوي جسمه ، الرياضة التي نألفها السويدية رياضة الجسم ، والأدب رياضة النفس ، هناك نفس رعناء ، نفس جافية ، نفس وقحة ، نفس فيها غلظة ، فيها قسوة ، فيها تطرف ، فيها اجتراء ، فيها استعلاء ، فيها كبر ، كلما اقترب الإنسان من الله تأدب بالآداب التي ترقى به ، قضية الأدب رقي ، قضية الأدب حضارة ، قضية الأدب سلوك راق جداً ، مرة طالبان يقفان في مكان في جامعة في لندن لهما صديق بريطاني ، كلما اقترب منهم تكلموا بالإنكليزية ، هذه الظاهرة لفتت نظره سألهم ما القصة ؟ قالوا لأن نبينا عليه الصلاة والسلام أمرنا إذا كنا ثلاثة ألا يتناجى اثنان دون الثالث فإن هذا يحزنه ، فإذا تابعا كلامهما باللغة العربية حزن هذا الصديق الثالث ، أخذ بهذا الأدب الرفيع الذي علمنا إياه النبي صلى الله عليه وسلم فكان هذا الأخذ بهذا الأدب الرفيع سبب إسلامه.

المؤمن كتلة من الآداب بعد معرفته بالله و صلته به :

الحقيقة : الإسلام مجموعة آداب عالية جداً ، حتى إنه لما قيل للنبي ما هذا الأدب يا رسول الله ؟ ورد في بعض الكتب أنه قال أدبني ربي فأحسن تأديبي .

المؤمن بعد معرفته بالله ، وبعد الاتصال به هو كتلة من الآداب ، هو قوي لكن مؤدب ، مؤدب في كل شيء ، مؤدب مع ربه ، مؤدب مع نبيه ، مؤدب مع المؤمنين ، مؤدب مع أهل بيته ، مؤدب مع الناس عامة ، لذلك ما من صفة يحبها الإنسان كأن يكون الذي يعامله مؤدباً ، ومن نعم الله الكبرى أن يكون الذين حولك على شاكلتك ، من هنا قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((إن الله اختارني ، واختار لي أصحابًا))

[الطبراني في الكبير والأوسط عن عديم بن ساعدة ، وابن أبي عاصم في السنة عن أنس]

من سعادة المرء أن يحاط بأناس على شاكلته ، إن كان مؤدباً هم مؤدبون ، إن كان لطيفاً هم لطفاء ، إن كان رحيماً هم رحماء .

الأدب رقي النفس بعد أن تصح عقيدتها و تستقيم معاملتها :

لذلك كلمة أدب كلمة كبيرة جداً ، الأدب رقي النفس بعد أن تصح عقيدتها ، وبعد أن تصح عبادتها ، وبعد أن تستقيم معاملتها ، الآن تتأدب بالآداب الإسلامية ، ونحن حينما تغيب عنا الآداب الإسلامية ونتوهم أن الإسلام أداء لعبادات شعائرية ، أما الإنسان في بيته يصخب ، في بيته يرتكب الأخطاء الكبيرة ، هذا ليس متبعاً للأدب النبوي ، ذلك أن الإنسان حينما يعلو صوته في البيت تجرح عدالته ، وحينما يأكل في الطريق تجرح عدالته ، وحينما يمشي حافياً تجرح عدالته ، وحينما يتنزه في الطرقات ويملأ عينيه من محاسن الحسناوات تجرح عدالته ، وحينما يطلق لفرسه العنان تجرح عدالته ، وحينما يبول في الطريق تجرح عدالته ، هناك آداب إسلامية راقية جداً ، لا أريد أن أدخل في تفاصيلها في كتب الفقه شرح طويل لهذه الآداب ، ولكن الأدب : الإنسان حينما يتصل بالكمال المطلق (بالله عز وجل)يصطبغ بالأدب الذي يليق بالإنسان ويرقى به ، وحينما نعيش مع أناس مؤدبين بآداب الإسلام نكون في جنة ، وحينما نعيش مع أناس متفلتين من منهج الله نرى الكبر والعنجهية والوحشية والقسوة والسخف والدناءة والقذارة .

لذلك الفرق الكبير بين مؤمن وغير مؤمن ليس فرق أداء صلوات إطلاقاً فرق جوهري ، فرق في بنيته النفسية ، فرق في منطلقاته الفكرية ، فرق في سلوكه اليومي ، فرق في معاملاته ، يكاد المؤمن يقطر

أدباً ، مثلاً ، النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل بيته لف ثوبه ، هل يمكن أن يوقظ حفيف ثيابه زوجته ؟

كان يقول : لا تحمروا الوجوه ، لا يحب إحراج أحد .

مرة كان يأكل تمراً فكان إذا أمسك بالتمرة وضعها في فمه ، الآن أكلها بقيت النواة ، لو أمسك النواة بأصبعيه ووضعهما على الخوان ما الذي يحصل ؟ أخذ تمرة ثانية فوجدها قاسية فتركها وأخذ الثالثة ، انتقل لعابه الشريف إلى تمرة لم يأكلها فكان من أدبه في الطعام والشراب أنه إذا أكل تمرة وضع النواة بين أصبعيه لئلا تمس أصبعاه النواة التي فيها لعابه ، ما هذا الأدب ؟

الأدب رياضة النفوس :

حينما تقرأ السيرة تجد أن هذا الإنسان على أنه نبي عظيم ، ورسول كريم ، وقائد شجاع ، وزعيم أمة، هو في علاقاته اليومية ، وفي خصائصه النفسية في أعلى درجات الأدب ، لذلك عندما سئلت السيدة عائشة عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت :

((كان خلقه القرآن))

[مسلم عن عائشة]

الأدب رياضة النفوس ، هناك أشخاص عندهم لياقة رياضية ، يعني جسم رشيق حركته سهلة ، نبض قلبه منخفض جداً نشاط عال ، جهد كبير جداً مارسه حتى بلغ هذا المستوى من اللياقة الجسمية ، وهناك جهد بآلاف الأضعاف يبذلها المؤمن ليكون رياضياً من الداخل ، يعني رياضة النفس ، يعني أديب ، لا يوجد إنسان دخل مدينة فاتحاً إلا ويستعلي ويستكبر ويحقر من حوله إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة المكرمة ، وكان منتصراً دخلها مطأطئ الرأس ، كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل ، وما رئي ماداً رجليه قط بين أصحابه ، كان يمشي مع الخادم ، كان يجلس مع امرأة ضعيفة تكلمه طويلاً في حاجتها ، يمشي في الطريق استوقفته امرأة ضعيفة ، فقيرة فوقف معها طويلاً يكلمها في حاجتها ، معه عدي بن حاتم ، ملِك ، قال : والله ما هذا بأمر ملِك ، هذا نبي ، وليس ملِكاً .

سيدنا الصديق له خدمة لبعض جيرانه كان يحلب لها الشياه ، فلما تولى الخلافة غلب على ظن جارته العجوز أن هذه الخدمة قد توقفت ، الذي حصل أنه في صبيحة اليوم الأول طرق باب العجوز ، العجوز قالت لابنتها افتحي الباب يا بنيتي من الطارق ؟ قال يا أمي جاء حالب الشاة ، قالت لها إنه أمير المؤمنين يا ابنتي .

الأدب صلاح اللسان والعمل :

الإنسان حينما يرقى له أساليب في تعامله مع الخلق تفوق حدّ الخيال ، في تواضع في رحمة ، لكن هو قوي ، الإسلام فيه قوة :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39))

(سورة الشورى)

لكن في الآداب العامة :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(34)وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(35))

(سورة فصلت)

فالأدب نهاية الكمال ، لكنه منوع جداً .

على كل رياضة النفس ، أو محاسن الأخلاق ، أو صلاح اللسان والعمل ، مثلاً امرأة تريد أن تشتكي على زوجها قالت : يا أمير المؤمنين ، إن زوجي صوام قوام ، ما انتبه لها ، قال : بارك الله لك بزوجك، سيدنا علي قال : إنها تشكوه ، ما هذا الأدب الرفيع ؟ لأنه لا يقاربها أبداً ، في النهار صائم ، وفي الليل قائم .

القرآن الكريم كله آداب :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

(سورة المعارج)

كل أنواع الشذوذ الجنسي :

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

(سورة المعارج)

الدين كله حياء :

هناك من يقول لا حياء في الدين ، والله أنا أرى العكس الدين كله حياء :

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ (43))

(سورة النساء)

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا)

(سورة الأعراف : 189)

كل العبارات التي تخدش الحياء ابتعد عنها ، القرآن الكريم قد يسمع هذه الآية طفل صغير يفهم أن الزوج مست يده يد زوجته .

الآداب علامة رقي الإنسان و تواضعه :

إذاً الآداب باب واسع جداً هو علامة رقي الإنسان ، أنا لا أفهم من الأدب أنه ضعيف ، لا ، قد يكون قوياً في أعلى درجات القوة ، وقد يكون متمكناً ، وقد يكون حقق نجاحاً كبيراً ، لكنه متواضع جداً مع من حوله ، لأن المؤمن ليس عنصرياً ، النبي صلى الله عليه وسلم كان مع أصحابه في سفر ، أرادوا أن يعالجوا شاة ، فقال أحدهم : عليّ ذبحها ، وقال الثاني : عليّ سلخها ، وقال الثالث : عليّ طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام : وعليّ جمع الحطب ، قالوا : نكفيك ذلك ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه .

كان يجلس حيث ينتهي به المجلس ، يدخل أعرابي على النبي وأصحابه ، فيقول : أيّكم محمد ؟ من تواضع ما بعده تواضع ، من محبة ما بعدها محبة ، فلذلك رياضة النفوس ، محاسن الأخلاق ، صلاح الدنيا والآخرة ، صلاح اللسان والعمل ، اللسان في أدب ، مثلاً سيدنا عمر مرّ بقوم أمامهم نار متقدة قال السلام عليكم يا أهل الضوء ولم يقل السلام عليكم يا أصحاب النار ، فرق كبير ، لو تتبعنا آداب الصحابة الكرام لكان شيئاً مذهلاً ، مثلاً قيل للعباس : أيّكما أكبر أنت أم رسول الله ؟ عمه العباس ، فقال : أنا ولدت قبله ، وهو أكبر مني .

قصدي عندما يكون في الأسرة هذه الآداب ، في المجتمع ، في المدرسة ، في الجامعة ، في المعمل ، في مقامات ، في آداب ، في حدود ، أما حينما يتفلت الإنسان من منهج الله يصبح دابة متفلتة ، شأنه أن يؤذي بكلام قاسٍ ، بازدراء ، أحياناً باستعلاء ، بعنجهية ، هذا الذي نتمنى أن يبتعد عنه المسلمون في شتى بلادهم .

الأستاذ عدنان :

سيدي من هذه الناحية ذكرتني أيضاً بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذ أنه خرج من المسجد فإذا بمجموعة من الصحابة أيضاً يخرجون معه التفت فرآهم ، قال ما شأنكم ؟ قالوا : رأيناك تسير وحدك أحببنا أن نسير معك ، قال : لا ، اذهبوا فإنها فتنة للمتبوع ومذلة للتابع ، أدب فعلاً ما بعده أدب ، هذا الذي كان يتحاشاه يركض إليه كثير من الناس .

الأدب في الإنسان المؤمن يكون مع الله و رسوله :

الدكتور راتب :

مرة اطلعت على كلمة قالها أحد كبار العلماء عبد الله بن المبارك : دخل إلى المسجد وهو مكتظ بأتباعه ، وطلاب العلم ، وعظموه كثيراً فبكى وقال : يا رب لا تحجبني عنك بهم ، ولا تحجبهم عنك بي . كلام عميق جداً ، لا تحجبني عنك بهم ، أنني أرى أناساً يحترمونني ويكبرونني فأنسى طاعتك يا رب ، ولا تحجبهم عنك بي ، أحياناً الإنسان ينسى الله ويخضع لإنسان مثله فيرضيه ولا يرضي الله ، فهناك مذلة قدر ، على كل كلما كان الإنسان قريباً من الله كان صاحياً لا تزل قدمه في هذا المجال .

الأستاذ عدنان :

سيدي من هذا المنطلق يمكننا أن نقول : إن الأدب في الإنسان المؤمن يكون مع الله عز وجل ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أتباعه مع الخلق أجمعين .

الأدب مع الله يكون بـ :

1 – أن تصون العمل من أن يخالف منهج الله :

الدكتور راتب :

الحقيقة الأدب مع الله أن تصون عملك ، ألا يكون مخالفاً لمنهج رسول الله :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

ما القلب السليم ؟ القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله ، ولا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله ، وسلم من عبادة غير الله ، وسلم من تحكيم غير شرع الله ، هذه من صفات القلب السليم ، النقطة الدقيقة في هذا الموضوع أن يراك حيث أمرك ، وأن يفتقدك حيث نهاك ، وليس الولي الذي يطير في الهواء ، وليس الولي الذي يمشي على سطح الماء ، هذه خرافات ، الولي بالتعريف القرآني :

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

(سورة يونس)

تعريف جامع مانع طبيعي واقعي ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، فلذلك ليس الولي الذي يطير في الهواء، وليس الولي الذي يمشي على سطح الماء ، ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام .

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

2 ـ صيانة القلب عن أن يحب غير الله :

الأدب مع الله أن تصون العمل من أن يخالف منهج الله ، أي حياتك ، كسب مالك ، إنفاق مالك ، تربيتك لأولادك ، بيتك ، رحلتك ، سفرك ، إقامتك ، الفرح ، المأساة ، العلاقات كلها وفق منهج الله ، هذه طاعة الله وهذه التقوى ، لكن هناك معنى آخر صيانة القلب عن أن يحب غير الله :

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

يعني الله عز وجل إذا نظر إلى عملك فهو وفق منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا اطلع على قلبك لا يرى فيه شريكاً له ، خالص في محبته لله عز وجل :

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي ، وَقَدْ اتَّخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا))

[متفق عليه ، واللفظ لمسلم عن عبد الله بن مسعود]

3 ـ صيانة الإرادة عن أن تتجه لغير الله :

شيء آخر صيانة الإرادة عن أن تتجه لغير الله ، هناك إرادة وهناك قلب وهناك فعل ، فالفعل مطابق لمنهج الله والقلب ممتلئ محبة لله :

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(سورة المؤمنون)

اللغو ما سوى الله ، الآن الإرادة أن تتجه إلى مرضاة الله ، إلهي أنت مقصودي ، ورضاك مطلوبي ، هذا هو الأدب مع الله أن أصون إرادتي أولاً وقلبي ثانياً وعملي ثالثاً ، فإذا كانت إرادتي أن تتجه إلى الله ، وقلبي ممتلئ بحب الله ، وعملي متوافق مع منهج الله ، فأنا متأدب مع الله ، فالذي يتأدب مع الله له عند الله مكانة كبيرة جداً .

الأستاذ عدنان :

مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

الأدب مع رسول الله يكون بـ :

1 – اتباع منهجه دون أن نقترح تعديلات أو حذفاً أو إضافة لمنهجه بعد مماته :

الدكتور راتب :

مع النبي صلى الله عليه وسلم ، الله عز وجل قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (1))

(سورة الحجرات)

النبي صلى الله عليه وسلم له سنة صحيحة ثابتة ، قال تعالى :

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (7))

(سورة الحشر)

الأدب مع رسول الله ألا تقترح على النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ولا بعد مماته ، أن تقول هذا التوجيه النبوي لا يصلح لهذا العصر ، أنت قدمت بين يدي رسول الله كلاماً آخر :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (1))

(سورة الحجرات)

2 – أن نحسن الظن برسول الله :

الأدب مع رسول الله أن تحسن الظن برسول الله ، مرة قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تقتلوا عمي العباس ، وكان في مكة وكان مسلماً وكانت عينه على قريش ، فلو أنه قال عمي مسلم أنهى مهمته ، ولو أن عمه لم يشارك في الحرب كشف نفسه ، ولو سكت النبي لقتل لأنه محارب ، أحد الصحابة قال أينهانا عن قتل عمه ؟ أي ما أعجب هذا ، فلما كشفت له الحقيقة قال : ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله .

فمن الأدب أن تحسن الظن به لأنه إنسان جعله الله سيد البشر ، ولكن الإنسان إذا كان عدواً قد يجد بعض ما يتوهم أنه ثغرات ، لا ، لما تحدث الناس عن السيدة عائشة :

(ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ(12))

(سورة النور)

فمن الأدب مع رسول الله حسن الظن به والبحث عن التفسير الذي يليق بمكانته ، إذاً اتباع منهجه دون أن نقترح تعديلات أو حذفاً أو إضافة لمنهجه بعد مماته ، ثم الأدب معه بحسن الظن به وهذه كلها من آداب المؤمن مع رسول الله ويقع في قمتها اتباع منهجها .

الأستاذ عدنان :

مع الخلق ؟

الأدب مع الخلق يكون بـ :

1 – معاملة الخلق بما يليق بهم :

الدكتور راتب :

الحقيقة مع الخلق معاملتهم بما يليق بهم ، أن تعامل الصغير بالمحبة ، الكبير بالاحترام ، الصديق بالتعاون ، فكل إنسان له مكانة ، الأب له مكانة ، الأم لها مكانة ، الابن له مكانة ، الزوجة لها مكانة ، الأخوات لهم مكانة ، إنسان يشتري من عندك له مكانة ، أنت حينما تعطي كل ذي حق حقه تكون أديباً معه ، حينما تنزل الناس منازلهم ، حينما لا تستهين بأقدار الناس ومكانتهم ، حينما تعامل الصغير بما ينبغي أن يعامل به ، تعامل من هو أكبر منه بما ينبغي أن تعامل به :

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

هذا بحث أستاذ عدنان والله لا تكفيه مجلدات ، في كتب كثيرة أفردت آلاف الصفحات في الحديث عن الآداب مع الخلق .

الأستاذ عدنان :

على هذا يمكن أن نعمم مبينين أن الأدب يمكن أن يكون أيضاً في المجتمع بشكل عام وهناك فارق كبير ، إذ الأدب فيه وضوح الكلام دون التفات أو لوي لبعض مقاصده ، هنا يمكن أن تطرح أمور عديدة منها الشجاعة الأدبية ، فليس الضعف أدباً إنما الشجاعة الأدبية هي الأدب ، وفي هذا أدب الحوار.

2 - الأدب مع الطرف الآخر :

الدكتور راتب :

الأدب الذي تعامل به الطرف الآخر ، في آداب أيضاً :

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ (7))

(سورة التوبة)

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8))

(سورة الممتحنة)

الأستاذ عدنان :

إذاً الأدب مطلوب في كل وجوه الحياة مع الإنسان ذاته ، مع أولاده ، مع زوجته ، في محيطه ، في مجتمعه ، حتى مع أعدائه .

الأدب مطلوب في كل وجوه الحياة :

الدكتور راتب :

حتى في المصطلح الأدبي ، الأدب هو التعبير المثير عن حقائق الحياة ، التعبير الأدبي راق جداً ، تعبير فني ، تعبير يلفت النظر :

رماني الدهر بالأرزاء حتى كأني في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

***

قد تقول أصابتني مصائب كثيرة هذا تعبير عادي ، أما التعبير الأدبي تعبير جميل يأخذ بالألباب .

الأستاذ عدنان :

الحقيقة كما قلتكم دكتور الأدب يجب أن يكون في كل شيء ، وكما بينتم أن الأدب اللغوي هو في حلة رائعة ، ويصغى إليه ، جعلنا الله ممن يتأدبون مع ذاته العلية ومع رسوله الكريم ومع الخلق أجمعين ، هذا الأدب يجعلنا أيضاً نقف في محراب التطلع إلى عظمة خلق الله فيما أبدع وخلق وفي الإعجازات لنقف أيضاً في أدب عند هذا المحراب ، نتابع معكم الموضوع العلمي دكتور .

الدكتور راتب :

العنكبوت من الآيات الدالة على عظمة الله :

إن شاء الله ، الحقيقة اليوم الموضوع عن العنكبوت ، يرى كل إنسان خلال حياته كائنات تدعى بالعنكبوت مرات عديدة ، في الصحراء ، أو في حديقة المنزل ، هذا الكائن الصغير الذي لا يشد انتباه أكثر الناس هو في الأصل واحد من الآيات الدالة على عظمة الله ، و لمعرفة هذا علينا أن نراقب العنكبوت عن كثب ، عندما يقال عنكبوت أول ما يخطر بالبال شبكة العنكبوت و بالتأكيد هذه الشبكة

واحدة من خوارق التصميم .

لشبكة العنكبوت مخطط معماري مميز ، لها حسابات هندسية مناسبة لهذا المخطط ، لو كبرنا العنكبوت بالنسبة إلى حجم الإنسان ، فشبكة العنكبوت التي تنسجتها تعادل مئة و خمسين متراً تقريباً ، وهذا يساوي علو ناطحة سحاب ذات خمسين طابقاً ، لو تمكن العنكبوت من صنع شبكة عرضها خمسون متراً لكانت هذه الشبكة من القوة بحيث تستطيع إيقاف طائرة نفاثة ، إذاً كيف تنشئ العنكبوت شبكتها بهذه الخصائص ؟ لإنجاز مثل هذا العمل يجب عليها أولاً رسم مخطط كما يفعل المهندس المعماري ، ذلك لأن بناءً بهذا التصميم وبهذا الحجم و المتانة لا يبنى دون مخطط هندسي ، بعد رسم المخطط يلزمك مهندس معماري لحساب المنطقة التي تتحمل الثقل الآتي ، و بدون هذا لن تقوم للشبكة قائمة .

شبكة العنكبوت معجزة حقيقيةتكمن في خيطهاو صناعتها :

عند مراقبة كيفية بناء الشبكة تظهر لنا معجزة حقيقية ، تترك العنكبوت أولاً الخيط الذي أنتجته في الهواء وبمساعدة جريان الهواء تربطه مع إحدى النقاط الثابتة وهكذا يبدأ البناء ، يستغرق بناء الشبكة ساعة أو أكثر ، الآن نتابع هذا العمل مسرّعاً بستين ضعفاً ، تنشر العنكبوت خيوطها المشدودة من المركز باتجاه الخارج ، و تجهز هيكل الشبكة ، بعد ذلك تنسج خيطاً رقيقاً و لاصقاً راسمة حلقات من الخارج باتجاه الداخل ، وبذلك يصبح الفخ جاهزاً.

ليس تصميم شبكة العنكبوت معجزة فحسب بل المعجزة تكمن في خيطها أيضاً ، فخيط العنكبوت أمتن بخمسة أضعاف من الفولاذ في السماكة نفسها ، فالمتر المربع من خيط العنكبوت يتحمل مئة و خمسين ألف كيلو غرام ، و لو صنع حبل من خيط العنكبوت لتمكن من حمل مئة وخمسين سيارة مركبة بعضها فوق بعض ، شيء عجيب ، شيء مدهش .

أنتج رجال العلم تأسياً بخيط العنكبوت مادة خاصة تسمى كافلار تستخدم هذه المادة في إنتاج الدروع الفولاذية الذي يرتديها الإنسان لئلا يتأثر بالرصاص ، باستطاعة الطلقة ثقب أي شيء أمامها بسرعة مئة وخمسين متراً في الثانية ، إلا أننا لا نستطيع ثقب قطعة من قماش مصنوع من الكافلار .

خيط العنكبوت أمتن مادة في العالم :

خيط العنكبوت الذي هو أدق من الشعر و أخف من القطن و أقوى من الفولاذ ، يوصف على أنه أمتن مادة في العالم ، الفولاذ أمتن المواد التي يملكها الإنسان ، ينتج الفولاذ بطبخ الحديد وباستخدام الأفران

العالية التي تصل حرارتها إلى آلاف الدرجات ، في مصانع الصناعات الثقيلة صمم الفولاذ خصوصاً لتحمل قوى الشد ، ويستخدم البشر الفولاذ في إنشاء المصانع الكبيرة و الأبنية الضخمة و بناء الجسور.
إلا أن العنكبوت تنتج مادة أمتن من الفولاذ بخمسة أضعاف ، مع أنها ليس لها نصيب في استخدام التقنيات الحديثة ، و لا تملك أفراناً ذات حرارة عالية إنها حشرة صغيرة لعابها بعد أن يلامس الهواء يصبح خيطاً أقوى من الفولاذ بخمسة أضعاف ، إنتاج خيط أمتن من الفولاذ من قبل حشرة صغيرة ثم استخدامها كالمهندس المعماري في إنشاء أبنية ضخمة بلا شك معجزة كبيرة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (24-30) : الشجاعة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :
دكتور عندما يكون الإنسان شجاعاً هل الشجاعة تعني أنه يقذف بنفسه على المكاره فقط ؟ إذ أن الشجاعة إن كانت تعني هذا المعنى فأن يقذف الإنسان في الذنوب وهي المكاره ستؤدي به إلى نهاية وخيمة ، هل تسمى هذه شجاعة ؟ لا طبعاً ، إذاً الشجاعة محفوفة بأطر سليمة من ناحية لا هي من الجبن ولا هي من التهور ، إذا توقفنا عند الشجاعة في ميادينها لنستخلص فحوى معناها الاصطلاحي .

الإنسان من بين جميع المخلوقات قبل حمل الأمانة :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ عدنان هذا الموضوع يحتاج إلى مقدمات ، الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم وكرمه أعظم تكريم ، الله عز وجل عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، فالإنسان من بين جميع المخلوقات قبل حمل الأمانة ، معنى أنه قبل حمل الأمانة أنه قبل أن يتولى تزكية نفسه ، تولى أن يعرفها بالله ، وتولى أن يطهرها من كل دنس ، وتولى أن يحليها بالكمالات التي يمكن أن تكون سبب سعادته الأبدية :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 73)

كل إنسان مكلف أن يعبد الله عز وجل :

ثم جاء الله بهذا الإنسان إلى الدنيا ، الآن في الدنيا في شهوات :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

في عقل :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7))

(سورة الرحمن)

في فطرة :

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فطرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم : 30)

في شهوة ، في فطرة ، في عقل ، في كون يدل على الله ، في منهج ، في شرع ، في اختيار ، الإنسان مكلف أن يعبد الله ، والعبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية طوعية .

الشجاعة هي أن أضحي بالدنيا من أجل الآخرة :

الإنسان حينما أودع فيه الشهوات جعله كائناً متحركاً في حركة ، هذه الحركة واسعة جداً يمكن أن نعبر عنها بمئة وثمانين درجة ، لكن الطريق الموصل إلى سلامته وسعادته يجب أن يبقى في درجات محددة ولتكن مئة درجة ، فالشجاعة أن توقع الحركة وفق منهج الله ، أنا حينما ألقي بنفسي إلى التهلكة أكون خالفت منهج الله ، وحينما أضن بنفسي عن أية مخاطرة أكون قد خالفت منهج الله ، أما حينما يرتسم في ذهني هدف نبيل واضح يرضى الله عنه وهو إذا وصلته سبب سعادتي ورقيي ؛ هذا الهدف ينبغي أن أسعى إليه مع كلفة باهظة ، هذه الشجاعة أن أضحي بالغالي من أجل الأغلى ، أن أضحي بالدنيا من أجل الآخرة ، أن أضحي بحياتي من أجل ديني ، دائماً عندنا أولويات ، المؤمن تقع في أوليات حياته هذا الدين العظيم ، لذلك الشجاعة كما قيل الإقدام على المكاره :

(وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية : 216)

الشجاعة إقدام على المهالك والمكاره والمتاعب من أجل هدف نبيل :

دعك من القتال ، هذا الذي يقبع وراء طاولة الدراسة ، ويدرس سنوات طويلة بجهد جهيد ، لا ينام الليل ، يتابع الدروس ، يحضر المحاضرات ، يؤدي الوظائف ، يتفوق ، ينجح ، بعد مرحلة ما يغدو في مرتبة عالية ، وله دخل كبير ، عندئذ يقطف ثمار تعبه الطويل.

يوجد بالحياة الدنيا كمبدأ لافوا زيه مصونية المادة يعني أي جهد تبذله في البداية تحصله في النهاية ، وأي جهد تضن به في البداية تدفع ثمنه باهظاً في النهاية ، الشجاعة حركة لكن أنا الحركة ينبغي أن يكون لها هدف واضح ، هدف نبيل ، هدف مشروع ، هدف سمح الله به ، أنا حينما أضحي ببعض ما أملك من أجل هذا الهدف أكون شجاعاً ، أما الذي يقترف المعاصي والآثام لا يعدّ شجاعاً مع أنه يقتحم إلى المهالك ، الذي يسرق المال و يضحي بحياته لا يسمى شجاعاً ، لا بد من هدف نبيل ، ولا بد من سبل نبيلة لتحقيق هذا الهدف ، لذلك الشجاعة إقدام على المهالك والمكاره والمتاعب من أجل هدف نبيل.

كان من الممكن أن يكون الطرف الآخر في كوكب آخر ، لاسترحنا وأرحنا ، وقد كان من الممكن أن يكونوا في قارة أخرى ، وكان من الممكن أن يكونوا في حقبة أخرى ، في قرن معين يأتي المؤمنون ، في قرن آخر يأتي غير المؤمنين ، لا في حروب ولا منازعات ولا اجتياح ولا حروب أهلية ولا مآسي التي تئن منها البشرية ، ولكن شاءت حكمة الله أن نجتمع معاً في كل زمان ومكان ، وفي بلاد متقاربة لماذا ؟ قال بعض العلماء : لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي ، ولأن أهل الحق لا يستحقون جنة عرضها السموات والأرض إلا ببذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس ، وكان من الممكن أن ينتصر الله من أعداء دينه ، ولكن شاءت حكمته أن يجعل النصر على أيدينا فلذلك لا بد من الشجاعة .

الشجاعة تحتاج إلى إيمان و تضحية :

الحياة مركبة تركيباً عجيباً ، مركبة تركيباً امتحانياً :

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن نصل إلى شيء ثمين من دون امتحان ، الآن حتى يكتب الإنسان قبل اسمه دالاً فقط كم سنة دراسة ؟ أكثر من خمس وثلاثين سنة حتى يكتب دال فقط ، مراتب الآخرة

أعلى بكثير ، أن تصل إلى جنة عرضها السماوات والأرض لذلك لما الإمام الشافعي سئل : يا إمام ، أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال : لن تمكن قبل أن تبتلى .

لذلك الشجاعة تحتاج إلى إيمان ، أقول لك بكلمة صريحة : الذي لا يؤمن بالآخرة لا يمكن أن يكون شجاعاً لأنه وضع البيض كله في سلة واحدة ، فإذا انتهت حياته ضاع كل شيء ، أما الذي وضع آماله كلها في جنة عرضها السماوات والأرض قمة سعادته أن يغادر الدنيا إلى جنة ، لذلك مفهوم الشجاعة من أصعب المصاعب أن يفهمه الآخرون ، مفهوم الشجاعة لا يفهمه الآخرون ، الشجاعة تحتاج إلى تضحية والتضحية بماذا ؟ بالدنيا هي عند الطرف الآخر كل شيء ، كل شيء .

الموت عرس المؤمن لأنه يلقى الله عز وجل :

لذلك لما فتح المسلمون بلاد الله الواسعة كان يقول قائدهم جئناك بأناس يحبون الموت كما تحبون الحياة.

فقط للتمثيل (أنا أضع المثل تركيبياً)أن إنساناً فقيراً جداً لكنه ذكي جداً ، عرض عليه أنه إذا أتى بدكتوراه في بلده يحتل أعلى منصب ، ويسكن في أجمل بيت ، ويقتني أجمل مركبة ، ويتزوج أجمل امرأة ، هكذا المثل تركيبي ، ذهب إلى بلاد بعيدة لينال الدكتوراه ، عمل في المطاعم ينظف الصحون عمل حارساً ليلياً ، بذل جهداً مخيفاً في سنوات عجاف طويلة كلها تعب ، وإرهاق ، ودأب ، وعمل ، ودراسة ، ومطالعة ، ودوام ، وكسب رزق قليل بجهد كبير ، فلما نال الدكتوراه وأخذ الشهادة وصدّقها وقطع بطاقة الطائرة وتوجه إلى المطار وأخذ بطاقة الصعود ووضع رجله في سلم الطائرة ، أنا أؤكد لأخوتي المشاهدين أن هذه اللحظة هي أسعد لحظات حياته على الإطلاق ، لأنها مرحلة فاصلة بين التعب والجهد والشقاء ، والدخل القليل والجهد الكبير ، والغربة والوحشة ، وبين أن يكون في أهله وفي بلده في أعلى مكانة وفي أجمل بيت وأجمل مركبة أنا أقرب المعاني ، حينما يقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((تحفة المؤمن الموت))

[أخرجه الطبراني ، وأبو نعيم ، والحاكم ، والبيهقي ، عن ابن عمر]

الموت عرس المؤمن ، صدق أستاذ عدنان أنا قرأت تاريخ الصحابة بشكل عام جميل ، شيء واحد لفت نظري أنهم جميعاً من دون استثناء بينهم قاسم مشترك واحد وهو أنهم كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند لقاء ربهم : وا كربتاه يا أبت ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، غداً نلقى الأحبة ، محمداً وصحبه .

من لم يؤمن بالله لا يمكن أن يكون شجاعاً :

النبي عليه الصلاة والسلام تفقد أحد أصحابه عقب معركة (سيدنا سعد بن الربيع) كان من حرصه على أصحابه يتفقدهم دائماً ، فأرسل أحد الصحابة ليتفقده في ساحة المعركة ، رآه مع الجرحى يئنّ ، قال له: يا سعد ، إن رسول الله أمرني أن أتفقدك أنت مع الأموات أم مع الأحياء ؟ قال له : أنا مع الأموات ، ولكن بلغ رسول الله مني السلام ، وقل له : جزاك الله خير ما جزى نبي عن أمته ، وقل لأصحابه لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف .

إنسان فقد حياته لم يقل يا ويلي يا ويل أولادي ، كان في أعلى درجات سعادته لذلك البطولة لا أن نجعل الموت أكبر مصيبة أن نجعل الموت عرساً لنا ، وقرباً من الله عز وجل ، من دون هذه المعاني مستحيل أن تكون هناك شجاعة ، نوع من الانتحار ، نوع من فقد كل شيء ، لذلك لا تنتظر ممن لم يؤمن بالله ولم يؤمن بالآخرة أن يكون شجاعاً ، يعني يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل .

الأستاذ عدنان :

حتى لو سميت شجاعة فإنها تكون في إطار محدود حتماً ، أما الشجاعة التي تحدثت عنها فهي واسعة آفاقها كبيرة ، وما أظن إنساناً يتحلى بالشجاعة الدنيوية التي لا تنطلق من أسس عقيدة دينية كما وضحتم، ما أظنه إلا يقف خاضعاً أما شجاعة هؤلاء كمثل ابن الربيع .

انقلاب الأمر على فرعون عندما جاء بالسحرة ليؤيدوه :

الدكتور راتب :

سحرة فرعون جاء بهم ليؤيدوه لكن لما رأوا سحرهم لا شيء أمام هذه المعجزة انقلب الأمر ، أنا أسمي هؤلاء السحرة بحالة جديدة اسمها حرق المراحل :

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70)قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72))

(سورة الشعراء)

تصور طاغية يهدد من حوله ، بماذا كان ردهم ؟

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73))

(سورة طه)

صدق أستاذ عدنان كلمة

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

تفعل في نفسي فعلاً كبيراً ، يعني بالتعبير القريب ، لو عرضنا على إنسان دراجة يتملكها وسيارة يركبها لربع ساعة فقط ماذا يختار ؟ دراجة يتملكها ويركبها دائماً ، لو عرض عليه أن يتملك سيارة لربع ساعة ودراجة لربع ساعة ، يختار السيارة ، أما إذا عرض عليه أن يتملك مركبة فارهة و هي باسمه مع وقودها وسائقها على الدوام وأن يعار دراجة ليركبها ربع ساعة ماذا يفعل بلا تردد ؟ إله عظيم خالق الأكوان يخاطب الإنسان يقول له :

(وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4))

(سورة الضحى)

الآخرة خير نوعاً وأبقى أمداً من الأولى :

(وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17))

(سورة الأعلى)

خير نوعاً وأبقى أمداً ، فهذا الذي يؤثر الدنيا على الآخرة ما عرف حقيقة الآخرة ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، هم مكرمون :

(لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق)

الحقيقة هذا الدين لا يستقيم من دون فهم للآخرة ، من دون فهم للآخرة الدين متاعب ، الدين محرمات، الدين عبء ، الإنسان لو وضع كل أهدافه في الدنيا يرى الدين تكاليف لا مبرر لها .

المؤمن حر وقوته و قيمته عند الله من حريته :

لذلك أنا أقول لا بد من أن نضم إلى الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر ، من هنا تأتي الشجاعة بالموقف، أنا لست أعني بالشجاعة دائماً القتالية ، أحياناً تعترف بخطئك هذه شجاعة ، أنت حينما ترى أن الله يراقبك تعترف بخطئك ، أحياناً تدلي برأيك من دون أن تهاب إنساناً هذه شجاعة ، أساساً ما من شيء يؤخر تقدم البشرية كالكذب :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

فالإنسان حينما يكذب يسقط ، أما حينما يكون شجاعاً يصدق ، في تعبير فيه شجاعة ، في إدلاء برأي بشجاعة ، في اعتراف بخطأ بشجاعة ، في أن تنحاز إلى الأقلية أحياناً ، الأكثرية أحياناً تائهون غارقون في ملذاتهم الخط العريض ، أحياناً تنحاز إلى الفئة المستنيرة الواعية وتأخذ موقفاً رائعاً ، لذلك الوقوف في وجه التيار الفاسد هذه شجاعة ، السير مع التيار سهل جداً لا يحتاج إلى شيء ، لكن البطولة لا أن تقبل بيئتك المنحرفة أن تقف في وجه انحراف البيئة ، وأن تخطط لتغيير البيئة ، هؤلاء الذين غيروا مسرى التاريخ شجعان لو أنهم خضعوا لبيئتهم ولمعطيات عصرهم وللمغانم وللمكاسب وللأقوياء ما كانوا عظماء إطلاقاً ، هم عظماء لأنهم رفضوا بيئتهم المنحرفة ، وأصلحوها ، واعتمدوا على الله في إصلاحها .

فلذلك الشجاعة مفهوم واسع جداً ، يعني أحد مفهوماته الشجاعة القتالية ، أما إنسان أحياناً يتكلم بحرية لا يقبل أن يكون منافقاً ، لا يقبل أن يكون صدىً للآخرين ، لا يقبل أن يحسب على أحد ، لا يليق بالإنسان أصلاً أن يكون مجيراً لجهة في الأرض ، هو إمعة ، لذلك المؤمن حر وقوته من حريته ، وقيمته عند الله من حريته .

الأستاذ عدنان :

دكتور هنا قد يتساءل إنسان إذا ما فكر يجد النتيجة واضحةً بينة ، الشجعان كيف أنهم وقفوا في وجه التيار الفاسد ، يعارضون بداية لكنهم عندما يثبتون ويعرف الآخرون أنهم كانوا على صواب ينقلب أمر النظرة السوء إليهم إلى إكبار وإجلال ، فيحصلون على الشجاعة وعلى الجائزة وعلى الجنة أيضاً في الدار الآخرة .

العبرة في النهاية :

الدكتور راتب :

العبرة في النهاية قال تعالى :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

العبرة أن هؤلاء الذين طغوا وبغوا هم في مذابل التاريخ ، أما الذين كانوا شجعاناً هم في قمم البشر وهم في لوحة الشرف للبشرية .

الأستاذ عدنان :

نستطيع أن نذكر أمثلة عديدة في الشجاعة وما قلتم ليس أمر الشجاعة القتالي إلا بواحدة ضئيلة ضمن شجاعات كثيرة جداً .

النبي عليه الصلاة والسلام

كان سيد الشجعان و قدوة لنا :

الدكتور راتب :

النبي عليه الصلاة والسلام كان سيد الشجعان ، كنا إذا حمي الوطيس كنا نحتمي برسول الله ، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ، هو النبي عليه الصلاة والسلام قدوة في كل شيء ، كل واحد منا له تميز بشيء لكن النبي عليه الصلاة والسلام كان قدوة في كل شيء ، عرض عليه المال والنساء والزعامة :

((و الله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته))

[السيرة النبوية]

الثبات على المبدأ من الشجاعة ، المواقف الجريئة من الشجاعة ، الإدلاء بالرأي من الشجاعة ، الشجاعة واسعة جداً ، الشجاعة صفة الأبطال ، صفة رواد المجتمعات ، صفة الذين يغيرون مجتمعاتهم من حال إلى حال ، نسأل الله أن نكون من الشجعان ، وحينما ينتفي الكذب والنفاق في مجتمع يكون في حال غير الحال الذي نئن منه ، نحن حينما نكون صادقين مع أنفسنا ومع الله نكون شجعاناً ، وحينما نؤمن بالآخرة إيماناً يقينياً نكون شجعاناً ، وحينما نعيش لمبدأ كبير نكون شجعاناً .

إعجاز الله في مخلوقاته :

الأستاذ عدنان :

دكتور عندما نقف عند إعجاز الله عز وجل في مخلوقاته ، هل نأخذ الموقف الشجاع في أنفسنا وفي اعتقادنا أن : أيها الإنسان أقبل على ربك ، خذ الموقف الشجاع الذي يفيدك في المستقبل ، والذي تنتفع من خلاله في الدار الآخرة جنة عرضها السماوات والأرض نتابع معكم موضوع الإعجاز .

العنكبوت كائنات تصطاد بنصب الشباك :

الدكتور راتب :

الحقيقة لازلنا في موضوع العنكبوت ، يعرف الناس عامة أن العنكبوت كائنات تصطاد بنصب الشباك، إلا أن هذه العنكبوت التي تسمى ديلوبيس لا تنتظر علوق صيدها في الشباك ، و بدلاً من ذلك تقيم فخاً متحركاً ، تجهز خيوطاً خاصة جداً بمئتي ضربة فرشاة في الدقيقة ، ثم تضم الخيوط الدقيقة لبعضها ضمن خطة محكمة ، و بذلك يصبح الفخ القاتل جاهزاً .

و بعدها تتربص في الطرق التي تمر بها الحشرات كثيراً ، فعيونها الحادة تميز حتى أكثر الخطوات دقة ، ثم تَلُفُ صيدها بالحرير الخاص الذي صنعته ، و يمكنها أن تصطاد أكثر من فريسة في الليلة الواحدة و تنسج لكل فريسة شبكة خاصة بها ، هذه الشبكة إحدى خوارق التصميم الحقيقية ، ليس للفريسة نصيب للخلاص من هذا الفخ .

أسلوب الصيد لدى عنكبوت بولاس معجزة من إلهام الله تعالى :

أسلوب الصيد لدى عنكبوت بولاس معجزة أخرى في الخلق ، هذه العنكبوت تشد فريستها باتجاهها بأسلوب لا يقاوم ، هدفها ذكر العت ، تنتج العنكبوت أيضاً من جسمها خيطاً أمتن من الفولاذ ، و تضع على هذا الخيط قطرات لاصقة قوية ، ثم تدلي هذا الخيط من الشجرة باتجاه الأسفل مثل صنارة صيد السمك ، وتضرب بصنارتها ضربات خفيفة مثلما يفعل صياد السمك تماماً ، و تنتظر بصبر ، تستخدم العنكبوت حيلة عبقرية لشد الفريسة إليها ، تفرز أنثى العت هرمون الفيرمون لجلب ذكور العت و العنكبوت تقلد الرائحة نفسها و تضعها في طرف الفخ .

ذكر العت لا يقاوم هذه الدعوة المغرية ، و عندما يقترب العت تبدأ العنكبوت بلف الخيط من مركزه ، فالخطة المعجزة قد نجحت و وقعت الفريسة في الفخ ، ترون على الشاشة المعادلة الكيميائية لهرمون الفيرمون الذي ركبته أنثى العت ، و هذا الفيرمون مادة كيميائية خاصة جداً لا توجد إلا عند أنثى العت، لو أردنا إنتاج مثل هذه المادة الكيميائية للزمنا القيام بأعمال معقدة في مختبر كيميائي متطور .

لو فرضنا أن العنكبوت أنتجت هذا الهرمون بعقلها فكان يجب على هذه الحشرة الصغيرة أن تتابع الطريق نفسها ، أولاً كان عليها أن تجد عتة أنثى لتتعلم منها طريقة مراودة الذكور ، ثم تأخذ منها نموذجاً كيماوياً من الفيرمون لتقوم بتحليله و تقليد إنتاجه في المختبر بحسب المعادلة التي وجدتها ، ثم وضع المادة الكيميائية التي ركبتها على طرف الخيط الذي جهزته للصيد ، إلا أن هذه العنكبوت الصغيرة ليس لها عقل قادر على أي تصميم ، و لم تحصل على أي تعليم ، و لا تملك مختبراً كيميائياً ، إذاً كيف استطاعت هذه العنكبوت إنتاج نسخة من هرمون الفيرمون ؟ كيف فكرت في وضع هذا الهرمون في طرف الفخ الذي صنعته ؟ هذه الأسئلة تأخذنا إلى حقيقة واضحة فمادة الفيرمون الكيميائية التي تنتجها العثة و تستخدمها العنكبوت للاصطياد وجدت من قبل الله تعالى ، يظهر لنا مرة أخرى بهذا المثال بديع صنع الله تعالى حاكم الكائنات و العوالم كلها .

عنكبوت الباب المفخخ تستخدم أسلوباً ذكياً للاصطياد ألهمها إياه الله عز وجل :

عنكبوت آخر تستخدم أسلوباً ذكياً للاصطياد هي عنكبوت الباب المفخخ ، هذه العنكبوت لا تهاجم كالعناكب الأخرى من الجو بل تحصل على صيدها من تحت التراب ، أولاً تقوم بحفر عش لها تحت التراب ، ثم تصنع باباً دائرياً في مدخل العش باستخدام خيطها مع التراب ، تثبت نقطة من طرف هذا الباب بمفصلة ، تنشر الخيوط الدقيقة المشدودة من داخل العش إلى الخارج ، وتموه الخيوط و الباب بالأوراق أو التراب ، بفضل هذا النظام تستشعر في جوانب العش أخف اهتزاز ثم تنسحب إلى داخل العش ، عندئذ يكون الفخ جاهزاً ، فالحشرة التي تمر بأمان فوق العش ستصير طعاماً للعنكبوت بعد قليل ، هاهنا نملة صغيرة تتجول بين الأزهار بأمان إلا أن واحدة من هذه الأزهار مختلفة إنها فخ للعنكبوت ، إذاً كيف نصبت العنكبوت هذا الفخ و ليس لديها إمكانية تعقل و لا تفكير ؟ ثم كيف جهزت نظام إنذار مبكر في أطراف هذا الفخ ؟ ممن تعلمت الاختفاء بين الأزهار مقلدة إياها على سطح الأرض ؟ و الجانب الأغرب في هذا الموضوع معرفة كل عنكبوت مولودة تقنية الصيد لدى نوعها . عنكبوت بولاس هذه لا تزال صغيرة قد صنعت أول فخ لها ، حجمها لا يبلغ قيد أنملة أما فخها فأصغر من رأس الإبرة .

الله عز وجل خالق كل شيء ألهم هذه الكائنات أن تقوم بأعمال معجزة :

عنكبوت ديلوبيس هذا المولود الجديد نسج شبكة صغيرة جداً ، هذا العنكبوت الصغير مهندس منذ ولادته يبدأ بنسج أولى شباكه ، وجود عناكب صغيرة بكثرة في ساحة ضيقة يمكن أن يسبب بعض المشاكل الخفيفة ، و على الرغم من ذلك في فترة قصيرة يستمر كل شيء بلا توقف ، هذه العناكب ستفترق عن أمهاتها لصنع أعشاشها بعد مدة وجيزة ، بلاشك هذا المشهد يوضح أن نسج الشبكة و قابلية نصب الفخ كان بإلهام إلهي للعناكب ، بلا شك إنها القدرة ، فالذي ألهمها أعمالها و خلق الخصائص الخارقة لهذه الكائنات هو الله تعالى جل جلاله .

هذه الكائنات تقوم بأعمال معجزة لا يقدر عليها الإنسان ، السؤال الدقيق من علمها ؟ من أعطاها هذه الإمكانيات ؟ من أعلمها أن بعض الحشرات تستخدم مادة لإغراء الذكور ؟ كيف صنعتها هي ؟ كيف وضعتها هي لتجلب العناكب ؟ هذه كلها أسئلة جوابها أن الله عز وجل هو الخالق .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (25-30) : التوحيد
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :
دكتور في حياتنا الإيمانية الإسلامية ، يجب أن نوحد الله تعالى ، والتوحيد في الأصل لازم لكل إنسان، توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، والتوحيد يحتاج في هذه الحالة إلى ارتباط مع أخلاقية الإنسان في حياته حتى يكون على مستوى توحيد الربوبية والألوهية ، إذا أردنا التحدث عن علاقة التوحيد بالأخلاق ممكن أن نوضح هذا ؟

علاقة التوحيد بالأخلاق :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ عدنان بادئ ذي بدء ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، وقال بعض العلماء : التوحيد نهاية العلم ، والتقوى نهاية العمل ، بل إن فحوى دعوة الأنبياء جميعاً التوحيد والعبادة :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

في هذه الآية تبين أن فحوى دعوى الأنبياء جميعاً من دون استثناء :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

فإذا أردت أن تضغط الدين كله بكلمتين كلمة تتعلق بالاعتقاد ، وكلمة تتعلق بالعمل ، والإنسان عقل يعتقد وجوارح تتحرك ، فلذلك قد يسأل سائل ما علاقة التوحيد بمكارم الأخلاق ؟ كما تفضلت ، أنا أرى وأرجو أن أكون على صواب ما من خطأ يرتكبه الإنسان في حياته إلا بسبب ضعف توحيده ، فالإنسان إذا أيقن أنه لا إله إلا الله بمعنى أنه لا معطي إلا الله ، ولا مانع إلا الله ، ولا رافع إلا الله ، ولا خافض إلا الله ، ولا معز إلا الله ، ولا مذل إلا الله ، حينما ترى أن الأمر كله بيد الله يستحيل أن ينافق الإنسان،

يستحيل أن يرائي ، يستحيل أن يجبن ، يستحيل أن يبخل ، كل مخازي البشر بسبب ضعف التوحيد وكل فضائل البشر بسبب قوة التوحيد ، وإذا كان من اعتقاد يتعلق بكل مكارم الأخلاق ، وإذا كان من اعتقاد يتعلق بكل سقطات البشر إنه التوحيد .

التوحيد أخطر موضوع في حياة المؤمن :

لمجرد أن تعتقد أن هذا الأمر بيد هذه الجهة أضرب مثلاً ، تريد أن تسافر ، تريد تأشيرة خروج لبلد معين ، قال لك أحدهم : هذه التأشيرة لا يمكن أن تمنح إلا من المدير العام ، الدائرة فيها أربعة طوابق فيها خمسمئة موظف على رأسهم المدير العام ، هل يمكن إذا اعتقدت يقيناً أن هذه التأشيرة لا تأخذها إلا من المدير العام أن تبذل ماء وجهك لغيره ؟ أن تتملق غيره ، أن ترجو غيره ، أن تخاف من غيره ؟ إطلاقاً ، لذلك موضوع التوحيد أخطر موضوع في حياة المؤمن ، إنك إن عرفت الله توجهت إليه واعتمدت عليه وتوكلت عليه ورجوت ما عنده وخفت من عقابه ، ولا تجد إنساناً يعصي إلا لضعف توحيده ، قد يعصي من أجل أن يأكل مالاً حراماً ، ما عرف أن الله هو الرزاق ، وأنه لو ترك هذا المال الحرام لأرسل الله له أضعافاً مضاعفة من المال الحلال .

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

ارتباط التوحيد بسلوك الإنسان :

إذاً التوحيد يرتبط بالسلوك ، السلوك حركة يسبقه تصور ، هذا الذي يسرق لماذا يسرق ؟ يظن أنه يأخذ مالاً وفيراً بجهد قليل ولا يدخل الله في حساباته أن الله سيعاقبه ، وسوف يقبض عليه ، وسوف يذل، وسوف يحاكم ، وسوف يسجن ، ما رأى أن الله هو الفعال ، هو الذي يصرف شؤون العباد ، ما من إنسان يعصي الله إلا ويتوهم أن الله لا يحاسبه أو أن الله لا يعلم ، مع أن أصل الاستقامة مبني على أن توقن أن الله يعلم وأن الله سيعاقب :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

علة خلق السماوات والأرض أن نعلم :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا (12))

(سورة الطلاق)

علة خلق السماوات والأرض أن نعلم :

(أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق الآية : 12)

لمجرد أن تعلم أن علم الله يطولك وأن قدرته يطولك لا يمكن أن تعصيه ، لمجرد أن توقن أن علم الله يطولك وأن قدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه ، أنت لست مع خالق الأكوان أنت مع إنسان قوي إذا كان لديه نظام دقيق بحيث يكشف كل المخالفات ولا يرحم أحداً فرضاً ، لا يمكن أن تعصي إنساناً قوياً علمه يطولك وقدرته تطولك فكيف بخالق الأكوان ؟ إذاً حينما نقول التوحيد موضوع ضمن موضوع مكارم الأخلاق لأن كل مكارم الأخلاق وكل الدنايا في الأخلاق مبعثها إلى قوة التوحيد أو ضعف التوحيد .

الأستاذ عدنان :

دكتور بهذه الحالة أستطيع أن أقول إن للتوحيد في ذات الإنسان مستويان إذ إن الإنسان في بعض الأحيان من خلال خوفه من الله عز وجل ، من توحيده لله تعالى يتجنب فعل السوء ، وأحياناً الإنسان نفسه يرتكب سوءاً آخر ، وتارة يقبل على السوء بدرجة أعظم ، وتارة يتراجع تراجعاً كلياً ، مرد هذه الناحية في ذات الإنسان هل هي نقص في التوحيد ؟ مستوياته إذاً .

مستويات التوحيد :

الدكتور راتب :

مستويات التوحيد أنت حينما تؤمن أنه لا إله إلا الله ، هذه كلمة الإسلام الأولى ومعنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله ، ليس هناك جهة يمكن أن تعتمد عليها إلا الله ، وأن تخاف منها إلا الله ، وأن تعلق عليها الآمال إلا الله ، وأن ترجو رحمتها إلا الله ، وأن تخشى عقابها إلا الله ، أنت حينما توحد تتوحد وجهتك ، وحينما توحد يتوحد مقصدك ، وحينما توحد يتوحد عملك ، لذلك التوحيد هو الدين كله ، أستاذ عدنان كل إنسان يرى أن لهذا الكون خالقاً هذا إيمان لكن لا يقدم ولا يؤخر ، لأن إبليس آمن هذا الإيمان ، لكن حينما ترى أن الله فعال ، العالم الغربي يتوهمون أن الله خلاق فقط ليس فعالاً لذلك لا يدخلون الله في حساباتهم إطلاقاً ثم يفاجئون بالدمار والهلاك ، أما المؤمن يرى أن الله فعال ، الله عز وجل يقول : فعال لما يريد .

أنت تريد وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد ، في بعض الآثار القدسية : خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين ، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً ، أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما

أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد.

أنت حينما تؤمن أن الله فعال لما يريد يختلف الوضع اختلافاً كلياً ، إذاً يرقى العمل بقوة التوحيد ، يضعف العمل بضعف التوحيد.

آيات التوحيد كثيرة منها :

لكن التوحيد له آيات كثيرة مثلاً :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

أن تقول الأمر بيد فلان أو علان أو الطاغية الفلاني أو الجهة البعيدة عنا تفعل ما تريد ، ليس في الكون إلا الله وعلاقتك مع الله هي الأصل في سلامتك وسعادتك ، فالتوحيد ينقل الناس من وحل الشرك إلى صفاء التوحيد ، من الخوف والقلق إلى الأمن ، من الضياع إلى الوجدان ، من الحيرة إلى اليقين ، الدين كله توحيد ، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

(مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية :84)

هذه آيات التوحيد :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

التوحيد يجعل الإنسان قوياً ، يجعله شجاعاً ، يجعله صريحاً ، يجعله جريئاً ، يجعله معطاءً ، يجعله كريماً ، كل مكارم الأخلاق التوحيد أساسها .

الأستاذ عدنان :

دكتور إذا أردنا من خلال هذا الشرح أن نستخلص تعريفاً للتوحيد .

تعريف التوحيد :

الدكتور راتب :

كلمة الإسلام الأولى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

(سورة محمد)

يعني مع الشرح ذكرته عدة مرات ، لا رافع ولا خافض ، ولا معز ولا مذل إلا الله ، وأنه لا معطي ولا مانع إلا الله ، أنت في الدنيا حينما تعتقد أن كل مصالحك مع هذه الجهة تتجه إليها ولا تعبأ بغيرها ، فلذلك المؤمن قوة شخصيته تأتي من هذا الموضوع هو علاقته بالله ولا يقبل أن يكون لغير الله ، ولا يقبل أن يجير بالتعبير المصرفي لغير الله ، ولا يقبل أن يكون تابعاً لغير الله ، هو لله ، حينما يكون تابعاً لغير الله يحتقر نفسه ، أستاذ عدنان الإنسان أحياناً يرفض شيئاً لازدرائه عرضوا عليك بيتاً صغيراً وسعره غال أرفضه ، تجارة متعبة ودخلها قليل ، سفر مضني الثمرة قليلة ، أنت في معظم الأحيان ترفض الشيء ازدراء له أما إذا رفض الإيمان والتوحيد يحتقر نفسه ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

(سورة البقرة)

الخير بيد الله وحده :

أنت بالتوحيد إنسان قوي ، إنسان متوازن ، إنسان متفائل ، الإنسان إذا بعد عن التوحيد وسمع الأخبار المؤلمة يبرك لا يقوى على أن يقف ، من أين يأتي التشاؤم ؟ من ضعف التوحيد ، لأن الله عز وجل بيده الخير :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران الآية : 26)

فالخير وحده بيد الله .

الأستاذ عدنان :

دكتور أنا إن قلت إن الفطرة ، فطرة الإنسان التي خلق الله الناس عليها تدعو إلى الإيمان بالله ، تدعو إلى توحيد الله ، هذه الفطرة هل تكفي وحدها لتكون من لوازم التوحيد أم لا بد معها مثلاً من العلم عن الله عز وجل ، من التفكر في الكون ، من إلى آخره ؟

الفطرة و العلم من لوازم التوحيد في مجتمع تكثر فيه الفتن و الشبهات :

الدكتور راتب :

الفطرة تكفي لمجتمع سليم معافى من الشبهات والشهوات ، أما إذا كثرت الضلالات والشبهات حول الدين ، وكثرت الفتن وكانت يقظة عندئذ لا تكفي الفطرة لا بد من العلم ، لذلك من دقائق التوحيد أن يعبد الله فلا يجحد ، أن يشكر فلا يكفر ، أن يطاع فلا يعصى ، هذه من دقائق التوحيد .

يوجد نقطة دقيقة قال معاذ : كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ :

((يَا مُعَاذُ ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ))

من أسلوب النبي الحوار ، التشويق ، النبي معلم ، إنما بعثت معلماً هو سيد المربين وإمام المعلمين :

((يَا مُعَاذُ ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ...))

[متفق عليه عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أنت حينما توحد وحينما تطيع ، الدين كله توحيد وطاعة ، ألا ترى مع الله أحد ، الكلام سهل أما كتطبيق يحتاج إلى جهد كبير ، أحياناً يقول لك الضغط ثمانية ، اثني عشر ، هذا مثالي لكن حتى يكون الضغط بهذه الدرجات يحتاج إلى رياضة ، إلى ضبط طعام ، الكلام سهل أما التطبيق يحتاج إلى جهد كبير ، ألا ترى مع الله أحد ، كفكرة سهلة جداً ، أما كتطبيق تحتاج إلى إيمان ، تحتاج إلى تفكر في خلق السماوات والأرض ، تحتاج إلى تلاوة القرآن ، تحتاج إلى استقامة ، تحتاج إلى عمل صالح من أجل أن تصل إلى التوحيد لأنه نهاية العلم ، كل جهود المؤمن ، كل جهاده بنفسه وهواه ، كل طاعته لله ، كل عمله الصالح قد يقوده في النهاية إلى مستوى يليق به من التوحيد ، لذلك التوحيد أحد أكبر لوازم الإيمان ، أنت مؤمن أي موحد .

الأستاذ عدنان :

دكتور أنت قلت من لوازم التوحيد العلم ، أن يكون الإنسان عابداً لله إلى آخره ، ما هي الدوافع التي يستطيع من خلالها الإنسان أن يطبق هذه المظاهر أو هذه اللوازم ؟

الدوافع التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يطبق لوازم التوحيد :

الدكتور راتب :

نحن أحياناً الأشياء نقسمها تقسيماً مدرسياً أما هي متداخلة ، التفكر في خلق السماوات والأرض أحد

طرق التوحيد ، الآن الاتصال بالله أحد طرق التوحيد ، لما الإنسان يتصل بالله يشعر بأمن ، أحياناً العمل الصالح يعطي للتوحيد دفعة قوية ، الأمور كلها متداخلة ولكن نحن نقسمها تقسيماً مدرسياً ، لكن لو أنني أردت أن أذكر لوازم التوحيد الدقيقة ألا يتخذ الإنسان من دون الله رباً ، الرب هو المربي ، هو الممد ، هو المعطي ، هو المعالج والمعاقب أحياناً ، فأنت حينما تتجه لغير الله ليتولى تربيتك وقعت في الشرك .

الأستاذ عدنان :

دكتور الحقيقة مظاهر التوحيد عديدة لكن اللوازم التي يجب أن تكون وبعد ذلك النتائج والثمار .

من لوازم التوحيد :

1 – ألا يتخذ الإنسان من دون الله رباً :

الدكتور راتب :

نعم الحقيقة ألا يتخذ الإنسان من دون الله رباً :

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا (114))

(سورة الأنعام)

هو العليم ، هو الحكيم ، هو القوي ، هو الغني ، هو الرحيم ، هو الفعال لما يريد ، هو معك يسمعك في كل وقت ، لذلك ألا يتخذ الإنسان من دون الله رباً ، الحمد لله رب العالمين ، من لوازم التوحيد ألا يتخذ من دونه ولياً يعود إليه عند المشكلة :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31))

(سورة فصلت)

من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله ، ومن اشتكى إلى غير المؤمن فكأنما اشتكى على الله ، فالمؤمن يتخذ ربه ولياً ، يعود إلى منهجه ، يعود إلى كتابه ، يعود إلى سنة نبيه ، يسأل نفسه أين الخلل؟

2 ـ ألا يتخذ الإنسان من دون الله حكماً :

ومن لوازم التوحيد ألا يتخذ الإنسان من دون الله حكماً ، ينبغي أن يحتكم لشرع الله ، لذلك :

(أفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا (114))

(سورة الأنعام)

لوازم التوحيد أن يتخذ الله رباً وولياً وحكماً .

الأستاذ عدنان :

الآن ثماره .

ثمار التوحيد :

1 – الشخصية المتوازنة :

الدكتور راتب :

الحقيقة أول ثمار التوحيد الشخصية المتوازنة ، ما فيها انهيارات ، ما فيها اختلال توازن ، ما فيها قلق قاتل ، ما فيها يأس قاتل ، ما فيها تفاؤل أبله ، التوحيد يعطي الإنسان شخصية متوازنة ، يعرف مراكز القوى كلها بيد الله ، يعرف أن أعداءه بيد الله ، أصدقاءه بيد الله ، من فوقه بيد الله ، من دونه بيد الله ، من حوله بيد الله ، صحته بيد الله ، علاقته بزوجته بيد الله ، أولاده بيد الله ، فأنت حينما تتوجه إلى جهة واحدة ترتاح نفسك .

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

اعمل لوجه واحد يكفك الهموم كلها ، هذا التوازن .

2 - الأمن :

الأمن أعظم ثمار التوحيد :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

أنت من خوف الفقر في فقر ، قد يكون الإنسان أكبر الأغنياء لأنه يخشى الفقر هو فقير ، ومن خوف المرض في مرض ، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها .

التوحيد مصدر قوة الأقوياء موحدون ، الأقوياء باعتمادهم على قوتهم المادية قلبهم امتلأ خوفاً وفزعاً ولو كانوا أقوياء :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ)

(سورة آل عمران الراية : 151)

3 ـ القوة :

أما المؤمن قوي لأنه يعتمد على الله يرى أن القوة العظمى في الكون معه :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (48))

(سورة الطور)

أحد ثمار التوحيد القوة .

4 ـ الأخوة الإنسانية :

أحد ثمار التوحيد الأخوة الإنسانية ، أنت حينما توحد ما عاد في إله من البشر يعبد من دون الله ، كلنا عبيد والله فوق الخلق ، لذلك الأخوة الإنسانية الحقيقية تحتاج إلى توحيد ، أما الأقوياء حينما يستذلون الضعفاء والأغنياء ، حينما يذلون الفقراء ما عاد في أخوة إنسانية ، أما حينما ترى أن الأمر بيد الله ، الغنى من عند الله ، الرزق من عند الله ، القوة من عند الله تنقطع العلائق مع الخلق وتتصل بالحق ، هذا هو التوحيد

الأستاذ عدنان :

وعندما تتصل بالحق يرى الإنسان نفسه أنه كغيره في الإنسانية .

الدكتور راتب :

وحينما أقول التوحيد جعلت الدين كله في هذه الكلمة ، ولذلك حينما نقول الإسلام لا إله إلا الله توحيد ، محمد رسول الله منهج :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الثمار السلبية :

1 – بالتوحيد ينتفي الحقد و القهر والندم :

الآن في ثمار سلبية ، بالتوحيد ينتفي الحقد ، بالتوحيد ينتفي القهر ، بالتوحيد ينتفي الندم ، لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وحمدته في السراء والضراء .

2 – بالتوحيد ينتفي الأسف :

بالتوحيد ينتفي الأسف سيدنا الصديق ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط .

3 – بالتوحيد تنتهي كلمة لو:

بالتوحيد تنتهي كلمة لو ، لا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن كلمة لو تفتح عمل الشيطان .

الموحد سعيد ، الموحد في سلام مع ربه ومع نفسه ومع الخلق ، الموحد ممدوح عند الله وعند الخلق وعند نفسه ، الموحد متوازن .

الأستاذ عدنان :

دكتور هذا التوحيد فعلاً من خلاله يسمو الإنسان ، ويعلم أن علاقته بربه وبقية المخلوقات هم عبيد مثله يوحدون الله عز وجل ، ومن خلال الإعجازات العلمية في الخلق ومن خلال ما تطلعونا عليه ، يمكن أن نتابع موحدين أيضاً لله تعالى .

رعي الحيوانات صغارها و الاهتمام بهم برحمة و تضحية نادرتين :

الدكتور راتب :

سوف نرى مشهداً رائعاً في إحدى مراعي كينيا الحارة ، خرج قطيع الفيلة الوحيد في المنطقة للتنزه اليومي لإيجاد الطعام ، قائد القطيع الفيلة الأنثى ، هذه القائدة التي نشاهدها في يوم من أيام الصيف تضع الفيلة مولوداً جديداً ، لا يختلف هذا الفيل الصغير المحبوب الذي ولد منذ ساعات فقط عن أمه أبداً إلا بالحجم فقط ، غير أن هناك مشكلة مهمة جداً يصعب على الصغير الوقوف لوجود شيء في قوائمه

الأمامية ، والقوائم الأمامية للفيل مثنية نحو الداخل ولذلك لا يستطيع الوقوف ، المشاهدون في المنطقة يعتقدون موت الصغير حتماً ، تترك الأم قطيع الفيلة في اليوم التالي لوجود مشكلات صحية للصغير و، لا تستطيع قيادة القطيع أكثر من ذلك ، ولا بد أن يستمر القطيع برحلته للبحث عن الطعام ، فالتحاق الصغير العاجز بالقطيع مستحيل ، الأخت الكبرى مضطرة للذهاب مع القطيع إذا أرادت البقاء على قيد الحياة إلا أنها تقع في مأزق كبير ، تحاول الفيلة الأم أن ترفع صغيرها من الأرض بخرطومها وتؤمن له الوقوف على قدميه ، في النهاية تستسلم الأخت الكبرى وتبدأ بالمشي شيئاً فشيئاً للالتحاق بالقطيع ، لكنها تجاه خيارين صعبين تقف وتنظر خلفها ، الفيلة الأم لاتزال تحاول إلى الآن مساعدة الصغير ورفعه على قدميه ، فجأة تطلق الأخت الكبرى صرخة كبيرة وتسرع نحو أمها وأخيها العاجز ، تضع الموت بين عينيها ولا تفارق أمها وأخاها أبداً ، في اليوم التالي لا تزال الأم والأخت الكبيرة إلى جانب الصغير العاجز حتى الآن فالصغير الذي يتألم بكل خطوة لا تتركه أمه وأخته الرحيمة المضحية ، يبدو موت الصغير حتى الآن محققاً في نهاية اليوم الثالث تتحقق حادثة مثيرة تبدأ أرجل الصغير بكسب التمطط شيئاً فشيئاً ، حاول الاستقامة على قدميه تحت إشراف أمه ، ويستمر بالتجربة دون ملل أو استسلام ، في النهاية يقف على قدميه لحظة ثم يركض على ركبتيه مرة أخرى ويكرر ذلك ، وفي نهاية اليوم الرابع يستطيع الصغير الوقوف على قدميه ، الصبر الرائع للأم والأخت ومحبتهما وحنانهما أعطى الفيل الصغير الوقت في الدعم الذي احتاج إليه للبقاء على قيد الحياة ، فحين يرى بعض التطوريين وجوب قتل الأطفال العاجزين لضرورة التطور ترعى الحيوانات في الطبيعة صغارها وتهتم بها برحمة و تضحية نادرتين .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (26-30) : الاعتراف بالفضل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :
الاعتراف بالفضل من جملة مكارم الأخلاق إذا كان إسداء المعروف للآخرين هو فضل ، فالاعتراف من قبل من أسدي لهم المعروف هو أيضاً من مكارم الأخلاق ، وهذا له أصل في كتاب الله عز وجل ، إذا أردنا أن نطلع على ما ورد في كتاب الله عز وجل من تبيان لهذا الموضوع فآيات القرآن الكريم كثيرة في ذلك .

العمل الصالح أهم شيء في الحياة الدنيا لمن عرف الله ليدخل الجنة :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ عدنان علة وجود الإنسان في الأرض أن يعبد الله ، والعبادة أن تعرفه ، وأن تنصاع لمنهجه ، وأن تسعد بقربه ، من جملة الأعمال التي ينبغي أن تكون مجسدة للعبادة العمل الصالح ، بل إن حركة الإنسان انضباط وعطاء ، انضباط وفق منهج الله ثم بذل للمعروف ، إذاً الإنسان حينما يأتيه ملك الموت على أي شيء يندم ، ماذا يقول ؟

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون الآية : 100)

إذاً يبدو أن أهم شيء في الحياة الدنيا لمن عرف الله أن يعمل أعمالاً صالحة تكون ثمن دخوله للجنة :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32))

(سورة النحل)

أعظم شيء ألا نسيء لمن فعل الخير :

لكن لا بد من التفريق بين أن تقوم بعمل يكافئ الجنة ، وبين أن تقوم بعمل يساوي سبب دخول الجنة ، الجنة برحمة الله ولكن يقتسمها المؤمنون بأعمالهم .

على كل حينما تؤكد الآيات القرآنية الكثيرة أن أعظم شيء لمن عرف الله أن يتقرب إليه بالعمل الصالح فلا بد من صيانة هذا العمل العظيم ، كيف نصونه ؟ كيف نشجع عليه ؟ كيف نحث الناس على فعله ؟ كيف نحث الناس على متابعة فعله ؟ كيف نحذر الناس من تركه ؟ من هنا كان الاعتراف بالفضل ، الإنسان حينما يعمل عملاً طيباً ثم يقدره الناس على هذا العمل ، يشجعونه على متابعة العمل، لذلك من أكبر الجرائم منع الماعون ، أن تمنع الخير ، كيف تمنع الخير ؟ بالإساءة لمن فعل الخير ، تروي كتب الأدب أن إنساناً يمتطي جواده في الصحراء ، وفي أيام الحر الشديدة رأى رجلاً ينتعل الرمال الحارة وكأنه الجمر فدعاه لركوب الفرس ، إذا بهذا الإنسان أحد لصوص الخيل ما إن اعتلى الفرس حتى دفع صاحبها إلى الأرض ، وعدا بالفرس لا يلوي على شيء ، ماذا قال صاحب الفرس ؟ يا هذا لقد وهبت لك هذه الفرس ولن أسأل عنها بعد اليوم ، ولكن إياك أن يشيع الخبر في الصحراء فتذهب منها المروءة وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها .

بطولة الإنسان أن يصون العمل الصالح من أن ينحرف أو يتوقف :

لذلك أولئك الذين يسيؤون للمحسنين ، أولئك الذين لا يقدرون المحسنين ، الذين يتفننون بالإساءة للمحسنين ، هؤلاء يقترفون في نظر الشرع أكبر جريمة لأنهم يمنعون الماعون ، لو أن إنساناً استقرض مالاً وتوانى في رده قطع هذا الخير ، لو أن إنساناً استقرض مالاً وأداه بالتمام والكمال في الوقت المناسب شجع المحسنين على إقراض الناس ، لذلك أحياناً تنعدم الفضائل في المجتمع لسبب أن الذين قدموا هذه الفضائل تَنَكَّر الناس لهم ولم يعبؤوا بهذا العمل الطيب ، لذلك ليست البطولة أن تعمل عملاً صالحاً ، البطولة أن تصون هذا العمل الصالح من أن ينحرف أو من أن يتوقف .

من هنا كان الاعتراف بالفضل ، لذلك الآية الأساسية في هذا الموضوع :

((وَلَا تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ (237))

(سورة البقرة)

من لم يشكر الناس لم يشكر الله :

أيضاً أستاذ عدنان أنا حينما يسدي إليّ إنسان معروفاً ، بادئ ذي بدء إن كان القلب سليماً والمعدن نفيساً يجب أن يمتلئ قلبي امتناناً منه ، هذا شعور داخلي لكن لابد من أن يترجم الامتنان تعبيراً بلساني، لذلك القاعدة الأساسية من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، هناك أناس يفهمون الدين فهماً مغلوطاً يقول لك : ليس لأحد فضل عليّ إلا الله ، وهذا الذي كان سبب وجودك أبوك وأمك ، وهذا الذي احتضنك وهذا الذي زوجك ابنته ، من أدق ما قرأت حول موضوع الزواج أن أحدهم قال : لك أب أنجبك ، و لك أب زوجك ، و لك أب دلّك على الله .

المعروف الذي هو علة وجودنا بعد الإيمان بالله والدليل القطعي أن الإنسان حينما يأتيه ملك الموت لا يندم على شيء إلا على عمل صالح فاته ، إذاً علة وجودنا بعد الإيمان بالله العمل الصالح ، العمل الصالح قد نفعله لكن إذا شجعنا عليه إذا عرف الناس قيمة هذا العمل ، لذلك يبدأ ردّ هذا الجميل بالامتنان القلبي ، ويأتي بعد هذا الامتنان القلبي النطق باللسان ، أنا أسمي هذا تديناً ولك أن تسميه حضارة ، أي خدمة قدمت إليك ينبغي أن ترد عليها بالشكر ، باتصال هاتفي ، برسالة ، بامتنان ، أو بعمل يقابل هذا ، فقد يكون الامتنان القلبي مشفوعاً بالشكر اللساني ولكن أكمل ما يشجع على هذا العمل الصالح أن ترد هذا الجميل بالجميل ، والخدمة بالخدمة ، والهدية بالهدية ، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((تَهَادَوْا تَحَابُّوا))

[مالك في الموطأ]

فعل تهادوا فعل مشاركة تقدم له هدية ويقدم لك هدية .

بطولة الإنسان أن يشجع الآخرين على فعل الخير :

لذلك القضية الدقيقة هنا أن الإنسان بطولته أن يشجع الناس على فعل الخير ، أن يشجعهم على متابعة هذا العمل ، لأن الذي يسيء للمحسنين كأنه يقطع هذا الباب ، وهذا ورد في القرآن الكريم تحت صياغة ويمنعون الماعون ، يمنعون المعونة ، يمنعون القرض الحسن ، يمنعون الخدمة ، لو أعرت إنساناً كتاب ونسيه في مكتبته فقد أساء لهذه الخدمة أما إذا ردّه إليك في الوقت المناسب بل ردّه إليك مجلداً أنت عندئذ تشجع على متابعة هذا العمل ، من باب الطرف إنسان قبل موته عنده مكتبة كبيرة جداً في كل الجدران من الأرض إلى السقف ، قدم لأولاده وصية ألا تعيروا منها كتاباً واحداً لأن كل هذه الكتب معارة .

أحياناً أنت حينما تستعير كتاباً ولا تؤديه تقطع هذه الخدمة ينبغي أن تؤديه ، لا تقل لصاحبه تعال خذه، ورد في بعض الآيات :

(وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ (178))

(سورة البقرة)

إلى لانتهاء الغاية ، وأداء إليه بإحسان ، يعني اذهب إلى بيته وقدم إليه الكتاب الذي استعرته مجلداً :

(وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ (178))

(سورة البقرة)

هناك إنسان عنده كتاب قد استعاره من صديق يعطيه إياه في الطريق كيف يحمله ذاهب إلى عقد قران ، ذاهب إلى حفل ، خذ هذا الكتاب ، لا :

(وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ (178))

(سورة البقرة)

نحن حينما نتعلم أوامر الدين وحقائقه يكون هذا العمل الصالح نامياً فيما بين الناس .

كل عمل صالح يؤدى يجب أن يُقابل بالشكر القولي أو الفعلي :

أستاذ عدنان الآن الذي زهّد الناس بالخير قلة تقدير الخير ، بل الإساءة إلى فاعلين الخير وهذا من أعظم المصائب التي تصيب الأمة ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ، ونهيتم عن المعروف ، قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً المنكر معروفاً ؟))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

فلذلك أي عمل صالح قرض حسن ، إعارة كتاب ، معاونة ، إنسان أعارك منزله وقانون الإيجار لصالحك لا ينبغي أن تفعل معه شيئاً تزهده بالعمل الصالح ، إذا رأيت في الحياة المعاصرة انحسار العمل الصالح لأن الناس لا يراعون هذه الفضيلة ، فضيلة الاعتراف بالفضل ، أما في كتاب الله :

(وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ (237))

(سورة البقرة)

لا بين الآباء والأبناء ، ولا بين الأبناء والآباء ، ولا بين الأزواج والزوجات ، ولا بين الجيران ، ولا بين الأصدقاء ، ولا بين الزملاء ، ولا بين الأقرباء ، ولا بين المؤمنين ، ولا بين الناس عامة ، أنا أتمنى أن كل عمل صالح يؤدى يجب أن يقابل بالشكر إما القولي أو كتابة أو رسالة أو اتصال أو تنويه

بالصحيفة ، أحياناً طبيب يقدم على عمل جراحي (بارع جداً) ويبذل ساعات طويلة ويأخذ أجراً معتدلاً ، أحياناً المريض ينوه بصحيفة يومية بفضل هذا الطبيب هذا مكافأة ، شيء جميل جداً ، ينبغي أن نعود أنفسنا أن كل شيء جاءنا من أخواننا أن ننوه به هذا من كمال هذا الأدب .

الأستاذ عدنان :

أيضاً الاعتراف بالفضل له أصل في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .

بطولة المسلم أن يرد المعروف بمعروف مثله أو أحسن منه :

الدكتور راتب :

النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

((ومن أسدى إليكم معروفا فكافئوه))

[رواه الطبراني عن الحكم بن عمير]

كافئوه المعروف بالمعروف ، الهدية بالهدية ، الخدمة بالخدمة ، أعارك مركبته مرة واضطر إلى مركبتك ثانياً أعره مركبتك .

((ومن أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له))

[رواه الطبراني عن الحكم بن عمير]

أحياناً يكون الذي أسدي إليه المعروف ضعيفاً أو فقيراً أو ضيق ذات اليد ماذا يفعل ؟ قال : فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه .

لذلك أنا أرى من خلال هذا الحديث أنه لا يجوز أن تكتفي بالشكر القولي إذا كان بإمكانك أن ترد على هذه الهدية بهدية مثلها ، أو بهذه الخدمة بخدمة مثلها ، أو بهذا المعروف بمعروف مثله ، البطولة أن ترد على المعروف بالمعروف ، وعلى الخدمة بالخدمة ، وعلى الإعارة بالإعارة ، وعلى القرض الحسن بقرض حسن ، أما حينما لا تستطيع تقول له : جزاك الله خيراً ، لأنك إن كنت لا تجد ما تعطي بهذه الكلمة قد أديت الذي عليك .

الأستاذ عدنان :

صلى الله عليك يا سيدي يا أبا الزهراء فقد دعوت الصحابة والمسلمين جميعاً أن يؤدوا الفضل لصاحب الفضل وأن يعترفوا به ، أنت الذي بينت من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له ، وكان هذا من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا استعرضنا شيئاً من مواقفه بالاعتراف بالفضل ورد المعروف وهي كثيرة بل كل حياته .

من الاعتراف بالفضل و ردّ المعروف :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان يوجد للنبي حديث شريف يتصل بالاعتقاد ، وفي هذا الموضوع بالذات :

((أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ))

[متفق عليه عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ]

يعني حتى إذا هطلت الأمطار ينبغي أن تعتقد أن هذا فضل الله عز وجل ، أنها رحمة الله ، أنها غيث الله ، أما بمتابعتنا للنشرات الجوية نتوهم أن هناك منخفض متمركز في قبرص باتجاه الشرق الأوسط ، ننسى أن هذا من فضل الله عز وجل ، فهناك حديث يتصل بالعقيدة ، الإنسان إذا توهم أن هذه الأمطار بسبب منخفضات فقط وينسى أن الله هو الذي أرسلها وسخرها وأكرمنا بها فقد وقع في الشرك ، هذا الموضوع إذاً يتصل بالشرك ، أما النبي صلى الله عليه وسلم كان وفياً لأصحابه لدرجة تفوق حدّ الخيال، سيدنا الصديق قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : أعطاني ماله وزوجني ابنته وما ساءني قط.

سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم حينما وجدوا الأنصار عليه في أنفسهم فجاء زعيمهم سعد بن عبادة وقال : يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم لهذا الفيء الذي لم تؤتِ الأنصار منه شيئاً ، فقال يا سعد أين أنت من قومك ؟ قال : ما أنا إلا من قومي ، قال : اجمع لي قومك ، أستاذ عدنان النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف كان أقوى إنسان في الجزيرة العربية ، دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، وبمنطق الأقوياء كان بإمكانه وقد انتقده بعض من حوله أن يلغي وجودهم ، أو أن يهدر كرامتهم ، أو أن يهملهم ، أو أن يعاتبهم لصالحه ، الذي فعله لا يصدق جمع الأنصار ، قال لهم : أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم به ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، طريداً فآويناك ، عائلاً فأغنيناك ، ذكرهم بفضلهم عليه وهذا قمة الكمال ، وأنت قوي ، وأنت غني ، وأنت متمكن من هذا الذي انتقدك أن لا تنسى فضله عليك ، هذا درس بليغ علمنا إياه النبي صلى الله عليه وسلم .

الاعتراف بفضل الآخرين من مكارم الأخلاق :

الاعتراف بالفضل من مكارم الأخلاق ، بل هو من قمم مكارم الأخلاق ، قد تعترف بالفضل وأنت ضعيف ، قد تعترف بالفضل وأنت فقير ، أما حينما تكون قوياً غنياً لا تنسى الذي ساهم معك ، لا تنسى

الذي كان معك .

النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة المكرمة ، لم تكن السيدة خديجة التي أعانته والتي كانت سنده من الداخل موجودة وفاءً لها قال لهم : انصبوا لي خيمة عند بيت خديجة ، ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر هي شريكته في النصر .

هذا وفاؤه لزوجته خديجة ، وهذا وفاؤه لصاحبه الصديق ، أما السيدة عائشة مرة حدثت النبي صلى الله عليه وسلم فترة طويلة ، ومن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم الرفيعة أنه يصغي لزوجاته ، أحياناً الإنسان يكون له عمل خطير ، له شأن كبير ، يدخل إلى البيت يتوهم أنه بهذا المكان وبهذا الشكل فلا يسمح لأحد أن يكلمه ، فمن تمام كمال النبي وهو في قمة العلو ، وفي قمة القوة ، وهو في قمة خطورة المسؤولية أنه كان يصغي باهتمام لزوجته عائشة ، حدثت النبي صلى الله عليه وسلم فترة طويلة عن أبي زرع وأم زرع ، وحدثته عن شجاعته وكرمه ، وأنه كان زوجاً نموذجياً ، لكنها تأسفت أشد الأسف حينما أعلمته في النهاية أنه طلقها ، فكان عليه الصلاة والسلام رفيقاً بها ، فقال لها : أنا لك كأبي زرع لأم زرع ، غير أني لا أطلقك .

فكان مع الصديق وفياً ، وكان مع زوجته خديجة وفياً ، وكان مع عائشة وفياً ، وكان مع الأنصار وفياً، لذلك مواقف النبي صلى الله عليه وسلم رائعة جداً . مرة كان النبي عليه الصلاة والسلام في مجلس وإلى جانبه سيدنا علي بن أبي طالب ، دخل سيدنا الصديق ماذا فعل هذا الصحابي الجليل علي بن أبي طالب ؟ وقف للصديق وأجلسه مكانه ، تبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال :

((لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل))

في حياته رجل أقام بين يديه ونزع قشة عن ثوبه ، فقال جزاك الله خيراً ، كان عليه الصلاة والسلام لين الجانب ، كان عليه الصلاة والسلام يرد على الهدية بهدية مثلها ، كان عليه الصلاة والسلام لا يدع أحداً دون أن يشكره ، بل كان متواضعاً إلى درجة أنه قال :

((ولو دعيت إلى كراع لأجبت))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

أي رجل خروف .

حثّ النبي عليه الصلاة والسلام

الآخرين على الاعتراف بالفضل في قوله و عمله :

لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام في أقواله يحثنا على الاعتراف بالفضل بل كان في أعماله ومواقفه، لذلك الصحابة الكرامة حينما رأوا هذا الكمال الرائع أحبوه وافتدوه بأرواحهم ، وكان النبي عليه الصلاة

والسلام يتبع القول بالعمل ونحن لا نفلح إلا إذا ضاقت المسافة بين أقوالنا وأفعالنا .

الأستاذ عدنان :

في هذه الحالة لا شك أن الصحابة مشوا على الطريق نفسه ، وأمثلة ذلك كثيرة .

الدكتور راتب :

سيدنا الصديق عقب وفاة النبي عليه الصلاة والسلام وقف مع سيدنا عمر وقال : يا عمر مد يدك لأبايعك ، صعق سيدنا عمر قال : أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني ، إذا كنت أميراً على قومٍ فيهم أبو بكر ؟!! قال الصديق : يا عمر أنت أقوى مني . قال : يا أبا بكر أنت أفضل مني . ثم قال عمر : يا أبا بكر قوتي إلى فضلك . أي الإنسان حينما يعرف فضل الآخرين ، أنا أقول دائماً هناك من يدعو إلى الله دعوة خالصة ، من لوازم هذه الدعوة أن يعترف بأقدار الآخرين ، يعترف بعلمهم ، بمكانتهم ، بتقاهم ، بورعهم ، أما الذي يلغي الطرف الآخر كلياً إنسان يعبد ذاته ولا يعبد الله عز وجل .

الاعتراف بالفضل من سمة العلماء :

لذلك من لوازم الدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله أن يبني علاقاته مع الآخرين على التعتيم ، وعلى الإهمال ، وعلى إبراز مكانته على حساب الآخرين .

لذلك تبنى الدعوة إلى الذات على التنافس لا على التعاون وعلى إنكار الطرف الآخر ، الاعتراف بالفضل هذه من سمة العلماء ، لذلك العلماء الصادقون متواضعون ، العلماء الصادقون يجلون زملاءهم، يعرفون أقدارهم ، وهؤلاء الدعاة إلى الله إذا عرف بعضهم أقدار بعضهم الآخر ، وقدروا بعضهم البعض ، وتعاونوا ، وتضامنوا ، وتكاتفوا ، وتآزروا ، وتناصحوا ، يرتفعون جميعاً عند الله وعند الناس ، فإذا تنافسوا وإذا تراشقوا التهم يسقطون جميعاً من عين الله وعين الناس ، لذلك الاعتراف بالفضل فضيلة كبيرة جداً ، أنت حينما تبين للناس أنك تعرف فضل فلان ، أحياناً يسكت الإنسان اعترافاً بالفضل ، اعترافاً بأن هذا الآخر أعلم منه ، كل الفضائل متشابكة لكن هذه الفضيلة هدفها الأول صيانة العمل الصالح ، هذه الصيانة من أدق ما في هذا الموضوع .

الأستاذ عدنان :

دكتور لا شك أن فعل الفضل والرد على الفضل بشكر أو بدعاء إن لم يجد مجالاً للشكر سيؤتي ثماراً جيدة في حياة المجتمع ويكونوا متآلفين فيما بينهم ، يحبون للآخرين ما يحبون لأنفسهم ، كل واحد يحمل هذه الفكرة ، أردنا أن نتابعها .

من فعل معروفاً مع الناس عليه أن ينساه و من فعل معك معروفاً ينبغي ألا تنساه :

الدكتور راتب :

سنتابعها إن شاء الله ولكن لي وقفة متأنية عند حقيقة ، أنا أنصح أخوتي المشاهدين أنهم إذا فعلوا معروفاً مع إنسان ينبغي أن ينسوا هذا المعروف كلياً وكأنهم ما فعلوه ، أما إذا فعل معهم معروفاً ينبغي ألا ينسوه ما داموا أحياء ، هذه قاعدة ذهبية إن فعلت الخير انسه وكأنك لم تفعله إطلاقاً ، لا تمنن ، لا تقرع ، لا تجرح ، أما إن فعل معك معروف ينبغي ألا تنساه مدى الحياة .

الأستاذ عدنان :

ولها آثار إيجابية في المجتمع كثيراً أن ينسى الإنسان فعل خيره مع الآخرين فلا يمتد شيئاً من المنة إطلاقاً و العكس صحيح .

الدكتور راتب :

من ثمار هذه الفضيلة أنها سبب حفظ النعمة ، وأنها تشجيع لذوي الفضل على متابعة فضلهم ، وأنها وسيلة لنيل مرضاة الله عز وجل ، وأنها وسيلة لنيل محبة الناس جميعاً ، لذلك هذه الفضيلة لا تقل (فضيلة الاعتراف بالفضل)عن الفضل نفسه .

الأستاذ عدنان :

دكتور وما أجدر الناس أن يعترفوا بفضل الله عليهم الذي ملأ وجودهم وحياتهم وكل شيء فيهم .

موضوع الإعجاز العلمي :

إذا تابعنا معكم الآن موضوعاً من موضوعات الإعجاز العلمي في مخلوقات الله عز وجل ندرك هذا الإعجاز من خلال أبصارنا ، وبصرنا نعمة وفضل من الله عز وجل علينا والنعم كثيرة وأفضاله علينا كثيرة من اعترافنا فيها وبها أن يكون هذا يا رب حالنا ونشكرك يا رب ونعبدك ، وهذا أيضاً من مكارم الأخلاق نتابعه معكم .

التماسيح من أشد أصناف الحيوانات افتراساً ولكنها أشفق أمهات في العالم على صغارها :

الدكتور راتب :

الإنسان حينما يدعى إلى مكارم الأخلاق ليؤكد إنسانيته فكيف إذا رأى أن هناك وحوشاً كاسرة تتحلى بعلاقات اجتماعية راقية جداً ؟ من هذه الوحوش التماسيح كائنات تحتمي بأمهاتها ، ولنقم الآن برحلة

إلى قارة إفريقيا ولنتابع هذا الشكل من الحماية التي تصل إلى حدّ الروعة ، نحن الآن قريبون من نهر النيل ، تعيش في هذه المياه تماسيح النيل ، والتماسيح أستاذ عدنان من أشد أصناف الحيوانات افتراساً على وجه الأرض ، ومع ذلك تأخذ هذه الكائنات مكاناً لها بين أشفق الأمهات في العالم .

تغرز أنثى التمساح بيوضها في رمال الشاطئ ، وعندما يحين وقت فقص البيض تبدأ بحفر الرمال بدقة واهتمام ، إنها دقيقة جداً كي لا تتضرر بيوضها ، تبدأ البيوض بالفقس بمجرد إزالة التراب عنها وتظهر التماسيح الصغيرة ، وفي هذه الأثناء تحدث واقعة عجيبة جداً : تحرك التمساحة الأم أسنانها الحادة وتفتح فمها الضخم وتضع صغارها في فمها ، المشاهدون لهذه الحادثة يتوهمون أن هذه التمساحة تأكل صغارها ، لكن الحقيقة مختلفة تماماً فآمن مكان في الساحل لصغار التمساح أفواه أمهاتها، تضع الأم جميع صغارها واحداً واحداً في فمها برحمة واهتمام كبيرين ، الصغار الخارجة من البيوض كأنها تستنجد بأمها لتدخل في فمها ، تأخذ التمساح البيوض وتوضع في فم الأم ، بالمناسبة تضغط على البيض بخفة ، أنياب التمساح تضغط على البيض بخفة بحيث تزيل قشرتها فقط ، هذه الأسنان الحادة كالشفرة يمكن أن تمزق جاموساً كبيراً أو غزالاً ، عندما يعض التمساح فريسته يصل الضغط الذي قامت به أسنانه إلى أبعاد هائلة ، إلا أن هذه التمساح الأم عندما تأخذ الصغار إلى فمها تتصرف برحمة ودقة إلى درجة أن الصغار لا يتأثرون بأي ضرر من هذه الأسنان الحادة ، تضغط ضغطاً يكفي لكسر البيضة ، مع أن هذا الناب بإمكانه أن يقسم الجاموس قسمين .

تعود الأم إلى النهر بعد أن ملأت فمها تماماً بصغارها .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (27-30) : الألفة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

يقال فلان ألف فلاناً أي تابعه واطمأن إليه واستمر معه ، لكن هذا يمكن أن يكون في إطار التعبير اللغوي ، أما إذا أردنا أن نبحث في الموضوع الاصطلاحي لتعريف الألفة إذ إن لها أسباباً ودوافع حتى تكون وبالتالي يكون تعريفها الاصطلاحي أدق وأوقع ، يمكن أن نتابع معكم ؟

التعريف الاصطلاحي للألفة :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، أستاذ عدنان التعريف الاصطلاحي للألفة : اجتماع مع التأم ومحبة ، لقاء إنسان مع إنسان اجتماع ، لكن مع الاجتماع محبة ، مع الاجتماع التأم توافق ، الحقيقة أن هذا ينقلنا إلى التفسير العلمي للألفة ، الإنسان له شخصية ، له شكل خارجي ، وله نفسية هي حقيقته ، فهذه النفسية تنطلق من منطلقات ، تعتقد اعتقادات ، تتصور تصورات ، عندها مبادئ معينة ، عندها قيم معينة ، عندها عادات معينة ، عندها تقاليد معينة ، عندها حركات معينة ، عندها أساليب في الحياة معينة ، لو مثلاً جمعنا هذه الخصائص ولتكن ألف خصيصة بقائمة وجئنا بإنسان آخر أحصينا له هذه الخصائص ، كلما زادت القواسم المشتركة بين إنسانين كان بينهما الألفة ، بل زادت الألفة .

القواسم المشتركة بين اثنين تكون سبب ألفتهما :

لذلك هناك في بعض البلاد صنعوا برنامجاً كومبيوترياً لنجاح الزواج ، يأتي الشاب يسأل تقريباً خمسمئة سؤال بماذا يعتقد ؟ ماذا يحب ؟ ماذا يكره ؟ كيف يحب أن يمضي عطلة الأسبوع ؟ هل يحب أن يطالع قبل أن ينام ؟ أن يشاهد شيئاً ؟ كيف يمضي أوقات فراغه ؟ كيف يحب أن يأكل ؟ كيف رياضته ؟ يسأل مئات الأسئلة ، توضع هذه الأسئلة في حافظة الكومبيوتر ، تأتي فتاة تسأل الأسئلة

نفسها ، يغيب السائل الأول شهراً ويعود فيسأل هذا الجهاز أية فتاة أقرب إليّ ؟ عن طريق التقاطعات ، الكومبيوتر يعطي السائل أقرب فتاة إليه ، المرجح أن الألفة تكون بينهما .

أريد أن أقول بقدر ما بين اثنين من قواسم مشتركة تكون الألفة بينهما ، الآن لو دخلنا إلى عالم الإيمان، المؤمن يعرف الله ، المؤمن يعرف منهج الله ، المؤمن تخلق بالفضائل التي أمره الله بها ، المؤمن عنده ورع ، المؤمن عنده عفة ، المؤمن مؤدب ، المؤمن رحيم ، المؤمن صادق ، المؤمن أمين، المؤمن يقيم الحق ، وقاف عند كتاب الله ، الذي يدهش أن بين المؤمنين من أواصر المحبة ما لا يوصف ، السبب لأن نقاط الاشتراك التي في شخصياتهم كثيرة جداً ، لذلك الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف .

بطولة المؤمن في حسن اختيار زوجته :

إذا أراد الزوجان أن ينجحا في زواجهما ينبغي أن يكونا على منهج واحد ، وعلى تصور واحد ، وعلى أهداف واحدة ، وعلى طموحات واحدة ، وأن يتمتعا بعقلية متشابهة ، لذلك قضية الزواج مهمة جداً ، لأن أقرب علاقة بين إنسانين هي الزواج ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : النساء شقائق الرجال . يعني يوجد تكامل بينهما ، نحن نبحث عن الألفة ، الألفة يجب أن تكون واضحة جداً بين العلاقات الطويلة الأمد ، قد تجلس مع إنسان لساعة قد لا تألفه وقد لا يألفك ، ليست هناك مشكلة أبداً ، هذه التي اخترتها شريكة حياتك تعيش معها سنوات مديدة ، ينبغي أن يكون بينك وبينها قواسم مشتركة كثيرة ، لذلك البطولة في حسن اختيار الزوجة ، ماذا قال الله عز وجل ؟

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ (26))

(سورة النور)

أي ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات ، هذا التوجيه القرآني ليست أمراً تكوينياً بل هو أمر تكليفي ، أي إن كنت طيباً ابحث عن طيبة ، إن كنت طيبة لا تقبلي إلا طيباً ، لأن المودة بين الزوجين أساسها التوافق ، إذا وجد فرق كبير بالثقافة ينشأ الخلاف ، فرق كبير في المستوى الاجتماعي ، فرق كبير في التمسك بالدين ينشأ الاختلاف ، والبطولة هو الزواج المستمر ، إذاً قضية الأنثى تنطلق من القواسم المشتركة التي بين شخصيتين ، لذلك الأسر المتماسكة ما سبب تماسكها ؟ السبب : أن الأب والأم استطاعا أن يكونا قيماً موحدة لهذه الأسرة .

الأستاذ عدنان :

دكتور هنا يمكن أن يطرح السؤال التالي : الكومبيوتر الذي ذكرت عنه تؤخذ معلومات عن الفتى ، معلومات عن الفتاة ، يُدرس الأمر ، هذه تناسب ذاك وهذا يناسب تلك ، أبو وداعة الفقير المعدم إن

صحّ القول بعد أن توفيت زوجته لم يشأ أستاذه وقد عُرض على ابنته أن تتزوج من شخصية كبيرة لكن مستوى الإيمان لم يرق له ، أراد أن يكون زوج ابنته مؤمناً متمسكاً بالإيمان ، هنا ألغي موضوع الفارق ما بين الغنى والفقر وما إلى ذلك ، من هنا أيضاً يبدو لنا موضوع المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيما لا يألف ولا يؤلف ، لأن المؤمن في الأصل مبادئه وما عنده يتجاوز الآخرين وهناك نقاط التقاء كثيرة بين المؤمنين .

طالب العلم كفء لأية فتاة :

الدكتور راتب :

هذه القضية أجاب عنها الفقهاء قالوا : طالب العلم كفء لأية فتاة ولو كانت بنت ملك ، قالوا زوج ابنتك للمؤمن إن أحبها أكرمها وإن لم يحبها لم يظلمها .

على كل نحن عندما تسود في المجتمع قيم مشتركة ، مبادئ مشتركة ، اهتمامات مشتركة ، أهداف مشتركة ، في الأعم الأغلب يكون هذا المجتمع متوافقاً ، قضية التوافق شيء ضروري جداً ، لأن الله قهرنا أن نعيش مع بعضنا بعضاً ، لأن كل واحد منا أتقن حاجة وهو بحاجة إلى مليون حاجة فلا بد من أن نجتمع ، لذلك الألفة تأتي من التوافق ، هذا شيء يدخل في علم السلوك .

قيل لإنسان أتعرفه ؟ قال أعرفه ، قال هل سافرت معه ؟ قال لا ، قال هل جاورته ؟ قال لا ، قال هل حاككته بالدرهم والدينار ؟ قال لا ، قال أنت لا تعرفه .

تعرف الإنسان من جواره ، من محاككته بالدرهم والدينار ، من السفر معه ، لذلك قالوا في الإنسان أثلاث ثلاثة الثلث الأول يعرفه جميع الناس أنه فلان ابن فلان وابن فلانة ، أنه مهندس ، أنه طويل القامة ، أبيض اللون ، يسكن في الحي الفلاني ، هذا القسم الأول يعرفه جميع الناس ، لكن هناك ثلث ثان لا يعرفه إلا أقرب الناس إليه ، زوجته ، أولاده ، شركاؤه ، من جاوره ، من سافر معه ، من حاككه بالدرهم والدينار ، وفي ثلث ثالث لا يعلمه إلا الله ، لذلك نحن نعمل في الثلث الثاني ، فما دامت المبادئ والقيم والآداب والآمال والآلام والتجارب والمشاعر متوافقة في الأعم الأغلب يكون هناك تآلفاً.

أحد أسباب السعادة

التوافق بين الأشخاص :

شيء واضح أستاذ عدنان قد تجد أسرة متماسكة ، متماسكة في حياة الأب وبعد موت الأب ، لأن الأب كان حكيماً جداً حينما ربى أولاده على مبادئ صحيحة ، وعلى قيم صحيحة ، وعلى ضوابط صحيحة ،

وعلى أهداف صحيحة ، قضية الألفة تعني السعادة ، ما من شيء يؤلم الإنسان كأن يفرض عليه إنسان ليس على شاكلته .

وبالنكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

***

أن يُفرض عليك إنسان بعيد عن اتجاهك ومبادئك ، لذلك من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم بل من شكره لربه حيث قال :

((إن الله اختارني ، واختار لي أصحابًا))

[الطبراني في الكبير والأوسط عن عديم بن ساعدة ، وابن أبي عاصم في السنة عن أنس]

سعادة ما بعدها سعادة ، أن يكون الذي تعيش معه تسمر معه ، تسهر معه ، تلتقي معه في العمل ، على شاكلتك ، تؤمن بما يؤمن ، يحب ما تحب ، يكره ما تكره ، فهذا شيء مهم في حياتنا ، فنحن كلما اصطفينا من أصدقائنا من كانوا على شاكلتنا ، واخترنا الذين في حقل العمل على شاكلتنا نمضي حياة سعيدة جداً ، ما أصعب أن يعيش عالم مع جاهل ، ما أصعب أن يعيش أخلاقي مع من تحلل من الأخلاق ، ما أصعب من يعيش وله هدف في الحياة مع إنسان بلا هدف لذلك قضية التوافق بين الأشخاص ، أحد أسباب السعادة .

الأستاذ عدنان :

يمكن أن نجد إنساناً مؤمناً وأن نجد إنساناً شارداً ، الشارد مع المؤمنين قد لا يألفهم وغالباً لا يألفهم ، أما المؤمن إذا كان في وضعه الاجتماعي أو الوظيفي أو التعاملي أنه لابد من تواجده مع هذا الشارد فما أظن أن ميدان الألفة من الشارد تجاه المؤمن إلا أقل بكثير من المؤمن تجاه الشارد ، لأن المؤمن يدرك بصفة أساسية تجمعه مع الآخرين أنه من خلق الله ، وأن عليه أن يؤدي الخير لخلق الله ، وبالتالي فإن هناك روابط يمكن من خلالها أن يجد الشارد ألفة من المؤمن تجاهه ولا العكس .

المؤمن يألف ويؤلف :

الدكتور راتب :

الحقيقة المؤمن أوسع من غير المؤمن بكثير ، تصور أستاذ عدنان شاب يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول له : ائذن لي بالزنا ، تصور إنسان يدخل إلى مركز شرطة يقول اسمحوا لي أن أقتل ، شيء لا يحتمل ، الصحابة ضجوا وتألموا من هذه الجرأة والوقاحة ، فقال : دعوه ، تعال يا عبد الله تأكيد لما أقول المؤمن أوسع بكثير والمؤمن يألف ويؤلف ، قال تعال يا عبد الله أتحبه لأمك ؟ تصور أمه فاحمر لونه ، قال : لا ، قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، تحبه لابنتك ؟ تحبه لأختك ؟ ذكر له القريبات

واحدة واحدة فقال هذا الشاب : والله دخلت على رسول الله وما شيء أحب إلي من الزنا وخرجت من عنده وما شيء أحب إلي من العفة .

لذلك المؤمن يألف ويؤلف كما تفضلتم قد يكون إنساناً شارداً ، هو ضيق الأفق محدود ، المؤمن أوسع منه ، تصور أستاذ عدنان ، كان أحد المغنّين يُقلق ويُزعج أبا حنيفة النعمان ـ رحمه الله تعالى ـ وكان طوال الليل يصدح بهذه الأغنية : أضاعوني وأي فتى أضاعوا ، فجأة فقد أبو حنيفة هذا الصوت ، فعلم أن به مكروهاً ، فبحث عنه في السجن ، فذهب إلى القائم على هذا الأمر ، ورجاه أن يطلق سراحه ، أطلق سراحه ، فأركبه خلفه على الدابة ، وقال : يا فتى ، هل أضعناك ؟ فقال هذا الفتى المغني عهداً لله لن أعود إلى الغناء وبكى .

أنا أقول لو أن الشباب الذين شردوا عن الله رأوا إنساناً كبيراً كأبي حنيفة يستوعبهم ، لكن نحن أحياناً نأخذ موقفاً عنيفاً من إنسان خالف مبدأنا أو خالف منهجنا ، نقيم عليه النكير ، لذلك الأنبياء يتسمون بسعة الصدر .

قال يا محمد أعطني من هذا المال فهو ليس مالك ولا مال أبيك ؟ قال لهم صدق إنه مال الله ما هذه السعة ؟ لذلك المؤمن يألف ويؤلف .

الأستاذ عدنان :

إذا أردنا أن ندرس موضوع الألفة من الناحية العلمية لا شك أن أسباباً تؤدي في ذات الإنسان تنعكس على تصرفاته تحدث بواعث الألفة ترى هذا الأمر العلمي ومسيرة الأمر العلمي في هذا ؟

أسباب الألفة :

1 – الدين :

الدكتور راتب :

الحقيقة العلماء أشاروا إلى أن للألفة أسباباً على رأسها الدين ، ذلك أن الدين العظيم وحي رب العالمين، منهج سيد المرسلين ، ما من تصرف ولا موقف يمتن العلاقة بينك وبين أخيك إلا أمرك النبي به ، وما من تصرف أو موقف يبعدك عن أخيك إلا نهاك الله عنه ، مثلاً :

((لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا))

[رواه مسلم عن أنس بن مالك]

فالمؤمن أخو المؤمن :

((المُسلِمُ أخُو المُسْلِمِ ، لا يَظْلِمُهُ ، ولا يَخْذُلُهُ ، ولا يَحْقِرُهُ ، كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ومَالُهُ وَعِرْضُهُ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

الدين أحد أكبر أسباب الألفة لأنه ينهاك عن الكذب و الغش :

هناك أحاديث كثيرة جداً لا مجال إلى تعدادها الآن ، في أي مناسبة يمكن أن يفتح الإنسان كُتب الحديث ليطلع على توجيهات القرآن الكريم والنبي الكريم في موضوع التآلف .

إذاً الإنسان المتدين لأنه ينطلق من تطبيق أمر الله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ (11))

(سورة الحجرات)

(وَلَا تَجَسَّسُوا (12))

(سورة الحجرات)

ولا تحسسوا ، يوجد آيات كثيرة جداً ، قالوا التجسس تتبع الأخبار السيئة والتحسس تتبع الأخبار الخيرة، أنت منهي عن أن تتجسس وعن أن تتحسس ، لأنها نقيصة من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

الدين أحد أكبر أسباب الألفة لأنه ينهاك عن الكذب ، ينهاك أن تغش أخاك ، ينهاك إذا دعاك ألا تلبيه ، ينهاك إذا سألك ألا تعطيه ، ينهاك إذا استعان بك ألا تعينه ، ينهاك عن كل شيء يزعجه ، يأمرك بكل شيء يريده ، يعني دعاك إلى عقد قران من دعي ولم يلبِ فقد عصا أبا القاسم . دعاك إلى وليمة يجب أن تحضر ، دعاك إلى أن تكون وسيطاً بينه وبين أخ آخر ، دعاك أن تكون حكماً بين اثنين ، إذاً الدين كأحد أكبر الأسباب التي تعين على التآلف لأنه بكل الآيات والأحاديث التي تتصل بالناحية الاجتماعية أمر المؤمنين بالصدق ، بالأمانة ، بالمحبة ، بطلب العفو أحياناً ، بالاعتذار ، ونهى عن الغش والكذب والفجور ، وعن التدابر ، وعن التقاطع ، أن تحتقر أخاك المسلم ، المنهيات مع المأمورات تشكل وداً بعيد المدى بين المؤمنين ، هذا الدين .

2 ـ القرابة :

شيئاً آخر النسب ، يقول الله عز وجل :

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ(1)وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ(2)وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(3))

(سورة البلد)

نظام الأبوة ، نظام الأمومة ، نظام القرابة ، العلاقات متينة جداً ، لذلك الله عز وجل قال :

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء الآية : 213)

لأن هذا القريب ليس هناك حاجزاً بينك وبينه ، لا يخاف منك ، والإنسان المؤمن يبدأ بأقربائه والأقربون أولى بالمعروف ، القرابة أحد أسباب الألفة ، الإنسان يحب أولاده ، يحب بناته ، يحب أصهاره ، يحب أخوته ، يحب أخواته ، يحب خالاته ، يحب عماته ، شيء طبيعي جداً ، إذاً القرابة أحد أسباب الألفة إلا في حالات نادرة جداً قد يسلك قريب منهجاً قويماً وقد يسلك قريب آخر منهجاً آخر ، يتناقض معه ، هذه قضية استثنائية ، في الأعم الأغلب الأقرباء الأرجح أنهم على شاكلة واحدة ، فالقرابة أحد أكبر عوامل الألفة والمودة بين الناس .

3 - النسب :

بقي النسب ، سبحان الله الإنسان يخطب فتاة بعد حين يكون هذا الزوج أعظم رجل في حياة هذه الفتاة، ما الذي حصل ؟

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

(سورة الروم)

المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله وحده ، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

((أكرموا النساء ، فو الله ما أكرمهن إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم ، يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

((اعلمي أيتها المرأة ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

كان إذا حمل ابنته فاطمة رضي الله عنها يضمها حينما كانت صغيرة ويشمها وقال ريحانة أشمها وعلى الله رزقها .

4 ـ المصاهرة :

قضية الألفة بين الزوجين ، بين الأولاد شيء طبيعي جداً ، المصاهرة أحد أسباب الألفة ، وكأن الصهر أخذ من الانصهار ينصهر في بيت حماه ، وكأن البنت تنشأ على بيت أهل زوجها ، هذا الود الذي بين الزوجين من خلق الله عز وجل ، طبعاً من خلق الله قطعاً :

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

(سورة الروم)

قيل مرة للنبي الكريم من أعظم الناس حقاً على الرجل ؟ قال أمه ، فلما سئل من أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال زوجها .

إني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها ، وأيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس لم ترح رائحة الجنة .

لذلك النبي صلى الله عليه وسلم حرص على الود بين الزوجين ، لكن أنا أقول دائماً وأبداً أن العلاقة بين الزوجين يحكمها حديث شريف :

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[رواه أحمد عن ابن عمر ، وإسناده حسن]

هناك قاعدة بالأمن الجنائي ، قالوا : " في كل جريمة ابحث عن المرأة " ، أنا أقيس على هذه القاعدة قاعدة أخرى أقول : في كل مشكلة نعاني منها ابحث عن المعصية ، لأنه :

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[رواه أحمد عن ابن عمر ، وإسناده حسن]

5 ـ المؤاخاة بين المؤمنين :

الآن المودة بين المؤمنين ، النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين أصحابه ، ما الذي يمنع أن تآخي إنساناً؟ تجعله أخاً لك في الله ، أن تتفقده ، أن تسأله ، أن تزوره إن غاب عنك ، أن تواسيه بمالك ، أن تواسيه بعلمك ، أن تتصل به من حين لآخر ، المؤاخاة بين المؤمنين ، والذي بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم حينما آخى بين أصحابه ، أن سيدنا سعد بن الربيع آخى بعض المهاجرين ، أحد الصحابة الكرام الذين كان لهم باع طويل في المال سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، قال له هذا نصف مالي ، بستاناً ، وبيتاً ، ودكاناً ، قال قولته الشهيرة : بارك الله لك في مالك ، لكن دُلني على السوق ، لم يثبت في تاريخ السيرة أن مهاجراً أخذ من أنصاري شيئاً ، الأنصار بأعلى درجة من السخاء والبذل والمهاجرون بأعلى درجة من العفة ، هذا مجتمع الإيمان ، مجتمع المؤمنين مجتمع رائع جداً .

فلذلك المؤاخاة بين المؤمنين بشكل أو آخر أحد أسباب الألفة بين المؤمنين ، العطاء ، البر .

6 ـ المودة و العطاء :

أستاذ عدنان الإنسان مفطور على حب النوال والكمال والجمال ، يعنينا النوال ، إنسان زوجك ابنته هذا أب لك ، إنسان منحك بيتاً وجدك مضطر لبيت ، هذا له فضل عليك ، لذلك النوال أيضاً يقيم المودة بين الناس ، بالبر يُستعبد الحر ، المودة أيضاً والعطاء أحد أسباب الألفة .

الأستاذ عدنان :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ، دكتور هذه الناحية تؤكد لنا أن الألفة ستكون في النهاية ثماراً رائعة في أفراد المجتمع ، وإذا أردنا أن نتطلع على هذه الثمار لنكون معها وبها بإذن الله ، يمكن أن نختصر قدر الإمكان في هذا الجانب .

الألفة تمتن المجتمع وتمنع اختراقه :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، الألفة تمتن المجتمع ، سأقول كلمة خطيرة ، الألفة تمتن المجتمع وتمنع اختراقه ، ما دام في ألفة هذا المجتمع لا يخرق ، أحياناً قوة العدو لا في أسلحته بل في معلومات يملكها ، بسبب عدم الألفة ، بل في معلومات يجب ألا يعرفها ، من علامة الألفة بين المسلمين أن مجتمع المسلمين ينبغي ألا يخرق :

((أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون))

[رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

والألفة أحد أسباب السعادة الاجتماعية .

الأستاذ عدنان :

بمعنى آخر أستطيع أن أقول : إن الألفة عندما تسود في مجتمع فإنها تكون عنصر من عناصر قوته ، وعدم اختراق العدو له ، وهذا من مكارم الأخلاق التي أثمرت ثماراً رائعة في حياة المؤمنين ، وهذا من فضل الله عز وجل ، وإذا تابعنا فضل الله تعالى نجده في كل شيء ، نجده فيما تتحدثون عنه من إعجازات علمية أيضاً نتابعها معكم دكتور .

الدلافين تقدم لنا مثالاً رائعاً حول التكافل بين الأم وصغارها :

الدكتور راتب :

الحيوانات العجم يعيشون حياة اجتماعية ، لذلك أحياناً الإنسان يخجل أن يرى حيواناً حريصاً على صغاره يعتني بهم ، يضحي بحياته من أجلهن ، والأب أحياناً يقصر في تربية أولاده ، الدلافين تقدم لنا مثالاً رائعاً حول التكافل بين الأم وصغارها ، تربي الأم صغارها لمواجهة كل الأخطار ، تضطر أثناء هذه التربية إلى سلوك قاس ، لا بد أحياناً الأب أو الأم أو المربي أو المعلم من إحداث خبرة مؤلمة فالدلفين أحياناً تضطر إلى اتخاذ سلوك قاسٍ غير مقصود لذاته .

هذه الدلافين اليافعة تتسابق مع سفينة ، يقترب أحد هذه الدلافين من القارب كثيراً دون أن يشعر ، من الممكن أن تجرحه مروحة القارب جرحاً عميقاً وقد تقضي عليه ، تدرك الدلفين الأم خطر هذه اللعبة ، وتأتي إلى صغيرها فوراً تدفع الصغير إلى قاع البحر ، ترسل الأم الغاضبة موجات صوت ذات ذبذبات عالية بأنفها إلى جسم الصغير ، هذه الموجات تدل على غضب الأم إضافة إلى تعلم الصغير أنه وقع في خطأ كبير شارف على الهلاك ، الصغير حزين جداً ، تبدأ الأم بالسباحة مع صغيرها بعد هذا التوبيخ الشديد ، وتمسح بزعانفها زعانف صغيرها وكأنها تربت على ظهره ، وهذا يعني المصافحة في لغة الدلافين ، هذا التصرف لتري صغيرها أنها ما زالت تحبه ، وسع علم الله كل كائن وفي كل مكان ، الآن تجربة فريدة أن حيوان يأخذ موقفاً قاسياً جداً إلى درجة أن الوليد يخاف ، لتشعره أنها ما تزال تحبه ، هذا درس للمربين إنك إن عاقبت ابنك وتألم ألماً شديداً ينبغي بعد ذلك أن تقربه منك ، أن تشعره أنك لا تبغضه ولكن أبغضت عمله ، هذا درس يحتاجه المربون من الدلافين .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (28-30) : التأمل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

المناظر الخلابة يتأمل ويسبح ربه ومن الناس من يأخذ الأمر على عجل ، لكن الذي يتأمل يجد في نفسه حاجة هامة يمكن أن يتابعها ليوحد الله ربه ، ترى التأمل في هذه الحالة كيف يكون تعريفاً لنصل من بعد ذلك إلى آفاق جديدة في التأمل ؟

من تفكر في خلق السماوات والأرض عرف الله :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ عدنان بادئ ذي بدء كتاب الله بين أيدينا إذا قرأنا في القرآن آية أمر ماذا يقتضي منا ؟ أن نأتمر ، و إذا قرأنا في القرآن آية نهي ماذا تقتضي منا ؟ أن ننتهي ، إذا قرأنا في القرآن قصة أمة سابقة ينبغي أن نتعظ ، إذا قرأنا في القرآن مشاهد يوم القيامة وصفاً لأهل الجنة ينبغي أن نطلب الجنة ، إذا قرأنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة في النار ينبغي أن نتقي النار ، إذاً ما من آية في القرآن الكريم إلا ينبغي أن يكون لنا موقف منها ، فإذا كان في القرآن الكريم ألف وثلاثمئة أية تتحدث عن الكون ، هل يعقل أن يندرج في القرآن الكريم آيات كثيرة تقترب من ألف وثلاثمئة دون أن يكون لنا موقف منها ؟ مستحيل فآيات الكون في القرآن الكريم تقتضي التفكر ، آيات الكون في القرآن الكريم رؤوس موضوعات للتفكر، منهج للتفكر ، لأن الله عز وجل جعل الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، لأن الإنسان إذا تفكر في خلق السماوات والأرض عرف الله .

ارتباط التأمل في خلق السماوات و الأرض بمكارم الأخلاق :

مرة ثانية قد يسأل سائل ما علاقة التفكر والتأمل بمكارم الأخلاق ؟ الإنسان حينما يعرف الله يبحث عن منهجه ، منهج الله أخلاقي ، القرآن الكريم أمر بالصدق ، والاستقامة ، والأمانة ، والعفة ، وضبط اللسان ، وأداء الحقوق ، أنت حينما تعرف الله دون أن تشعر تبحث عن طريقة تتقرب به إليها ، وطريقته منهجه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكما أن التوحيد مرتبط أشد الارتباط بمكارم الأخلاق، التأمل في خلق السماوات والأرض مرتبط أشد الارتباط بمكارم الأخلاق .

تعريف التأمل :

التأمل في الحقيقة تدقيق النظر في الكائنات ، بفرض الاتعاظ (التذكر)، أو هو استعمال الفكر والعقل ، طبعاً العقل والفكر أحياناً اسمان لمسمى واحد ، وأحياناً العقل في القلب :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الحج الآية : 179)

لكن بشكل أو بآخر هذا الجهاز الإدراكي الذي أودعه الله فينا ، هذا الجهاز ينبغي أن نستعمله لما خلق له ، معظم الناس يستخدمون عقولهم لغير ما خلقت لها ، لتحقيق مصالحهم فقط ، للإيقاع بين الناس ، للتآمر على الناس ، أما هذا العقل الذي هو أعظم عطاء على الإطلاق ، ينبغي أن يستخدم لما خلق له ، هو خلق ليتفكر في خلق السماوات والأرض وليزداد معرفة ، وليزداد انضباطاً ، وليزداد إحساناً ، إذاً التفكر هو النظر في ملكوت السماوات والأرض ، بغرض المعرفة والموعظة والانطلاق إلى طاعة الله أو هو استخدام العقل لما خلق له ، تماماً كما لو اقتنيت آلة طبع ملونة هذه الآلة صنعت كي تستخدمها في تصميم الأغلفة ، التقاويم ، البطاقات ، أما حينما تستخدم هذه الآلة الغالية جداً ، الثمينة جداً ، النافعة جداً في تزوير العملة نقول لقد استخدمتها لغير ما صنعت له ، لأوردتك السجن ، والإنسان أحياناً يفكر:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19)

(سورة المدثر)

أحياناً يستخدم عقله لغير ما خلق له .

العقل أعظم عطاء من الله عز وجل ينبغي أن يُستخدم لما خلق له :

مرة ثانية أقول قد يكون هذا العقل في ضلال شديد لأنه لم يستنر بوحي الله عز وجل ، كيف أن العين تحتاج إلى ضوء يتوسط بينها وبين المرئيات كذلك العقل يحتاج إلى وحي الذي عجز عن إدراكه يخبره

الوحي به ، إذاً التأمل في خلق السماوات و الأرض هو جزء أساسي من أخلاقيات الإنسان ، ولكن ورد في بعض الأحاديث :

((أمرني ربي بتسع خشية الله في السر والعلانية ، كلمة العدل في الغضب والرضا ، القصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأن أعطي من حرمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرة))

[القرطبي في تفسيره عن أبي هريرة]

موضوع هذا اللقاء في أن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرة .

الأستاذ عدنان :

دكتور أحياناً يمكن أن تكون موضوعات التأمل في الطبيعة ولا تتعداها ، ولكن في بعض الأحيان ينتقل الإنسان وهو الذي استعمل عقله وفطرته السليمة إلى أن يقول يا رب ما أجمل صنيعك ، إذاً ينتقل من شيء إلى شيء من خلال التأمل والتفكر ، بالتالي تختلف أنواع التأملات .

لمعرفة الله عز وجل طرائق ثلاث :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان ، الله عز وجل لا تدركه الأبصار ، يعني مستحيل وألف ألف مستحيل أن ندركه بحواسنا، ولكن العقول تصل إليه ولا تحيط به ، لذلك الله عز وجل جعل لمعرفته طرائق ثلاث خلقه ، وأفعاله ، وكلامه .

1 – التفكر في مخلوقاته :

الآن أمرنا أن نتفكر في مخلوقاته :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

أنا حينما أتفكر في خلق السماوات والأرض أرقى .

البعوضة أهون مخلوق على الله من آياته الدالة على عظمته :

بعوضة وردت في القرآن الكريم ، أنا لا أصدق أن هناك مخلوقاً أهون على الله من بعوضة ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم أكد هذا المعنى :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[رواه الترمذي عن سهل بن سعد]

هذه البعوضة من يصدق أنه بعد اكتشاف المجهر الإلكتروني الذي يكبّر الشيء مئات ألوف المرات تبين بعد وضعها تحت المجهر أن في رأسها مئة عين ، وفي فمها ثمانية وأربعون سناً ، و لها ثلاثة قلوب ، قلب مركزي وقلب لكل جناح ، وفي كل قلب أذينان وبطينان ودسامان ، جهاز لا تملكه الطائرات جهاز استقبال حراري ، ترى الأشياء لا بأشكالها و لا بألوانها و لا بأحجامها و لكن ترى الأشياء بحرارتها فقط ، طفل نائم حرارته (37)لا ترى غيره في الغرفة في الليل ، حساسية هذا الجهاز واحد على ألف من الدرجة المئوية ، شيء آخر عندها جهاز تحليل دم ما كل دم يناسبها ينام أخوان على سرير واحد يستيقظ الأول وقد ملئ بلسع البعوض والثاني لا شيء فيه ، إذاً معها جهاز تحليل دم فإذا ناسبها الدم وقعت على صاحب هذا الدم ، لكن لزوجة الدم لا تسمح له أن يمر عبر خرطومها الدقيق معها جهاز تمييع للدم ، تميع الدم ، ولئلا يقتلها الإنسان وهي تلدغه معها جهاز تخدير تخدره أما حينما يحاول قتلها تكون في الجو يكون انتهى مفعول التخدير يتوهمها على يده وهي في الغرفة تضحك عليه.

وعندها أجهزة استقبال حرارية ، و جهاز تحليل دم ، وجهاز تمييع دم ، وجهاز تخدير ، و في خرطومها ست سكاكين ، أربع سكاكين لإحداث جرح مربع وسكينان تلتئمان على شكل أنبوب تمتص به الدم :

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة الآية : 26)

للبعوضة محاجم إذا وقفت على سطح أملس ومخالب إذا وقفت على سطح خشن :

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة الآية : 26)

الآيات القرآنية في كتاب الله عز وجل رؤوس موضوعات للتفكر :

الآيات القرآنية في كتاب الله عز وجل والتي تزيد عن ألف وثلاثمئة آية هي رؤوس موضوعات للتفكر، فإذا جعلنا من هذه الموضوعات منهجاً لنا للتفكر عرفنا الله ، وإذا عرفنا الله أطعناه وسعدنا بقربه ، في الدنيا والآخرة .

إذاً النوع الأول من التفكر في خلق الله في السماوات ، في الأرض ، في المجرات ، في الجبال ، في الأنهار ، في الأسماك ، في الأطيار ، في النباتات ، في الحيوان ، في جسم الإنسان ، في حواسه ، في شعره .

شعر الإنسان يقترب من ثلاثمئة ألف شعرة وفي الشَّعر ، جعل لكل شعرة وريداً ، وشرياناً ، وعصباً ، وعضلة ، وغدة صبغية ، وغدة دهنية .

في شبكية العين مئة وثلاثين مليون مخروط وعصية ، أحدث آلة تصوير رقمية احترافية بالميلمتر مربع فيها عشرة آلاف مستقبل ضوئي ، بينما في شبكية العين بالميلمتر منها يوجد مئة مليون مستقبل ضوئي من أجل دقة الرؤية ، لذلك أنت بالعين تفرق بين ثمانية ملايين لون ولو درج أحد الألوان ثمانمئة ألف درجة لفرقت العين بين درجتين .

التأمل أكبر عبادة على الإطلاق :

لذلك التأمل أكبر عبادة على الإطلاق لذلك قال تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ)

(سورة آل عمران)

ورد في بعض الأحاديث : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

ولو تفكرنا في عظمة الله ما عصى أحد ربه ، هذا الباب الأول التأمل في مخلوقاته .

2 – التفكر في أفعاله :

الآن له أفعال ، هناك زلازل ، هناك براكين ، هناك هلاك أمم ، هناك أمطار غزيرة ، هناك شح في المياه في تقنين ، أمرنا الله عز وجل أن ننظر في أفعاله :

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هؤلاء الذين وقفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم افتدوه بأرواحهم ، وأيدوه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، هم في لوحة الشرف ، بينما الذين وقفوا ضده وحاربوه هم في مزبلة التاريخ .

كل إنسان مأمور بالتفكر في خلق السماوات و الأرض و التفكر بأفعال الله تعالى :

لذلك :

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

فكما أنني مأمور أن أتفكر في خلق السماوات والأرض أنا مأمور أيضاً أن أتفكر في أفعال الله عز وجل ، ولكن لابد من تَحَفظ ينبغي أن أبدأ بالكون ، أن أبدأ بمخلوقاته وأثني بكلامه كي يعطيني التأمل في خلقه وتدبر كلامه رؤية خاصة لفهم أفعاله ، لأن عدل الله لا يدرك بالعقل وحده إلا بحالة مستحيلة أن يكون لك علم كعلم الله .

التفكر في خلق الله عز وجل يكشف للإنسان العظات و العبر :

الباب الثاني أن أتفكر في خلق السماوات والأرض بل في أفعال الله عز وجل :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117))

(سورة هود)

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

من لطائف التفسير أن هناك آيتين الأولى :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36))

(سورة النحل)

فانظروا بالفاء ، والآية الثانية :

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

يوجد ثم ، الفاء تفيد الترتيب على التعقيب ، وثم الترتيب على التراخي ، أحياناً يرتكب الإنسان معصية كبيرة أو جريمة ولا يعاقب عليها في القريب العاجل هذه مغطاة بقوله تعالى :

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

أحياناً يحلف الإنسان يميناً غموساً كاذبة ، ما إن ينتهي من حلف اليمين إلا يقع مشلولاً هذه :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36))

(سورة النحل)

أنا كما أنني مأمور أن أتفكر في خلق السماوات والأرض ، مأمور أن أنظر في أفعال الله وأن أستنبط منها العظات والعبر .

تحقق الوعد والوعيد أحد أسباب الإيمان بالقرآن الكريم :

أستاذ عدنان القرآن الكريم فيه وعد وفيه وعيد ، أحد أسباب الإيمان بالقرآن الكريم تحقق الوعد والوعيد مثلاً :

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4)بِنَصْرِ اللَّهِ (5))

(سورة الروم)

حينما تحقق وعد الله للروم بانتصارهم على الفرس هذا التحقق دليل أن هذا الكلام كلام الله عز وجل ، أحد أكبر أسباب أن هذا القرآن كلام الله تحقق الوعد والوعيد ، الوعد في الخير والوعيد في العقاب .

3 – التفكر في كلامه :

باب آخر من أبواب التأمل هو تدبر القرآن الكريم ، القرآن الكريم وصف الله عباده المؤمنين أنهم يتلونه حق تلاوته ، ومن أدق ما قاله المفسرون في حق تلاوته : أن تقرأه قراءة صحيحة وفق قواعد اللغة العربية ، ثم أن تقرأه قراءة مجودة وفق أحكام التجويد ، ثم أن تفهمه ، ثم أن تتدبره ، ما الفرق بين فهمه وبين تدبره ؟ الفهم أن تفهم المعاني وقال بعض علماء القرآن : تؤخذ ألفاظه من حفاظه وتؤخذ معانيه ممن يعانيه .

تدبر آيات القرآن الكريم لفهم معانيها و تطبيقها :

أما الشيء الذي أريد أن أقوله التدبر أن تسأل نفسك دائماً أين أنت من هذه الآية ؟ هل أنت مطبق لها ؟ هل تشملك ؟ هل تعنيك ؟ حينما يتساءل الإنسان أين أنا من هذه الآية ؟ هذا هو التدبر ، مثلاً :

(خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا (102))

(سورة التوبة)

هل أنا منهم ؟

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت الآية : 20)

هل أنا من هؤلاء ؟ آيات كثيرة تصف حالات المؤمنين أنا حينما أتدبر القرآن أسأل نفسي دائماً أين أنا من هذه الآيات ؟

التفكر في خلق السماوات والأرض ، والنظر في أفعال الله ، والتدبر في القرآن الكريم ولكن قراءة صحيحة ، وقراءة مجودة ، وفهم لمعاني الكتاب ، ثم التدبر ، ثم التطبيق ، أنا حينما أطبق أكون قد تلوت القرآن حق تلاوته ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام :

((ورُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

و :

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

[أخرجه الترمذي عن صهيب]

هذه بعض أنواع التأمل .

الأستاذ عدنان :

دكتور تعدد هذه الأنواع يعني من طرف آخر تعدد المظاهر في التأمل فما هي المظاهر ؟

مظاهر التأمل :

1 ـ التأمل في الكون يعرفني بالله :

الدكتور راتب :

الحقيقة التأمل أولاً يدفع الناس إلى ربهم ، هي أزمة معرفة ، وإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، أنا حينما أعرف الله لأنني بالأصل أنا مجبول ومفطور على حبّ وجودي ، وعلى حبّ سلامة وجودي ، وعلى حبّ كمال وجودي ، وعلى حبّ استمرار وجودي ، فانا حينما أعرف الحقيقة أتمسك بها ، الأزمة أزمة علم فقط بل إن أهل النار :

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ {10})

(سورة الملك)

أنا حينما أتأمل وأتعرف إلى الله عز وجل عندئذ أتجه باتجاه تطبيق شرع الله ، هذه واحدة ، إذاً التأمل في الكون يعرفني بالله .

2 ـ التأمل يعرفني بمنهج الله :

التدبر بالقرآن الكريم يعرفني بمنهج الله ، هذه الثانية .

3 ـ التأمل يُمكنني من معرفة الآمر :

الثالثة خير معين على طاعة الله أن أعرف الآمر ، إنني إن عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر ، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر ، إذاً خير معين على طاعة الله ، بل إن التأمل قيمة علمية عالية ، الإنسان أودع الله فيه قوة إدراكية وما لم يلبِ الحاجة العليا فيه هبط عن مستوى إنسانيته ، أنا حينما أتفكر في خلق السماوات والأرض أؤكد إنسانيتي ، وأؤكد هذه القدرة الإدراكية التي أودعها الله في .

4 ـ انقلاب الإيمان من إيمان فطري تصديقي إلى إيمان تحقيقي :

شيء آخر ينقلب الإيمان من إيمان فطري تصديقي قد يكون هشاً لا يقاوم ضغطاً أو إغراءً إلى إيمان تحقيقي ، فرق بين الإيمان التصديقي والإيمان التحقيقي ، الإيمان التحقيقي يجعل الإنسان عابداً ، و لعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد . ثم إن التفكر في خلق السماوات والأرض دليل رجاحة العقل ، طبعاً أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً .

التأمل في خلق السماوات والأرض فوائده لا تعد و لا تحصى :

إذاً نحن أمام فوائد لا تعد ولا تحصى من التأمل في خلق السماوات والأرض ، ومرة ثانية هناك ارتباط وشيج ودقيق ومتين بين التفكر في خلق السماوات والأرض وبين مكارم الأخلاق ، أنا حينما أتعرف على الله أتواضع ، حينما أتعرف إلى الله لا أتأل على الله ، لا أستعلي على عباد الله ، لا أسخر الناس لخدمتي ، لا أبتز أموالهم ، أخاف من الله لا أبني مجدي على أنقاض الآخرين ، لا أبني حياتي على موتهم ، لا أبني أمني على خوفهم ، لا أبني عزي على ذلهم ، هذا كله من نتائج الإيمان ولا تصح الحياة إلا بالإيمان ، لا يستقيم البشر إلا بالإيمان ، أما إذا شردوا عن الله عز وجل انظر إلى حياتهم صراعات وحروب ، يعني حماقات البشر حينما يدفعون ثلثي دخلهم لقتل البشر .

الأستاذ عدنان :

دكتور الأشياء الداعية للتأمل موجودة أمام الناس جميعاً ، لماذا فلان يتأمل فيصل إلى الله عز وجل

وفلان يتأمل ثم يشرد وكأن شيئاً لم يكن ؟

من اتخذ قراراً بمعرفة الله عز وجل كل شيء في الكون يدله عليه :

الدكتور راتب :

قضية اتخاذ قرار بمعرفة الله ، إن اتخذت هذا القرار في أعماقي كل شيء أمامي يدلني على الله ، وإن لم أتخذ هذا القرار لو كنت في محطة ناسا الفضائية ، لو كنت في مجهر إلكتروني لو وضع تحت يدي حقائق مذهلة في علم الأحياء وفي علم المجرات لا أؤمن لأن الإيمان يحتاج إلى قرار سابق ، تماماً آلة تصوير غالية جداً احترافية ثمنها مليون من دون فيلم لا شيء ، اطلاع على حقائق لكن لا يوجد شيء تنطبع عليه ، إذا في طلب للحقيقة كل هذه الحقائق ترسم على الفيلم عندئذ يرقى الإنسان .

الأستاذ عدنان :

هل توالي التأمل يدعو إن لم يكن يدعُ مبدئياً يدعُ في النهاية إلى أن يكون الإنسان مؤمناً بالله تعالى ؟

دور الدعاة لا أن يجبروا من حولهم على طاعة الله بل يقنعوهم بطاعة الله :

الدكتور راتب :

هذا قاله الإمام الغزالي : أردنا العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله . الإنسان منطقي ويحب ذاته ، فإذا أقنعته أن مصلحته في طاعة الله يطيع الله ، لذلك دور الدعاة الصادقين لا أن يجبروا من حولهم على طاعة الله ، أن يقنعوهم بطاعة الله .

((علموا ، ولا تعنفوا))

[الجامع الصغير بسند ضعيف عن أبي هريرة]

الإجبار لا قيمة له ، القمع لا يفعل شيئاً ، البطولة أن تقنعني لا أن تقمعني ، البطولة أن تثير حماستي لهذا لموضوع لا أن تجبرني على أن أفعله ، لأن الله عز وجل قال :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة الآية : 256)

فالبطولة بالإقناع .

الأستاذ عدنان :

في بعض الأحيان يمكن أن يكون التأمل في منعكس على النفس وذات الإنسان محلقاً به ، وفي بعض الأحيان لا يكون ذلك ، قد يكون هذا الرفض الداخلي من رفض في وجود الله تعالى ، وقد يكون هذا التأمل في مزيد من الرفض ترى هذه الناحية التأمل في هذا الوضع ماذا يفيد ؟

الإنسان مخير لا مسير :

الدكتور راتب :

الإنسان مخير :

(فاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (17))

(سورة فصلت)

الله عز وجل كل شيء يدل عليه ، الإنسان إذا اختار الشهوة والمصلحة والعلو في الأرض لا يرى شيئاً، حبك الشيء يعمي ويصم .

الأستاذ عدنان :

أستطيع أن أقول : إن التأمل أيضاً بحاجة إلى أن يكون الإنسان متبعاً لفطرته السليمة التي تدعوه للإيمان ، وبعد ذلك التأمل ينميها وينمي طريق وصوله إلى الله عز وجل .

الدكتور راتب :

تثقل المعلومات الإيمانية بالتفكر .

الأستاذ عدنان :

في هذا الأمر أيضاً ومن خلال التأمل نتابع معكم الموضوع العلمي ، ومن خلال التأمل نرجو الله عز وجل أن يزيدنا الله إيماناً ، فمن جملة أنواع التأمل كما بينتم التفكر في خلق السماوات والأرض .

الموضوع العلمي :

طيور البحر (الكالاموس):

الدكتور راتب :

في سواحل أوربا الشمالية طيور البحر المسماة الكالاموس ، هذه الطيور تبني أعشاشها هنا في الصخور العالية على طول هذه السواحل ، عند مجيء شهر آب تقوم صغار الطيور بأول تجربة طيران لها ، وتحاول الطيران باتجاه البحر ، وهذه تجربة شاقة بالنسبة لها ، فالبحر بعيد عن الصخور ما يقارب كيلو متراً والعش عال جداً ، وأخيراً يلقي أول الصغار نفسه من العش إلى الجو باتجاه الأسفل ، يحلق نحو البحر تحت إشراف الطيور الكبيرة وبهذا تتم أول تجربة طيران بنجاح ، ثم تليه بقية الصغار.

مع أن هذا الطيران خطير جداً في البحر ولكن لا بد لها من التدرب على الطيران لتأمين حياة الصغار، فالثعالب المتربصة بها موجودة في الساحل .

الله تعالى خلق كل كائن وألهمه التضحية لحماية صغيره :

قضية التدريب قضية أرادها الله في كل مخلوقاته ، وإن أطول أعمار الطفولة هي طفولة الإنسان ليزداد تدريباً وتجربة من والديه ، في إحدى تجارب التدريب على الطيران لم يصل هذا الصغير إلى البحر واضطر للنزول الإجباري في الساحل ولكن أمه لم تتركه وحده كما ترون ، تحاول الأم بكل قوتها أن توجه الصغير بسرعة نحو البحر ، لأن الثعالب قد رأتها ، تدفع الأم الصغير إلى البحر باستمرار ، ومن جهة أخرى ترفرف بجناحيها لتشد انتباه الثعالب إليها ، توشك الثعالب أن تصل إلى الصغير ، تقوم الأم بتضحية مثالية نادرة لا شبيه لها لتكسب الصغير المزيد من الوقت وتنقذه فتلقي بنفسها أمام الثعالب ، لتفتدي صغيرها بحياتها لعلها تستطيع إنقاذه ، الصغير الذي لا علم له بما جرى من الحوادث خلفه ينجح في الوصول إلى البحر ، الطائر الصغير ينادي أمه فبقاؤه في الحياة وحده مستحيل ، وتجيب لندائه الطيور الأخرى وتقبل بين صغارها ، هناك تفسير واحد فقط لقيام الحيوان بتصرف عاطفي وإيثار بهذا الشكل بل وتضحية بحياته لأجل صغاره ، الله تعالى خلق هذا الكائن وألهمه التضحية التي قام بها لحماية الصغير .

هذه من آيات الله الدالة على عظمة الله ، أم تضحي بحياتها من أجل صغيرها ، فإذا وجدت إنساناً يقصر في العناية بأولاده ماذا نقول عنه ؟

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

لكن الذين شردوا عن الله :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (29-30) : الأسوة الحسنة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

دكتور كثيراً ما نسمع كلمة القدوة والأسوة ، فلان يقول : إن فلان هو قدوة لي وعلى العكس من هذا يمكن أن يكون فلان من الناس قدوة لكثير من الآخرين ، وهذا ما نجده في ميدان الافتخار ، أي في الميدان الإيجابي بحيث أن يكون الإنسان قدوة لغيره ، أي يقتدي بالآخرين الجيدين ، في الجانب السلبي هل يمكن أن يكون هناك قدوة ؟ هذا يقودنا إلى تعريف القدوة ما هي ؟

أي إنسان موقعه الاجتماعي موقع توجيهي عليه أن يربط قوله بعمله :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أستاذ عدنان : بادئ ذي بدء هناك مقولة يمكن أن تكون مدخلاً لهذا الموضوع قيل : العدل حسن لكن في الأمراء أحسن ، والورع حسن لكن في العلماء أحسن ، والسخاء حسن لكن في الأغنياء أحسن ، والصبر حسن لكن في الفقراء أحسن ، والعفاف حسن لكن في الشباب أحسن ، والحياء حسن لكن في النساء أحسن .

تمهيداً لموضوعنا القدوة والأسوة يحتاجه الآباء لأنهم قدوة ، يحتاجه المعلمون ، يحتاجه المربون ، يحتاجه الدعاة إلى الله ، أي إنسان موقعه الاجتماعي موقع توجيهي يحتاج هذا الموضوع ، فلذلك الفضائل لا تثبت في المجتمع في الأفكار ، في الكتب ، نبي واحد لم يجد الناس مسافة إطلاقاً بين أقواله وأعماله أفضل للبشرية من آلاف الكتب ، لأن هذا النبي قدّم الحقيقة مع البرهان عليها ، الحقيقة يمكن أن نرفضها إن لم يكن لها مرتكز في الواقع أما حينما نجد موقفاً كاملاً ينطلق من فهم صحيح ، هذا الفهم الصحيح تجسد في هذا الموقف الكامل ، إذاً قضية الدعوة إلى الله ، قضية الإرشاد ، قضية التعليم، قضية القيادة ، كل إنسان له مركز قيادي ، مركز توجيهي ، كل إنسان أناط الله به أناساً آخرين هذا

اللقاء الطيب وهذا الموضوع المثير موجه إليه .

أفضل إنسان على الإطلاق من دعا إلى الله و عمل صالحاً :

بادئ ذي بدء الفضائل تحتاج إلى مثل ، سيدنا عمر مثلاً كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته ، وقال : إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ، إن رأوكم وقعتم وقعوا ، و ايم الله لا أوتين بواحد وقع في ما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني .
لذلك أنا أقول ما من عمل يتذبذب بين أن يكون أقدس عمل يرقى إلى صنعة الأنبياء ، و بين أن يكون أتفه عمل لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة كالدعوة إلى الله ، وأن تُنصّب نفسك موجهاً للآخرين ، تكون أقدس عمل وترقى إلى صنعة الأنبياء إذا بذلت من أجلها الغالي والرخيص والنفس والنفيس وكنت قدوة فيها ، الدليل قال تعالى :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ {33})

(سورة فصلت)

أي لن تجد في خلق الله إنساناً أفضل عند الله ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ، لأن هذه النفس الإنسانية من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول : يا علي:

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

((خير له مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني عن أبي رافع]

من استقام على أمر الله كان قدوة لغيره :

إذاً حينما يستطيع الإنسان أن يحدث تأثيراً بالآخرين إيجابياً يحملهم على طاعة الله ، يحملهم على الانضباط الأخلاقي ، يحملهم على أن يكونوا صادقين ، أمناء ، أعفة ، هذا عمل عند الله كبير ، لذلك ما من عمل يتذبذب بين أن يكون أقدس عمل ، و بين أن يكون أتفه عمل كالدعوة إلى الله ، أو إلى إرشاد عام لأناس ينضوون تحت لواء إنسان ، هذه النقطة الدقيقة تعني أن هناك دعوة إلى الله خالصة أساسها أن تكون قدوة ، أن تكون أسوة ، أن تكون مثلاً ، لأن الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم ، والمسافة بين العين والأذن أربعة أصابع ، فبين أن تقول رأيت فلان صادقاً وبين أن تقول حدثنا عن الصدق ، لذلك لماذا تأتي القصة في التربية والتعليم كأداة فعالة جداً في التأثير ؟ لأن القصة حقيقة مع البرهان عليها ،

الأفكار لا تعيش في ثنيات الكتب ، لا تعيش في المحاضرات ، لا تعيش في الكلمات ، تعيش في السلوك ، لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((استقيموا يستقم بكم))

[الطبراني في المعاجم الثلاثة بسند صحيح عن سمرة]

فالإنسان حينما يستقيم يكون قدوة ، لو بدأنا بالأب والأم لمجرد أن يكشف الابن أن أباه لا يتكلم الحقيقة تنشأ مشكلة كبيرة جداً ، وكأن الأب حينما قال لابنه قل له لست في البيت علمه أن يخالف الحقيقة في كلامه ، لذلك أنا أقول دائماً نحن بحاجة إلى مسلم متحرك ، كيف أن الكون قرآن صامت ، كيف أن الكون قرآن صامت والقرآن كون ناطق والنبي قرآن يمشي .

وقالت بحقه أم المؤمنين السيدة عائشة :

((كان خلقه القرآن))

[مسلم عن عائشة]

على كل داعية أن يحرص على ألا يرى المدعو في سلوكه ما يخالف كلامه :

أنا أرى أن الداعية ، المعلم ، الموجه ، المرشد ، أي منصب قيادي توجيهي ، قبل أن يتكلم احرص على أل تجد في كلام هذا الإنسان مسافة إطلاقاً ، لذلك مرة أحد الدعاة نصح أخوانه الدعاة قال : احرص على أن يراك المدعو وفق ما تدعوه ، واحذر أشد الحذر على أن يراك الذي تدعوه على خلاف ما تدعوه ، لذلك قضية القدوة الحسنة مهمة جداً .

من هنا أقول القدوة قبل الدعوة ، قبل أن تنطق بكلمة إن كنت أباً ، قبل أن تنطق بكلمة إن كنت معلماً ، قبل أن تنطق بكلمة إن كنت داعية ، احرص على ألا يرى المدعو في سلوكك ما يخالف كلامك ، لذلك بعض العلماء قال : من دُعي إلى الله بمضمون ضحل ، أو بمضمون غير متماسك ، أو بمضمون صحيح لكن عرضه لم يكن بأسلوب علمي ، أو لم يكن بأسلوب تربوي ، أو وجدوا عمقاً في الدعوة لكن لم يجدوا مصداقية في الداعية ، قال : هذا المدعو بهذه الطريقة لا يعدّ مُبلغَاً عند الله ، لأنه في أعمق كيان الإنسان شعور أن دين الله عظيم ، هذا ليس دين الله ، بهذا التفكك ، بهذا الضحالة ، بهذا الأسلوب الذي لا يرضي المستمع .

أعظم عمل للدعاة أن يكونوا قدوة صالحة لأتباعهم :

لذلك من دعا إلى الله بمضمون سطحي غير متماسك ، من دعا إلى الله بأسلوب غير علمي ، بنى دعوته على المنامات والشطحات والكرامات ، ومن دعا إلى الله بأسلوب غير تربوي ، أو دعا على الله

بأسلوب عميق لكن المدعو اكتشف الذي يتكلم ليس صادقاً فيما يقول عندئذ هذا الإنسان لا يُعدّ عند الله مبلغاً ، ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذه الطريقة .
لذلك أعظم ما يكون عند الدعاة أن يكونوا قدوة صالحة لأتباعهم ، وحينما يكون الإنسان قدوة صالحة الدعوة تسري بشكل عجيب ، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً ، فإذا وجدوا إنساناً لا يلتزم بما يقول يتفلت الناس من منهج الله بسذاجة وبجهل ، لأنهم ربطوا الدين بإنسان ، الدين فوق البشر .
لذلك أنا أقول يجب أن يعتمد كل من يتكلم ، كل من يوجه ، كل من يرشد أباً كان أو داعية أو خطيباً أو من يحتل منصباً قيادياً ، مدير مستشفى إذا أراد من الأطباء أن يلتزموا بالقواعد الصحيحة ينبغي أن يسبقهم إليها .

الكلمة لن تجدي نفعاً إلا إذا دعمها الواقع :

لذلك هناك علم القيادة ، هناك علم الإدارة ، هذا علم قائم بذاته ما لم يكن القائد ، المدير ، صاحب المؤسسة ، المشرف ، الداعية ، الأب ، المعلم ، قدوة لمن يدعوهم لا جدوى من هذه الدعوة ، لذلك أستاذ عدنان الكلمة جاء بها الأنبياء ، الأنبياء بماذا جاؤوا ؟ لم يأتوا بالصواريخ ، ولا حاملات الطائرات ، ولا بالصواريخ ، العبرة للقارات ، ولم يأتوا بالفضائيات ولا بالكومبيوتر أتوا بالكلمة لكنها كانت صادقة ، فلما أصبحت الممارسة على عكس المنطوق كفر الناس بالكلمة ، كفر الناس بالكلمة .
لذلك الآن لا يمكن أن تجدي الكلمة إلا إذا دعمها الواقع ، إلا إذا جاء الواقع مطابقاً لها ، إلا إذا ارتكزت على مرتكز حسي ، العالم كله لا يرى الإسلام إلا من خلال المسلمين ، أما حينما يرى مجتمعاً إسلامياً قوياً طاهراً صادقاً لا يخترق يعلو الإسلام في نظر الآخرين ، أنا أقول دائماً هذا الذي يقف في خندق معاد للدين هذا لن يفهم الدين الإسلامي من كتبه ، ومراجعه ، ولا من تفسير القرطبي ، ولا من فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، هذا لا يفهم الإسلام إلا من المسلمين الذين أمامهم .

المسلم سفير الإسلام فأمانته دعوة و صدقة دعوة و عفته دعوة :

لذلك أنا أرى أن العالم الغربي لو رأى الجاليات الإسلامية كما ينبغي لكان موقفه من الإسلام غير هذا المسلم ، لكن المسلم لا يظن أنه سفير هذا الدين العظيم ، هو في الحقيقة سفير هذا الدين ، من هنا أنطلق من شيء آخر اسمه الدعوة الصامتة ، يعني يمكن أن تكون أكبر داعية وأنت صامت ، لأن أمانتك دعوة ، ولأن صدقك دعوة ، ولأن عفتك دعوة ، ولأن إنصافك دعوة ، مرة جاءتني رسالة بالبريد الإلكتروني ، إمام سكن في لندن ، ثم نُقل إلى ظاهر لندن ، اضطر أن يركب مركبة كل يوم مع السائق

نفسه ، فمرة صعد المركبة ، وأعطى السائق ورقة نقدية كبيرة ، ردّ له السائق التتمة ، عَدّها ، فإذا هي تزيد عشرين بنساً على ما يستحق ، فقال هذا الإمام في نفسه : سأردّ هذه الزيادة للسائق ، لكن بعد أن جلس جاءه خاطر شيطاني ، قال : إنها شركة عملاقة ، ودخلها فلكي ، والمبلغ يسير جداً ، وأنا في أمسّ الحاجة إليه ، فلا عليّ أن آخذه ، لكن الذي حصل أنه قبل أن ينزل دون أن يشعر مدّ يده إلى جيبه، وأعطى السائق العشرين بنساً ، فابتسم السائق ، وقال له : ألست إمام هذا المسجد ؟ قال : بلى ، قال : والله حدثت نفسي قبل يومين أن أزورك في المسجد لأتعبد الله عندك ، ولكنني أردت أن أمتحنك قبل أن آتي إليك ، يروي كاتب القصة وهو الإمام نفسه أنه وقع مغشياً عليه ، لأنه تصور عظم الجريمة التي كاد يقترفها لو لم يدفع للسائق هذا المبلغ ، فلما صحا من غفوته قال : يا رب ، كدت أبيع الإسلام كله بعشرين بنساً .

القدوة قبل الدعوة :

القدوة قبل الدعوة ، كل الكلام والفصاحة والأدلة والتحليلات والبراعة في إقناع الناس تسقط في الوحل أمام عمل سيء يرتكبه هذا الداعية ، هذا الكلام يحتاجه الآباء ، امرأة قالت لابنها في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام : تعال هاك (لأعطيك)فقال عليه الصلاة والسلام : ماذا أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرة ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : أو إن لم تفعلي ذلك لعدت عليك كذبة .

شيء دقيق جداً لذلك بعض علماء الحديث جاء من المدينة إلى البصرة يتلقى حديثاً عن رجل رآه قد رفع ثوبه ليوهم الفرس أن في ثوبه علفاً ، فلما اقترب منه لم يجد شيئاً في الثوب ، فلم يكلمه وعاد أدراجه إلى المدينة ، قال : هذا الذي يكذب على فرسه لا يمكن أن يُنقل عنه كلام عن رسول الله ، القدوة قبل الدعوة .

الأستاذ عدنان :

دكتور الآن بالنسبة لكم تعدون مثلاً لخطبة الجمعة ، قرع الباب بيت يريد أن يزوركم أنتم مشغولون .

تناقض الكذب و الخيانة مع الإيمان :

الدكتور راتب :

أنا أقول له أنا لا أستطيع أن أستقبلك في هذا الوقت ، هذا الوقت ملك عشرة آلاف إنسان ينتظرون الخطبة فاعذرني .

الأستاذ عدنان :

دكتور في الحياة الاجتماعية أحياناً تحدث أشياء من مثل هذا ، يرى الإنسان نفسه متقلقلاً بين أن يكون صريحاً وبالتالي قدوة حسنة لابنه الذي سيفتح الباب ، وبين أن يتقلق بالكلام و يقول اصرفه بالأسلوب المناسب .

الدكتور راتب :

قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

الآن في علم طباعة ، هناك مؤمن عصبي المزاج مقبول ، هناك مؤمن هادئ مقبول ، هناك مؤمن يعتني جداً بثيابه مقبول ، هناك مؤمن أقل اعتناء بثيابه مقبول ، هناك مؤمن يحب أن يبقى في البيت مقبول ، هناك مؤمن يحب أن يسافر كثيراً .

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

فإذا كذب أو خان ليس مؤمناً ، لأن الكذب والخيانة يتناقضان مع الإيمان ، أستاذ عدنان هناك شيئان متعاكسان كالأبيض والأسود يجتمعان في بعض البيوت الشامية خط أبيض وخط أسود من الحجارة ، لكن الضوء والظلام يتناقضان وجود أحدهما ينقض الآخر ، فالضوء ليس معه ظلام والظلام ليس معه ضوء ، أنا أعتقد أن الكذب والخيانة يتناقضان مع الإيمان .

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

أعظم ما في حياة المؤمن أنه صادق مع ربه و مع نفسه و مع الناس :

لذلك نحن حينما نعتمد الصدق ، فإن الرجل ما يزال يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي للفجور والفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً .

((إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلي البرِّ ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنةِ ، وإن الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتى يُكتَب [عند الله]صِدِّيقًا ، وإن الكذبَ يهدي إلى الفُجُور ، وَإنَّ الفُجُورَ يهدي إلى النار ، وَإنَّ الرَّجُلَ ليكذبُ حتى يكتبَ عندَ اللهِ كذَّابا))

[صحيح متفق عليه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه]

إذاً نحن حينما نربي أولادنا على الصدق نعيش في حالة أخرى ، الحقيقة الكذب منتشر في العالم ، نكذب في كلامنا ، في خطابنا ، في تقييمنا للأشياء ، نكذب ونرائي ، نكذب وننافق ، هذا كله من ثغرات المجتمع الكبيرة ، لذلك أعظم ما في حياة المؤمن أنه صادق مع ربه ، صادق مع نفسه ، صادق مع

الناس ، الإنسان أحياناً يشعر بالحرج إذا تكلم الحقيقة ، لكن إذا تكلم الحقيقة وأحرج قليلاً ترتاح نفسه كثيراً ، أما إذا أوهم الآخرين بكلام غير صحيح يقول عليه الصلاة والسلام : كفى بها خيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب .

القدوة قبل الدعوة ، أنا أخاطب كل من كان موقعه الاجتماعي موقع إرشاد ، موقع قيادي ، موقع توجيه، لذلك سيدنا عمر لما جاءته كنوز كسرى يروى أن وقف رجلان مع رمحيهما فلم يترائيا لعظم الكمية ، سيدنا عمر قال إن الذي أدى هذا لأمين ، سيدنا علي كان إلى جانبه قال يا أمير المؤمنين أعجبت من أمانتهم لقد عففت فعفوا ولو وقعت لوقعوا .

من كان محسناً ملك القلوب لا الرقاب :

قضية القدوة يحتاجها كل من ولاهم الله أمر المسلمين ولا سيما الدعاة إلى الله عز وجل ، القدوة قبل الدعوة ، الإحسان قبل البيان أنت إذا كنت محسناً ملكت القلوب ، وفرق كبير بين أن تملك الرقاب وبين أن تملك القلوب ، الأقوياء ملكوا الرقاب والأنبياء ملكوا القلوب ، الأقوياء عاش الناس لهم ، والأنبياء عاشوا للناس ، لذلك القدوة قبل الدعوة ، الإحسان قبل البيان ، أنت إذا أحسنت فتحت قلوب الناس لمحبتك ، فإذا تكلمت فتح الناس عقولهم لكلامك ، بإحسانك تفتح قلوبهم وبكلامك بعد الإحسان تنفتح لك عقولهم ، أما إذا كنت فصيحاً متكلماً بارعاً في إقناع الناس ولم تكن محسناً لم ينتفع الناس بهذا الكلام ، هذا المبدأ الأساسي ، القدوة قبل الدعوة ، الإحسان قبل البيان .

مرة سمعت أن امرأة تمشي مع ابنها ، أعطته قطعة سكر وبعد ثلاث مئة متر سألته أين ورقة السكرة ؟ قال ألقيتها في الطريق رجعت معه ثلاثمئة متر وقالت له ضعها في سلة المهملات ، نحن حينما نعتني بصغارنا تقر أعيننا بهم حينما يكبرون .

أولادنا أكبر ورقة رابحة ولكن يحتاجون إلى جهد كبير في توجيههم :

الآن شيء اسمه علم قيادة ، برع به بعض الدعاة إلى الله ، لأن الأمة بقادتها ، الأمة بنخبتها ، الأمة بعلمائها ، الأمة بمفكريها ، هؤلاء قادة للأمة كل في حقله ، لكن صفات القائد الرائعة متى تصنع ؟ شيء غريب من السنة إلى السنة السابعة لذلك أخطر مرحلة في التعليم المرحلة الأولى ، كل القيم ، والمبادئ ، والأساليب ، والأنماط ، وأساليب النظافة ، والأناقة ، والعناية بالثياب ، طريقة الطعام والشراب ، كل هذا يرسخ عند الطفل بين الأولى والسابعة ، وبعد هذا السن يصعب تقويم الطفل ، لذلك

نحن حينما نخاطب الأب والأم فقط ، إذا كان الأب صادقاً والأم كذلك تعلم الأطفال الصدق ، أما إذا دخن الأب أمام ابنه ، ثم رأى في يد ابنه دخينة فأقام عليه الدنيا في تناقض كبير صار .

أنا أقول إن معظم أخطاء الصغار هو خطأ من الذين يربيهم ، ولو أردنا جيلاً قوياً واعياً معطاءً يتحمل المسؤولية يجب أن نربي الأب والأم على هذه الخصائص ، أنا أقول هذا الكلام خطير جداً ونحن في أمس الحاجة إليه ولا أبالغ إذا قلت أولادنا أكبر ورقة رابحة بأيدينا ، أولادنا هم مستقبلنا ، أولادنا يعقد عليهم الأمل في أن تستعيد أمتنا دورها القيادي بين الأمم ، ولكن يحتاجون إلى جهد كبير ، يجب أن ننتبه إلى توجيههم ، يجب أن ننتبه من أين يستقون ثقافتهم ، يجب أن يستقي هؤلاء الصغار ثقافتهم من هذا الدين العظيم ، من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ، من أصحابه العظماء ، لا بد من صدق وألخص هذا الموضوع الذي يعدّ من أخطر الموضوعات التربوية أن القدوة قبل الدعوة وأن الإحسان قبل البيان .

الأستاذ عدنان :

دكتور يمكن في بعض الأحيان أن يقال عن الإنسان الصريح في موضوع إن جاءه ضيف أن يستقبله أو أن لا يستقبله ، يقال عنه إنه جلف ، يقال بالمقابل عندما تأتي التوجيهات ليكون الطفل في بيت أبويه يستمع إلى كلام الصدق ويتصرف بصدق ويقول الصدق ، نجد هنا في الميدان الاجتماعي ما يغالبنا فإما أن نغلبه وإما أن يغلبنا ، هنا كيف يمكن أن يكون التوجيه ضمن حالة اجتماعية واسعة يتهم فيها من يكون على القدوة الحسنة التي أوردتموها .

التواصي بالحق يوسع دوائر الحق :

الدكتور راتب :

الحقيقة إذا كانت هناك بقعة ضوء متألقة هذه تتوسع ، أما إذا شاع الكذب صار الصادق شاذاً ، إذا شاع النفاق أصبحت الصراحة قسوة ، نحن نريد أن نعتني ببقعة الضوء هذه لتتنامى ، الله عز وجل يقول :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

التواصي بالحق يوسع دوائر الحق ، لذلك حينما يلغى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حينما لا نتناهى عن منكر نفعله ، عندئذ تستحق الأمة الهلاك بدليل أن الله عز وجل يقول :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ (79))

(سورة المائدة)

فلا بد من أن أكون صادقاً ، ولا بد من أن أدافع عن صدقي ولو أن الآخرين تألموا ، أما حينما يشيع الكذب ، يشيع النفاق ، يصبح المؤمن غريباً وقد بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء .

كل إنسان مسؤول له أجر مرتين إذا أحسن وعليه وزر مرتين إذا أساء :

إلا أن هناك ملاحظة مهمة جداً هو أن الذي يحتل منصباً قيادياً ، معلم صف ، أب في أسرة ، مدير مستشفى ، رئيس جامعة ، مدير معمل ، أي منصب قيادي له حساب خاص عند الله ، ما حسابه الخاص؟ إن أحسن فله أجران أجر إحسانه وأجر من قلده ، وإن أساء فعليه وزران وزره ووزر من قلده ، من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، هذا ترغيب وترهيب ، الأب حينما يدخن وله أولاد يتحمل هو وزر تقليد أولاده له ، والأب حينما يصدق ويكون الموقف حرجاً له مكافأة صدقه وله مكافأة أولاده الذين أعجبوا بهذا الصدق ، فلذلك هؤلاء القادة المرشدون ، الموجهون ، العلماء ، المدرسون ، المعلمون ، الآباء ، الأمهات ، هؤلاء لهم أجر مرتين إذا أحسنوا ، وعليهم وزر مرتين إذا أساؤوا .

الأستاذ عدنان :

دكتور حتى في الحياة الاجتماعية عندما يعرف فلان أنه يسير على طريق القدوة فإنه يعرف فيما يأتي من الزمن أنه هو هكذا ، وفعلاً يجب أن نتمثل ما يفعله فلا يؤاخذه إنسان إن كان من قبل قد آخذه ، وهذا من الأخلاق الكريمة ومن مكارم الأخلاق التي نرجو الله عز وجل أن تكون واسعة الأفق في مجتمعاتنا ، ومن مكارم الأخلاق أن نتابع ما يتصل بالإعجازات العلمية لندرك عظمة الله عز وجل .

الموضوع العلمي :

الطيور تعد أكثر العجماوات تضحية في عالم الأحياء :

الدكتور راتب :

لكن لي كلمة أخيرة من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به ، أنت حينما تجعل الهموم هماً واحداً يكفيك الله الهموم كلها ، وإذا عملت لوجه واحد كفاك الله الهموم كلها .

الحقيقة أن هذه الكائنات التي نسميها العجماوات تعيش حياة اجتماعية راقية فالطيور مثلاً تعد أكثر العجماوات تضحية في عالم الأحياء ، فالطائران الأب والأم يعملان دون توقف لأجل الصغير الخارج من البيضة ، بعض أنواع الطيور تحضر الطعام لصغارها باستمرار طوال أربع وعشرين ساعة ،

عمل الصغار الوحيد هو فتح أفواهها انتظاراً للطعام الذي سيحضره الأب أو الأم ، فالصغار بحاجة إلى رحمة الوالدين وإيثارهما ليبقوا على قيد الحياة ، وإنّ تَرْكَ الفراخ تعيش لوحدها يعدّ موتاً محققاً لها .

هذه الطيور الغواصة تضحي بنفسها لأجل صغارها ، فالعش الذي بنته خلف الشلال الصغير أمين وبعيد عن الأعين ، يجمع الوالدان الطعام لصغارهما دون كلل ، وفي كل عشر دقائق يأتي الطعام إلى العش ، هذه الكائنات ليست بشراً بل طيور ، والمنتظر من كل حيوان بحسب رأي بعض من يعتقد بالتطور الاهتمام بنفسه وإشباع بطنه وحسب ، ولكن الأمر هنا بعكس ذلك تماماً ، فالأمهات تهتم بصغارها قبل نفسها بل وتضحي بحياتها من أجلهن .

وتقوم كائنات كثيرة بتضحيات أكبر لأجل صغارها ، الأثل الوحشي تخاطر بحياتها لحماية صغارها ، تضع نفسها كالجدار الواقي بين المفترس وصغارها عند أي هجوم ، تتظاهر أنها بطيئة من أجل صغارها رغم أنها أسرع من هذه الصغار ، وهكذا عند وصول الحيوانات المفترسة ستنجو الصغار وقد تموت الأم ، هذه مغامرة خطيرة جداً وأحياناً تخسر بعض الكائنات حياتها في هذه المخاطرة .

أستاذ عدنان نحن حينما نتأمل عظمة الخلق نتعرف إلى الخالق ودائماً وأبداً التفكر في مخلوقات الله أقصر طريق إلى الله وأوسع باب ندخل منه على الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة انفينيتي - مكارم الأخلاق - الدرس (30-30) : التأني
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ عدنان :

دكتور مما شاع على الألسنة في التأني السلامة وفي العجلة الندامة ، لكن يمكن أن يكون التأني حسب رأي بعض الناس بلادة ، بحيث يكون التأني بطيئاً بطيئاً إلى أن يكون بلادة ، ويمكن في العجلة أن يكون الإنتاج إذا ما درست الأمور سلامة وخطوات سليمة ، من خلال هذا نخلص إلى أن هناك تعريفاً موضحاً للتأني والعجلة .

تعريف التأني و العجلة :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ عدنان من تعريفات التأني وهو من الفضائل عدم العجلة في طلب الشيء ، والتمهل في تحصيله والترفق فيه ، ولكن الأصل في هذا قوله تعالى :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

الحقيقة أن السيرة تؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا مشى كان كأنه ينحط من صبب ، أي مشى مسرعاً ، وسيدنا عمر تقول عنه السيدة عائشة رضي الله عنها ، رحم الله عمر ما رأيت أزهد منه ، كان إذا سار أسرع ، وإذا أطعم أشبع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، من سيرة النبي وسيرة أصحابه يتبين أن هؤلاء النخبة كانوا إذا ساروا أسرعوا.

المؤمن يُخطط لمستقبله البعيد و الفاسق يعيش لدنياه :

الآية تقول :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

ما معنى هوناً هنا ؟ بالتأكيد ليس السير البطيء ولكن هؤلاء النخبة من البشر لا يسمحون لمشكلة في الدنيا أن تصرفهم عن هدفهم الكبير ، لا يسمحون لضائقة مادية طارئة أن تصرفهم عن رسالتهم العظيمة ، الأناس العظماء فوق آلامهم وفوق المصائب وفوق المضائق الصعبة ، لذلك المؤمن يخطط لمستقبله البعيد ، أجريت بعض الاستبيانات فوجد مع الأسف الشديد أن معظم الناس بلا هدف ، 3% من بين كل مئة لهم أهداف واضحة ، أنا أقول إما أن تخطط لهدف واضح وإما أن يُخطط لك ، إما أن تكون شيئاً مذكوراً في حياة أمتك وإما أن تكون رقماً تافهاً لا معنى له إطلاقاً ، لذلك الإنسان حينما يعرف هدفه والذي ألاحظه في بلاد الغرب أن الإنسان بلا هدف ، يجب أن يستمتع بالحياة أن يأكل وأن يشرب وأن يعتني بكل ما يمتعه ، ويمضي وقته في اللهو ، حتى إذا جاء الموت كان صفر اليدين ، أما المؤمن له هدف واضح وقد قال الله عز وجل :

(أفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك)

من عرف هدفه سعى إليه و اختار الوسائل المناسبة لتحقيقه :

حينما يكون لي هدف لا أسمح لأية مشكلة طارئة أن تصرفني عن هدفي ، لذلك أنا أضرب مثلاً دقيقاً جداً لو أن شخصاً من الطلاب سافر إلى بلد غربي لينال دكتوراه ما دام هدفه واضحاً جداً جداً قد يسلك آلاف الطرائق ، هناك جزئيات تتصل بهدفه ، مثلاً يستأجر بيتاً قريب من الجامعة في هذا البيت يوفر الوقت والمال والجهد ، ويصاحب صديقاً متقناً اللغة التي يدرسها ليتعلم منه الحوار ، الآن يشتري مجلة تتصل باختصاصه ، الآن يأكل الطعام المناسب لدراسته ، حينما تتضح الأهداف تبرز الوسائل الفعالة لهذه الأهداف ، أما الإنسان حينما يضيع هدفه يتخبط في الحياة الدنيا ، إذاً :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

يبحثون عن الحقيقة ، يبحثون عن المنهج ، يرسمون الهدف الكبير ، يختارون الوسائل ، لذلك هؤلاء لن تصرفهم عن أهدافهم مشكلة طارئة ، ولا ضيق ذات اليد ، ولا ألم ، أما الذين يعيشون بلا هدف أي

شيء يقف عقبة أمامهم ، بل أي شيء آخر يصرفهم عن أهدافهم الحقيقية ، إن عظماء البشر لا يمكن لا لسبائك الذهب اللامعة ولا لسياط الجلادين اللاذعة أن تصرفهم عن أهدافهم .

من عرف غاية وجوده و حقيقة وجوده حقق الهدف من وجوده في هذه الحياة :

الأصل في هذا الموضوع :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

أي يبحثون عن حقيقة وجودهم ، عن غاية وجودهم ، يبحثون عن خالقهم الذي خلقهم ، يبحثون عن منهج ربهم ، يحاولون أن يحققوا الهدف من وجودهم :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف)

والإنسان حينما يصل إلى شفير القبر ولا يعلم لماذا خلق ؛ عندئذ يحس بالخسارة الكبيرة :

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

(سورة الزمر الآية : 15)

القرارات السريعة دائماً لا تُبنى إلا على معلومات خاطئة :

أستاذ عدنان في دورات الآن شائعة جداً اسمها البرمجة العصبية اللغوية ، في هذه الدورات لها قواعد رائعة ، هذه البرمجة أساسها أن الناجحين في الحياة كيف كان سلوكهم ؟ وكيف كانت خططهم ؟ هذه تدرس وتعدّ كقواعد ، من هذه القواعد اسمها الخارطة بخلاف الواقع ، كيف ؟ إنسان أحياناً يتسرع ويفهم الشيء على خلاف ما هو عليه ، يدفع الثمن باهظاً ، كم من شركة انفصمت عراها باتخاذ قرار متسرع بناء على معلومات غير صحيحة ؟ كم من طلاق تمّ بين زوجين وعندهم أولاد بسبب قرار متسرع بني على معلومات خاطئة ؟ هناك نكبات كبيرة ، أحياناً تنشأ حروب لسوء فهم بين معسكرين ، فذلك هذه البرمجة العصبية اللغوية قالوا فيها الخارطة خلاف الواقع كيف ؟

يروون قصة طريفة أن امرأة مجمعة أن تسافر عن طريق مطار إلى بلد آخر ، في المطار إلى أن يحين موعد الطائرة اشترت صحيفة يومية وعلبة بسكويت وطلبت فنجان قهوة وجلست في مكان استراحة المسافرين ، أمامها رجل ، هي فتحت الجريدة لتقرأ وبدأت ترشف من هذا الفنجان وتأخذ قطعة بسكويت ، إذا بيده تمتد إلى علبة البسكويت وتأخذ قطعة ، انزعجت ، لا لأنه أخذ القطعة بل لأنه لم

يستأذنها ، إذا بيده تأخذ قطعة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وكلما أخذ هذا الرجل قطعة ارتفع ضغطها وتألمت من هذه الوقاحة إلى أن همت أن تعنفه ، لكنها توقعت أنه يعرفها ، أزاحت الصحيفة فإذا هو لا يعرفها ، بل ابتسم في وجهها وتابع أخذه لقطع البسكويت ، النتيجة في نهاية المطاف بقيت قطعة واحدة أخذها وقسمها نصفين أخذ نصفها الأول وأعطاها النصف الثاني ، هنا بلغ غضبها أشده وكادت تشتمه وتبصق في وجهه ، لكن نادى المنادي للصعود إلى الطائرة فأغلقت الصحيفة لتضعها في محفظتها فإذا بعلبة البسكويت التي اشترتها في محفظتها هذه له وليست لها .

التفكير العلمي مهم جداً في اتخاذ القرارات :

أحياناً بين الزوجين ، بين الشريكين ، بين الأخوين ، نسيء فهم الحقيقة ، نتوتر ، نغضب ، نرغي ، نزبد ، يعلو الصوت ، والحقيقة غير صحيحة فحبذا لو طبق الناس قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6))

(سورة الحجرات)

أخطر شيء عند المتخلف أن يتخذ قراراً متسرعاً من دون معلومات صحيحة والآية واضحة جداً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6))

(سورة الحجرات)

هذا منهج فقبل أن أتخذ القرار ، قبل أن أغضب ، قبل أن أشتم ، قبل أن أقطع ، قبل أن أطلق ، قبل أن أحلّ الشركة ، ينبغي أن يكون القرار مستنداً على أدلة علمية ، التفكير العلمي مهم جداً .

الموضوعية قيمة مشتركة بين العلم و الأخلاق :

أستاذ عدنان هناك قيمة مشتركة بين العلم والأخلاق هي في الوقت نفسه قيمة علمية راقية ، وفي الوقت نفسه قيمة أخلاقية ، بل إن العلم والخلق يلتقيان بهذه القيمة إنها الموضوعية ، النبي عليه الصلاة والسلام حينما استعرض الأسرى في بدر إذا فيهم صهره وهو مشرك وجاء ليقاتله ، ماذا قال ؟ قال والله ما ذممناه صهراً ، كان صهراً ممتازاً ، لكن هذه الموضوعية تركت في نفسه أثراً مذهلاً ، أنت أخلاقي إذا كنت موضوعياً ، وأنت أخلاقي إذا كنت عالماً ، يعني إذا كنت عالماً فأنت موضوعي ، وإذا كنت أخلاقياً فأنت موضوعي ، هذه قيمة مشتركة بين العلم والأخلاق لذلك لا بد من التروي ، لا بد من الصبر ، القرآن الكريم ينطق بهذه الحقيقة قال سيدنا سليمان :

(قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

(سورة النمل)

هذا يحتاجه الأب قبل أن تعنف ابنك ، قبل أن تعنف ابنتك ، قبل أن يأتي الصهر ويتكلم كلاماً تسأل ابنتك ما الذي حصل ؟

التأني من مكارم الأخلاق :

أنا لا أرى من شيء يجنبنا الخطأ في الحكم كالتروي والتأني ، في التأني السلامة وفي العجلة الندامة ، مثلاً لو أنك استمعت إلى إنسان يشكو إنساناً ، يمكن أن يقول كلاماً غير صحيح لا بد من أن تستمتع من الطرف الآخر والأكمل أن يجتمعا معاً أمامك ، لأنهما إن اجتمعا تسعون بالمئة من أقوالهم تلغى ، لذلك نحن حينما نكون موضوعيين المعلم أحياناً حينما يضجر ويضرب المشتكي والمشتكى عليه معاً أنا أقول كلمة قاسية جداً ارتكب بحق هذين جريمة ، لأنه ألغى العدل بينهما ، لأنه ألغى المبادئ ضرب المشتكي والمشتكى لأنه ضجر ، التروي يحتاج إلى أخلاق عالية ، يحتاج إلى اتصال بالله ، يحتاج إلى حبّ الآخرين ، يحتاج إلى أن يكون عمله متناسباً مع إيمانه ، إذاً قضية التأني من مكارم الأخلاق وقضية التأني خطيرة جداً في حياتنا .

الأستاذ عدنان :

عمر بن الخطاب سيدي لما أمّر موضوع القضاء ، وإذا جاءك الخصم فلعل الآخر فقئت عيناه معاً .

الدكتور راتب :

نحن أمام فضيلة اسمها التأني أنا ألخصها بأنه أن تبطئ في اتخاذ القرار ، دائماً الموضوع الساخن الأولى أن نضعه حتى يبرد ، ثم تعالجه ، لو أن كل واحد منا استفزه الغضب إذا غضبت إياك أن تتخذ قراراً ، إياك قل أنا أتخذ القرار بعد أسبوع .

الأستاذ عدنان :

فإن كان الغضب لله تعالى .

من اتخذ قراراً متأنياً لا يندم على شيء قط :

الدكتور راتب :

موضوع آخر ، أنا أتحدث عن العلاقات الاجتماعية ، أما إذا غضبت قد يكون الغضب غير مبرر ، وقد تكون المعلومات غير صحيحة ، وقد يكون الشاكي قد افترى وقد بالغ ، لذلك أنت حينما تتخذ قراراً

متأنياً لا يحصل شيء ، أستاذ عدنان هنا وقت مناسب للحديث عن موضوع الطلاق ، ما هو المنهج الإلهي في الطلاق ؟ أو ما هو الطلاق السني النبوي ؟ لو أن خلافاً وقع بين زوجين ، الزوج يحلف على زوجته يمين طلاق ، تبقى عنده في البيت تتزين له وتأكل معه ، هذا طلاق رجعي ، في ثورة الغضب حلف هذا اليمين ، لكن بعد حين يرى أنه بالغ في غضبه ، يرى أنه محقة بعض الشيء فيما تصرفت ، الخط البياني للغضب ينزل وينزل وينزل إلى أن يجد أنه لا مبرر لهذا العمل يكفي أن يقول لها راجعتك فترجع ، يكفي أن يضع يده على يدها ، فقد راجعها حكماً .

هذا السلوك سلوك صحيح أما حينما يغضب أشد الغضب ويطردها إلى بيت أهلها ، ماذا قال الله عز وجل ؟

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ (1))

(سورة الطلاق)

الطلاق لا يحلّ مشكلة ولكن به تبدأ المشكلة :

إذا بقيت المرأة في بيت زوجها أكبر مشكلة بينها وبينه تتلاشى وتتضاءل وتنتهي ، أما إذا خرجت إلى بيت أهلها أصغر مشكلة قد تنتهي بالطلاق ، هناك من يغذيها ، خالتها ، عمتها ، أمها ، أخوتها ، أقرباؤها ، وهي لا تتصل به يحقد عليها ، لم تتصل بي لم تعبأ بي لذلك دقة هذه الآية :

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ (1))

(سورة الطلاق)

ولو أن هذه الآية لها معنى سياقي أنا أنزعها من سياقها لتكون قاعدة عامة ، لذلك بقاء المرأة في بيت زوجها يحيل أكبر مشكلة إلى أصغر مشكلة ، وخروجها من بيت زوجها إلى بيت أهلها يجعل أصغر مشكلة أكبر مشكلة وقد تنتهي بالطلاق ، إذاً لا تتسرع باتخاذ القرار ، تبصر ، لو أنها بقيت عنده في البيت شعر بحاجته إليها وشعر بمحبتها القديمة ، وشعر أنه بالغ في غضبه إذاً يتلاشى الأمر ، يمكن أن يقع الأمر مرة ثانية وله في الطلاق جولة ثانية ، وفي الثالثة تصبح طالقاً دينونة كبرى ، لذلك حتى الطلاق الذي هو فصم أقدس علاقة بين اثنين لا بد من التروي لا بد من التأني ، قال ابن عباس أيرتكب أحدكم حماقته ثم يقول يا بن عباس يا بن عباس ، هذا الذي لا يقدر نعمة الزوجة والتي لا تقدر نعمة الزوج وبشكل متسرع يسارعون إلى فصم هذه العلاقة يندمون بعد ذلك أشد الندم ، أنا أقول لأخوتي المشاهدين الطلاق لا يحل مشكلة ولكن به تبدأ المشكلة ولاسيما إذا كان هناك أطفال .

التأني فضيلة علينا أن نحافظ عليها :

إذاً قضية التأني فضيلة ، لا تتسرع باتخاذ القرار ، أعطِ نفسك مهلة ، قل في هذا الموضوع الخطير لا بد من أن أرجئ اتخاذ القرار إلى أسبوع أو إلى أسبوعين أو إلى شهر ، الأمور تتبدى ، تتوضح ، القضية تنجلي ، يأتيك من يوضح لك ، يأتيك من ينبهك ، يأتيك من يصحح لك تفكيرك ، لذلك أنا أتمنى أن تكون هذه الفضيلة مطبقة في حياتنا ، أنا أقسم لك بالله أن عدداً كبيراً من الأسر شردت بسبب قرار متسرع ، بناء على معلومات خاطئة .

الأستاذ عدنان :

دكتور في بعض الأحيان يمكن أن يكون التأني نوعاً من أنواع البلادة ، ويمكن أن تكون العجلة فيها الفائدة ، كأن ندافع عن الوطن ، إذا ما كان الموقف موقف دفاع وهذا يستدعي السرعة والتأني لا تفيد إنها تضعف نوضح هذه الناحية .

العاقل يعيش المستقبل :

الدكتور راتب :

الحقيقة أنا حينما تكلمت في هذا الموضوع وألححت على التأني ، أنا ينصرف ذهني إلى العلاقات الزوجية وعلاقات الشراكات والعلاقات الاجتماعية ، لكن حينما يغدو الأمر مصيرياً ، حينما يغدو الأمر خطراً على الوطن لا بد من سرعة اتخاذ القرار ، لكن أتمنى أن يعيش المجتمع المؤمن المستقبل، إذا عاش المستقبل خطط للمستقبل ، وهو الذي صنع الفعل وأجبر عدوه أن يكون له ردة فعل ، أنا أتمنى أن نخطط لمستقبلنا ، أنا مرة أنبأني أحد الأخوة أنه يعمل في شركة صنع سيارات راقية جداً قال : أنا مهمتي أن أخطط لسيارة عام ألفين وعشرين وضع الوقود إلى آخره ، أنا أقول دائماً الإنسان العاقل يعيش المستقبل فنحن يجب أن نخطط لمستقبلنا ، يجب أن نعد الخطط الجاهزة ، فحينما يحين الحين نتخذ القرار بتنفيذ الخطة رقم واحد وإلا الثانية وإلا الثالثة ، أما في قضايا المصير ، قضايا الوطن ، قضايا العدوان ، لا ينفع إلا اتخاذ القرار العاجل ، وقد يكون التأخير خطراً كبيراً .

قضايا المصير ، قضايا الوطن ، قضايا العدوان ، لا ينفع معها إلا اتخاذ القرار العاجل :

أحياناً الإنسان يخسر حرباً بتأخير ردّ العدوان ، قد يخسر أحياناً منصباً بكلمة غير دقيقة يبطئ بالإجابة يخسر ، فأنا لست مع التأني مطلقاً ، أنا مع التأني في العلاقات الزوجية ، في العلاقات بين الشركاء ،

في العلاقات الاجتماعية ، أما في القضايا المصيرية لابد من اتخاذ القرار السريع بل أضيف لا بد من إعداد خطط جاهزة ، وخطط مبرمجة ، وخطط متسلسلة ، وخطط عميقة ، وعندئذ أقول : إن حدث كذا أتخذ الخطة الأولى ، إن حدث كذا الثانية ، إن حدث كذا الثالثة ، هذا من لوازم الدفاع عن الوطن مثلاً لو قال الطبيب الإنسان لا بد من إجراء عملية فورية هنا لا يوجد تأني وإلا يفقد الإنسان حياته .

طبعاً شيء مألوف ومعروف ، قضايا الصحة ، قضايا الأزمات القلبية الحادة ، أحياناً إنسان يموت بسبب تقصير ، وإن كان مات بأجله ولكن بسبب تقصير ، في إنسان أحياناً يهمل في تنفيذ تعليمات الطبيب ، في الأمور الطارئة المستعجلة أنا دائماً أقول هذا : هذه القضية إسعافية ؟ إذا قال لي السائل إسعافية إذاً أتخذ القرار السريع ، في قضايا غير إسعافية في قضايا تحل على التراخي ، وفي قضايا تحل على السرعة ، إذاً طبعاً نحن حينما تحدثنا عن التأني قصدنا به الجانب الاجتماعي ، الجانب الزوجي ، العلاقات المعينة الاقتصادية ، أما في جوانب أخرى لا بد من السرعة :

(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84))

(سورة طه)

الأستاذ عدنان :

على كل هذا كله ينبري ضمن تفسيرك للقرآن الكريم في موضوع أن المؤمنين يسيرون على الأرض هوناً ، أي الأمور الكلية التي يعرفونها فلا يصرفهم شيء جزئي عن الكمال في مشيهم ومسيرتهم .

المؤمنون يسيرون على الأرض هوناً فلا يصرفهم شيء جزئي عن كمالهم :

الدكتور راتب :

قال بعض الشعراء :

كن عن همومك معرضا وكل الأمور إلى القضا
وابشر بخيـــر عاجل تنسى به ما قد مضى
فلرب أمر مسخط لك في عواقبـــه رضا
ولربما ضاق المضيـق ولربما اتســع الفضا
اللـــه يفعل ما يشاء فلا تكـــن معترضا
الله عودك الجميـــل فقس على ما قد مضى

***

الأستاذ عدنان : دكتور من جملة الأشياء التي أرى أن التوقف عندها مفيد موضوع الدعاء ، كثير من الناس يدعون ربهم ، ويظنون أن الدعاء يجب أن يستجاب فوراً ، على حين أن الأمر ليس من الواجب

أن يكون كذلك ، وشرعنا الإسلامي وضح موضوع الدعاء ، والرسول عليه الصلاة والسلام بيّنه ، لو تطرقنا إلى هذه الناحية .

المؤمن يستلهم الله عز وجل في الدعاء :

الدكتور راتب :

أستاذ عدنان الآية الدقيقة جداً في الدعاء :

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ)

(سورة الفرقان الآية : 77)

أنت متى تدعو ؟ تدعو إذا أيقنت أن الذي تدعوه موجود ، ثم أيقنت أن الذي تدعوه يسمعك ، ثم أيقنت أن الذي تدعوه قادر على أن يلبيك ، ثم أيقنت أن الذي تدعوه يحب أن يلبيك ، موجود ، ويسمعك ، ويلبيك ، ويحب أن يلبيك ، لذلك الدعاء هو العبادة ، فنحن ما علاقة الدعاء بهذا الموضوع ؟ حينما تضطر أن تتخذ قراراً ادعُ الله أن يلهمك الصواب ، ادعُ الله أن يوفقك لكشف الحقيقة ، ادعُ الله أن يلين قلوب الآخرين اتجاهك ، فالدعاء مخ العبادة لكن الدعاء دليل قطعي على الإيمان أنت لا تدعو جهة ليست موجودة ، بل لا تدعو جهة لا تسمعك ، بل لا تدعو جهة لا تقدر على إنقاذك ، بل لا تدعو جهة لا تحب أن تنقذك ، إذاً الدعاء له علاقة بموضوع التأني ؛ أنت حينما تواجه مشكلة يجب أن تتخذ قراراً أنت في حيرة لذلك المؤمن يستلهم الله عز وجل في الدعاء ، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

الاستخارة و الاستشارة :

سوف أضيف على الدعاء أنت مكلف أن تستشير وأن تستخير ، الاستشارة لأولي الخبرة من المؤمنين، ومن استشار الرجال استعار عقولهم ، وأنت مكلف أن تستخير الله عز وجل بدعاء الاستخارة ، فالاستشارة لأولي الخبرة من المؤمنين والاستخارة لله عز وجل ، فأنت حينما تأتي مشكلة لا بد من أن تتخذ القرار ، القبول أو الرفض معك الدعاء تسأل الله عز وجل أن يلهمك الصواب ، ومعك الاستخارة، ومعك الاستشارة ، الاستشارة لأولي الخبرة من المؤمنين وتستخير الله عز وجل .

في بعض المشكلات ينفع الدعاء وتنفع الاستشارة وتنفع الاستخارة ، ولكن بشكل مفصل أو بشكل توضيحي لا بد من أن تسارع إلى الأشياء التي تقتضي فيها السرعة ، مثلاً قضايا تهدد صحتي ، تهدد أمتي ، تهدد المستقبل ، لابد من السرعة إليها والتأني في هذا الموقف لا يناسب ، بينما في أمور أخرى

كطلب الرزق مثلاً يمكن أن تتأنى لأنه كما في الدعاء : اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك .

الأستاذ عدنان :

نتابع معكم الآن دكتور موضوع الإعجاز العلمي ؛ ليكون من الأشياء التي نتابعها متعرفين من خلالها على معجزات الله تعالى ، وأن نكون على طريق مكارم الأخلاق .

الموضوع العلمي :

التضحيات التي تقدمها اللقالق لصغارها :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن التضحيات لأجل الصغار تشاهد من أبرد المناطق إلى أشد المناطق حرارة في العالم كله ، هنا غابات تايلاند ، أهم مشكلة هنا لصغار اللقالق المولودة الحرارة الحارقة ، لهذه السبب تُحضر اللقالق الكبيرة المياه إلى أعشاشها بمناقيرها ، وتصب هذا الماء على صغارها التي لم تنبت أرياشها بعد.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس